مجلة إسلامية شهرية جامعة

البيان

AL BAYAN

السنة الثامنة والعشرون . العدد ٣١٥ . ذو القعدة ١٤٣٤ هـ . سبتمبر - أكتوبر ٢٠١٣ م

مكاسب الصهاينة من استئناف المفاوضات

حلقات ابن مسعود بمسجد الكوفة..
قراءة إدارية وتربوية

الإسلام والصليبيات..
رؤية يهودية

سورية.. الكيان الجمهوري

بين سايكس-بيكو وكيري-لافروف

تفسير مركز تفسير للدراسات القرآنية Tafsir Center for Qur'anic Studies
صدور كتاب
المختصر في التفسير

الآن

مستشفى أبها الخاص

مركز طب وجراحات العيون

الليزر البارد...أمان أكثر وتكلفة أقل

تعتبر عمليات تصحيح الإبصار من أكثر العمليات نجاحاً على الإطلاق، حيث أجريت ملايين العمليات من هذا النوع في مراكز طبية متخصصة وحققت نجاحاً باهراً

(تحت إشراف نخبة من أفضل الاستشاريين)

خدمات المركز

- عمليات زراعة القرنية وزرع الحلقات لمرضى القرنية المخروطية.
- إجراء جميع الفحوصات الخاصة بالعين من تصوير القرنية وتصوير قاع القرنية وتصوير قاع العين باستخدام الصبغة وخريطة مجال الإبصار وأشعة الموجات الصوتية على العين.
- عمليات إزالة المياه البيضاء بالموجات فوق الصوتية مع زرع العدسة.
- عمليات المياه الزرقاء.
- عمليات الليزر للشبكية.
- عمليات انفصال الشبكية وإزالة الجسم الزجاجي.
- متابعة وعلاج مرضى الاعتلال الشبكي للسكريين.
- عمليات حزام السيلكون لتعديل انفصال الشبكية بالتبريد.
- عمليات تصحيح طول وقصر النظر باستعمال الليزر.
- عمليات الحول وتجميل العين.

للحجز و الاستعلام

072292222

تحويلة: 240، 241، 242

www.aph.emd.sa

مجلة البيان
إسلامية . شهرية . جامعة

خدمة العملاء

السعودية
ص. ب ٢٦٩٧٠ الرياض: ١١٤٩٦.
الهاتف الموحد: ٩٢٠٠٠٤٥٤٨
هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨ ـ فاكس: ٤٥٣٢١٢١

للمراسلات عبر البريد الإلكتروني

التحرير
editors@albayan.co.uk
خدمة العملاء
sub@albayan.co.uk
التسويق
sales@albayan.co.uk
العلاقات العامة
pr@albayan.co.uk

المـوزعـــون

الأردن: الشركة الأردنية للتوزيع، عمان ص. ب ٣٧٥ هاتف: ٥٣٥٨٨٥٥، فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣.
الإمارات العربية المتحدة: شركة الإمارات للطباعة والنشر، دبي ص. ب ٦٠٤٩٩
هاتف : ٣٩١٦٥٠١، فاكس ٢٦٦٦١٢٦ .
سلطنة عُمان: مؤسسة العطاء للتوزيع، ص.ب ٤٧٣ ـ العذيبة ١٣٠ ـ هاتف: ٢٤٤٩١٣٩٩ ـ فاكس: ٢٤٤٩٣٢٠٠ .
البحرين: مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف ـ **المنامة:** ص.ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ ـ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.
السعودية : الشركة الوطنية للتوزيع:
هاتف: ٤٨٧١٤١٤ ـ فاكس: ٤٨٧١٤٦٠.
السودان: الخرطوم، مكتب المجلة ٨٣٢١٢١٨٣.
قطـر: دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، الدوحة هاتف: ٤٥٥٧٨١٠ – ٤٥٥٧٨١١ – ٤٥٥٧٨١٢ – فاكس: ٤٥٥٧٨١٩.
الكويت: شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع، ص. ب: ٢٩١٢٦ ـ الكويت الرمز البريدي ١٣١٥٠ ـ هاتف: ٢٤٠٥٣٢١ ـ ٢٤١٧٨١٠ ـ فاكس: ٢٤٧٨٠٩.
المغـرب: سوشبرس للتوزيع، الدار البيضاء، ش جمال بن أحمد ص. ب ١٣٦٨٣ ـ هاتف: ٢٤٠٠٢٢٣ ـ فاكس: ٢٤٦٢٤٩.
اليمـن: دار القدس للنشر والتوزيع، صنعاء : ص. ب ١١٧٧٦ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة القديمة، هاتف: ٢٠٦٤٦٧ ـ فاكس: ٤٠٥١٣٥
تونس: الشركة التونسية للصحافة، ت ٠٠٢١٦٧١٣٢٢٤٩٩ – فاكس: ٠٠٢١٦٧١٣٢٢٠٠٤

رئيس التحرير
أحمد بن عبد الرحمن الصويان
alsowayan@albayan.co.uk

مدير التحرير
د. عبد الله بن سليمان الفراج

هيئة التحرير
أحمد بن عبد العزيز العامر
د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف
د. يوسف بن صالح الصغير
فهد بن صالح العجلان
د. أحمد بن عبد المحسن العساف
فيصل بن علي أحمد الكاملي

سكرتير التحرير
إسلام بن سعد داود

الإخراج الفني
محمد سالم لرضي
صلاح الدين الحجري

عنوان المجلة على الشبكة العالمية
www.albayan.co.uk
YouTube | f | t

اشتراكات البيان Whatsapp & SMS
٠٠٩٦٦٥٥٤١٩٢٤١٣

الحسابات

السعودية: مصرف الراجحي
آي بان: SA١٣٨٠٠٠٠٢٩٦٦٠٨٠١٠٠٢١٠٠٧

الاشتراكات

السعودية ودول الخليج	١٢٠	ريال سعودي
بريطانيا وايرلندا	٤٧	يورو
أوروبا	٥٥	يورو
البلاد العربية وإفريقيا	٤٥	يورو
أمريكا وبقية دول العالم	٥٥	يورو
المؤسسات الرسمية	٦٠	يورو

الافتتاحية

٤ **المصلحة بين الشرع والهوى**
التحرير

العقيدة والشريعة

٦ **الفتن في صراع الحق والباطل**
محمد بن شاكر الشريف

مِلَلٌ ونِحَل

١٠ **مَن هُم السُّمَنية؟**
فيصل بن علي الكاملي

قضايا تربوية

١٢ **الوساطة بين الفكر والتربية**
مشاري الشثري

٢٢ **الأمراض الستة للأمة.. التشخيص والعلاج**
د. أحمد بازز

قضايا دعوية

٢٨ **حلقات ابن مسعود بمسجد الكوفة.. قراءة إدارية وتربوية**
فايز بن سعيد الزهراني

٣٤ **الجاذبية الأخلاقية**
أحمد عبد المجيد مكي

نص شعري

٣٨ **في نُصرة «أبو الطيب» السريري للرسول ﷺ**
عمر البخاري

المسلمون والعالم

٤٠ **سورية.. الكيان الجمهوري بين سايكس-بيكو وكيري-لافروف**
د. بشير زين العابدين

٤٨ **مصر.. هل تصبح نموذجاً لـ «الدولة المُشاع»؟**
أحمد فهمي

٥٠ مكاسب الصهاينة من استئناف المفاوضات
د. صالح النعامي

٥٤ تحديات السياسة الخارجية التركية
علي حسين باكير

٥٦ جولة كيري واستئناف المفاوضات .. قراءة تحليلية
أحمد دلول

٦٢ تونس وهواجس الانقلاب العسكري في مصر
عبد الرحيم بلشقار بنعلي

٦٦ الجيش الصهيوني..العقيدة القتالية وتحديات المستقبل
أحمد أبو دقة

عين على العدو

٧٠ تجدد المفاوضات الفلسطينية - الإسرائيلية بعد انقلاب مصر
د. عدنان أبو عامر

قراءة

٧٢ الإسلام والصليبيات.. رؤية يهودية
د. عبد الكريم إبراهيم السمك

في دائرة الضوء

٧٦ موقف السنهوري من تطبيق الشريعة وتقنينها
محمد وفيق زين العابدين

قصة قصيرة

٨٢ فتاتي
عادل مناع

تاريخية

٨٤ من تاريخ الإسلام في الولايات المتحدة
محمد وقيع الله أحمد

الباب المفتوح

٩١ فضل الغدو للمساجد وعمارتها
عبد العزيز مصطفى الشامي

الورقة الأخيرة

٩٤ إمام إفريقيا
خالد بن عبدالله الفواز

[كلمة صغيرة]

ديمقراطيَّتهم الانتقائية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين.. وبعد:

فقد نجح العسكر في تمرير الانقلاب، وتقافزت الأحزاب والتيارات الليبرالية للصعود على الدبابة، وأكدت بفعلها هذا أنّه لا ظهور لها في المجتمع ولا صعود لها في عالم السياسة إلا في أحضان الديكتاتورية!

وبدأت الآن مرحلة جديدة من الديمقراطية الانتقائية التي يمكن أن تستوعب كل شذوذ فكري، وتتسع لكل رأي سياسي، لكنها تضيق ذرعاً بالتيارات الإسلامية.

لقد استوردوا من الديمقراطية غشاءً رقيقاً شفافاً كبيت العنكبوت، يخفي تحته معاني الكراهية والاستبداد. يصف السياسي الألماني (مراد هوفمان) موقف الغرب من المسلمين بقوله: (إن الغرب يتسامح مع كل المعتقدات والملل، حتى مع عبدة الشيطان، لكنه لا يظهر أي تسامح مع المسلمين). وهكذا العلمانيون العرب في إقصائهم للإسلاميين؛ فهم يتعاملون معهم على أنهم حالة أمنية لا سياسية أو فكرية، ومن ثم فإن الأسلوب الوحيد للتعامل معهم هو القمع والإقصاء!

نعم.. ربما يتدثر بعضهم بالاعتدال ويقبل بوجود بعض التيارات الإسلامية، لكن بصفة رمزية لتكميل المشهد الصوري للديمقراطية، لكن أن يصبح الإسلاميون قوة سياسية تتلاءم مع وزنها الشعبي وحضورهم السياسي؛ فهذا من المحرمات الممنوعة التي لا يمكن أن يقبلها النادي العلماني!

هذه هي الديمقراطية العربية بثوبها الجديد، فبعد تجربتي الجزائر ومصر هل استوعب الإسلاميون اللعبة؟!

وهل أدركوا أن تفرّقهم واختلافهم هو الثغرة التي يُخترقون منها في كل نازلة؟!

المصلحة

بين الشرع والهوى

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على نبينا محمَّد وعلى آله وصحبه، وبعد:

فقد أقام الله – سبحانه – من الشريعة فرقاناً بين الشبهات والشهوات من جهة، وبين المصالح الفطرية المعتبرة من جهة أخرى، وجعل شريعته الخاتمة عدلاً في جميع أحكامها، وقال عن مصدرها الأول: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وامتن على أمته بإرسال الرحمة المهداة للبشرية كما وصفها الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقد أجمع العلماء على أن أحكام الشريعة الإسلامية مشتملة على مصالح العباد، سواء أكانت ضرورية أم حاجية أم تحسينية، وقال الإمام الشاطبي في الموافقات: «المعلوم من الشريعة أنها شُرعت لمصالح العباد، فالتكليف كله إما لدرء مفسدة، وإما لجلب مصلحة، أو لهما معاً». وإن تزاحمت المصالح قُدّم أهمها وأجلها، وإن فات أدناها، وإن تزاحمت المفاسد عُطل أعظمها فساداً باحتمال أدناها، كما قرر ذلك الإمام ابن القيم.

والمصلحة ضد المفسدة، وهي المنفعة أو وسيلتها، والمراد بالمصالح والمفاسد: ما كانت كذلك في حكم الشرع، لا ما كانت ملائمة لطبع أو نازلة عند رغبة حكومة أو مقتصرة على تحقيق فائدة لتيار أو جماعة، أو عكس ذلك من المنافرة والمضادة.

وتقدير المنفعة والمضرة ليس مقصوراً على الحياة الدنيا، فهذا أمر تدركه البهائم أحياناً، وإنما الشأن في جمع أمر

الدنيا والآخرة ليستبين الضار من النافع! وطريق الاهتداء إلى تمييز النافع من الضار هو الرسالة المحمدية وليس التقديرات الشخصية المنبتة عن الهدي الرباني، يقول الإمام الشاطبي في الموافقات: «المصالح المجتلبة شرعاً، والمفاسد المستدفعة، إنما تعتبر من حيث تقام الحياة الدنيا للحياة الأخرى، لا من حيث أهواء النفوس في جلب مصالحها العادية، أو درء مفاسدها العادية».

وقد حددت الشريعة المصالح في خمسة مقاصد، هي بالترتيب: حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال.. فحفظ الدين من باب العبادات، وحفظ النفس والعقل من باب العاديات، وحفظ النسل والمال من باب المعاملات. والمراد بالحفظ مراعاتها وجوداً وعدماً، وذلك بتشريع ما يوجدها ويقيمها ويكملها، أو بتشريع ما يكفل بقاءها واستمرارها، ويدرأ عنها ما يفوتها أو ينقص منها، ويحميها من أي اعتداء أو ضرر.

وتنقسم المصالح عند الشارع الحكيم إلى ثلاثة أقسام، هي:

١. المصالح المعتبرة التي ورد الدليل الشرعي باعتبارها ورتب عليها الأحكام.
٢. المصالح الملغاة التي دل الدليل الشرعي على إلغائها وعدم اعتبارها في الأحكام.
٣. المصالح المرسلة التي أرسلت أي تركت بلا دليل على اعتبارها أو إلغائها، فهي محل اجتهاد، يستنبط الراسخون في العلم أحكامها من خلال مقاصد الشريعة وقواعدها، كالقياس والاستحسان والاستصلاح.

والمصالح في الشرع منضبطة ومحدودة وواضحة ومرتبة، وبما أن مصدَري الشريعة هما كتاب الله وسنة نبيه – صلى الله عليه وسلم –، فيلزم أن تنتهي إليهما كل مصلحة وحكم، وما كان منها متجافياً عن طريق الكتاب والسنة فهو دخيل على شريعة رب العالمين وإن ذكرت فيه المصلحة بعدد نجوم السماء.

وللمصالح ضوابط يجب ألا تخل بها، وإلا كان في اعتبارها مصالح شرعية نظر كبير، وهذه الضوابط هي:

١. عدم مخالفتها مقاصد الشارع؛ فلا تخالف أصلاً من أصوله، ولا تنافي دليلاً من أدلة أحكامه.
٢. عدم مخالفتها القرآن الكريم.
٣. عدم مخالفتها السنة النبوية الشريفة.
٤. عدم مخالفتها الإجماع والقياس الصحيح.
٥. عدم تفويتها مصلحة مساوية لها أو راجحة عليها.
٦. أن يكون الأخذ بها لحفظ ضروري، أو لرفع حرج، وأن تكون المصلحة حقيقية لا وهمية، عامة لا خاصة.

وهذه الضوابط تحمي – بعد توفيق الله – من الانسياق مع شهوات النفس أو الانزلاق في وحل الهوى ومفاتن الدنيا وأصحاب السلطان.

وقد تسلل من باب المصالح فئام من المفسدين وذوي النوايا المريبة لتمرير ما يخالف دين الله إلى حياة المسلمين ومجتمعاتهم، وجهدوا لإجبار الأمة على قبول كل ما يعرض لها من شبهات الحضارات وشهواتها، وعَبَثَ الأفّاكون بوعي الناس ودينهم حين جمعوا برباط غير شرعي بين رعاية الإسلام للمصالح وبين ما يعدونه – بأهوائهم – مصالح، واستولدوا من هذا الارتباط نتائج آثمة لا يرتضيها ذو فطرة سليمة بله عالم بالشريعة ومقاصدها.

وإن صلاحية الشريعة لكل زمان ومكان لا يعني تغييرها حسب تغيّر الأوضاع لتناسبها، إذ الأصل تنزيل الواقع وفق المقتضيات الشرعية قدر الإمكان، كما أن تغير الفتوى مرتبط بالأعراف ولا مساس له بتغيير الأحكام وقلب المصالح أو المفاسد. ومن مكامن الخطأ إحالة تقدير المفسدة والمصلحة إلى أهواء الناس وأمزجتهم، والاتكاء على نتائج خبرات أهل الاختصاص الذين لا بصر لهم بالشريعة وأدلتها وأحكامها ومقاصدها، وإن كانوا الأبرع في الطب والاقتصاد والسياسة وغيرها.

إن قلة الفقه، ورقة الدين، واتباع الهوى، والإعجاب بالنفس، والاسترسال مع المصالح المرسلة دون خطام أو زمام؛ يقود إلى تمييع دين الله والعبث بمسلّماته وثوابته، ولا يستقيم بحال أن تكون المصالح حجة لتعطيل الحكم بالشريعة، ولا يقبل أبداً أن يحتج بالمصلحة لنقض العهود الغليظة، ولا يسوغ البتة أن تتخذ المصالح مطية لسفك الدماء المعصومة أو الحيلولة بين الناس وبين حرياتهم المقررة شرعاً.

والشريعة – كما يقول ابن تيمية – لا يمكن أن تهمل مصلحة قط، وقد أكمل الله لنا الدين، وأتم علينا النعمة، وتركنا النبي – صلى الله عليه وسلم – على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعده إلا هالك. وقد أخرجنا الله بهذه الشريعة السمحة من ضيق اتباع الهوى، وصيرنا له عباداً بالاختيار كما نحن عباد له بالاضطرار، والحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

الفتن في صراع الحق والباطل

■ محمد بن شاكر الشريف
alsharif@albayan.co.uk
@mshalsharif

الصراع بين الحق والباطل ليس وليد اليوم، بل هو ممتد في عمق التاريخ مقارن لخلق آدم عليه السلام أبي البشرية، فقد حسده إبليس وتوعّد أن يفتنه وذريته فقال فيما حكاه عنه رب العزة: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [ص: ٨٢].. وقد اتخذ الصراع على مدار التاريخ صوراً وأشكالاً متعددة ولم يقتصر على الصراع الفردي بين أفراد وجماعات محدودة، بل تجاوزه إلى الصراع الدولي؛ فنشبت الحروب والمعارك الطاحنة بين الدول على مدار التاريخ، وكان أهل الباطل دوماً يوقدون نار الحرب لإطفاء جذوة الحق عند الناس. والصراع بين الحق والباطل، سواء الفردي أو الدولي، تترتب عليه فتن كثيرة تموج كموج البحر، يحتاج المسلم لأن يكون له موقف واضح كي يعصم من شرورها ومضلاتها التي تصيب الأفراد والمجتمعات.

ومن خطورة الفتن التي تقع أنها لا تقتصر على أطرافها، إنما تتعداهم إلى غيرهم إذا لم يقوموا بواجبهم تجاهها كما في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]، قال ابن عباس: «أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين أظهرهم، فيعمهم الله بالعذاب»، وقال ابن كثير: «يحذر تعالى عباده المؤمنين «فتنة» أي: اختباراً ومحنة، يعم بها المسيء وغيره، لا يخص بها أهل المعاصي ولا من باشر الذنب، بل يعمهما، حيث لم تدفع وترفع»، فكان التقصير في رد الفتنة وقمعها عند أول ظهورها أن تستفحل وتكون سبباً فيما يصيب المتقاعسين عن وأدها أول ظهورها وانتشارها في وصول الفتنة لهم وإصابتها لهم، والمنكر والإساءة كما يكون من الأفراد يكون أيضاً من الحكام ومن الدول.

والفتنة لها معانٍ عدة، فمن ذلك الاختبار والابتلاء والامتحان والمحنة والاختلاف والضلالة والشرك.

والصراع بين الحق والباطل مظنة وجود الخلاف والشقاق والافتراق بين الناس مما يترتب عليه كثير من الفتن، قال ابن عاشور: «وحاصل معنى الفتنة يرجع إلى اضطراب الآراء، واختلال السير، وحلول الخوف والحذر في نفوس الناس»[1].. ومن الفتن التي تحدث أثناء صراع الحق والباطل، سواء على المستوى الفردي أو الدولي:

(١) التحرير والتنوير ٩/٣١٦.

- اختلاف الناس في تقويم طبيعة الصراع وأطرافه؛ فمنهم من يضع الصراع وأطرافه في غير إطاره الصحيح ويصفه بأوصاف مغايرة للحقيقة جهلاً أو تقصيراً أو إحسان ظن، ما يزيد في التنازع والشجار، كما كان من ذلك فيما مضى ما ذكره الله تعالى في اختلاف الصحابة فيمن رجع من الغزو، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾ [النساء: ٨٨]، إذ عندما خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى جبل أحد في الغزوة التي عُرفت بغزوة أحد ومعه أصحابه، رجعت طائفة ممن كان معه، فكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيمن رجع فرقتين؛ فرقة تقول: «نقتلهم»، وفرقة تقول: «لا»، فنزلت هذه الآية: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا﴾؛ فهذا الاختلاف في التصرف الذي يراوح بين القتل وعدمه ناتجٌ عن الاختلاف في تقدير المواقف في الصراع، ولولا التربية الحسنة لهذا الجيل التي ربّاهم عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم، لتحول الاختلاف في تقدير المواقف في صراع الحق والباطل إلى صراع داخل الصف المسلم نفسه، وتتحول المسألة من صراع بين الحق والباطل إلى صراع بين أطياف أو أجنحة صف الحق؛ لذلك لا ينبغي - مهما ادلهمت الأمور - أن يتحول الاختلاف في تقدير أطراف الصراع إلى صراع بين المسلمين أنفسهم، بل ينبغي أن يتفهّم بعضهم مواقف بعض ودوافعها ويعذر بعضهم بعضاً، ونظراً لأن هذا الموقف ليس موقفاً وحيداً بل هو موقف قابل للتكرار؛ فينبغي تربية المسلمين التربية الحسنة كي تبقى هذه الأمور في إطارها ولا تتجاوزه إلى تفتيت الصف المسلم الذي يؤذن بضعفه وربما بخسارة المواجهة مع الباطل، ومن ثم جاءت الوصية الربانية: ﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]؛ لأن التنازع يجلب الفشل، وهو الضعف والجبن وذهاب الريح أي القوة والبأس، ما يترتب عليه الضعف والوهن والخلل، وقد زوّدوا بما يعينهم على ذلك وهو الصبر: الصبر في مواطن اللقاء والصبر عند الاختلاف بحيث لا يعتدي المختلفون من المسلمين على بعضهم البعض وينعت بعضهم بعضاً بأوصاف قادحة في الدين والإيمان، ما يفرق صفهم ويطمّع فيهم أعداءهم، لا سيما أن هناك من الناس من تغلب عليه معاملة الناس على ظن الخير بهم، فيسمع لهم ولا ينتبه لكونهم معادين للحق، وقد بيّن ذلك ربنا في قوله عن المنافقين: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾ [التوبة: ٤٧]، ثم عقّب بقوله: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧]، أي: مطيعون لهم ومستحسنون لحديثهم وكلامهم، يستنصحونهم وإن كانوا لا يعلمون حالهم، فيؤدي هذا إلى وقوع شر بين المؤمنين وفساد كبير، قال الرازي في تفسير الآية المتقدمة: «ومعنى الفتنة ها هنا افتراق الكلمة وظهور التشويش، واعلم أن حاصل الكلام هو أنهم لو خرجوا فيهم ما زادوهم إلا خبالاً، والخبال هو الإفساد الذي يوجب اختلاف الرأي، وهو من أعظم الأمور التي يجب الاحتراز عنها في الحروب؛ لأن عند حصول الاختلاف في الرأي يحصل الانهزام والانكسار على أسهل الوجوه»[1].

والفتن نفسها تكون معلماً في التمييز بين الصادق والكاذب في دعواه الإيمان بحسب موقفه منها، كما قال تعالى: «أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين»، والفتنة هنا الابتلاء والاختبار.

- ومن الفتنة «بمعنى الابتلاء والاختبار» الدعوة إلى مواجهة الباطل ومجاهدة أهله، ولذلك عندما أريد من الكاذبين في دعواهم الإيمان مواجهة أهل الباطل تقاعسوا عن الاستجابة، وذكر القرآن مقالهم في ذلك: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩]؛ ففي التقاعس عن مواجهة الباطل تحت زعم عدم الوقوع في الفتنة المترتبة على المواجهة أعظمُ الفتنة، وكانت مواجهة الباطل والتصدي له رغم ما فيه من ابتلاء أعظم سبل النجاة من الفتن.

ومواقف المنافقين أثناء صراع الحق مع الباطل

(١) مفاتيح الغيب ١٦/ ٦٤.

مـــن أكثر ما يثير الاختلاف والتنازع بين المســـلمين، حيث يسارع الكثيرون منهم لعقد صفقات الموالاة مع المجرمين والطغاة كي تكون طوق نجاة لهم متى تعرض الصف المسلم لهزة كما ذكر الله ذلك في قوله: ﴿فَتَرَى الَّذِيـــنَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـــارِعُونَ فِيهِمْ﴾ [المائدة: ٥٢]، وقد بيَّنت الآية علة هذه المسارعة بقولهم فيما حكاه عنهم ربنا العلي القديـــر: ﴿يَقُولُونَ نَخْـــشَى أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ [المائـــدة: ٥٢]؛ لذلـــك وضَّحت النصـــوص من الكتاب والســـنة صفات وعلامات المنافقـــين حتى لا يخفى أمرهم على الصالحين وحتى لا يقوموا بالإفساد من داخـــل الصف، وقد قال الله تعالى مخاطباً رســـوله الكـــريم محمداً صلى الله عليه وســـلم: ﴿وَلَوْ نَشَـــاءُ لأَرَيْنَاكَهُـــمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِـــيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمـــد: ٣٠]، قال ابن كثير: ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أي: فيمـــا يبدو من كلامهم الـــدال على مقاصدهم، حيث يظهر من أي الحزبين هو بمعرفة معاني كلامه وفحـــواه، وهو المراد من لحن القـــول، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: ما أسر أحد ســـريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه، وفلتات لســـانه. وفي الحديث: «ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله جلبابها؛ إن خيراً فخير، وإن شراً فشر».

ومما يدل على إمكانية معرفة المنافقين في الواقع قولـــه تعالى: ﴿وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُم مَّـــاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْـــرِهِ﴾ [التوبة: ٨٤]، وقوله: ﴿فَقُل لَّـــن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَـــدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَـــدُوًّا﴾ [التوبة: ٨٣]؛ فتحقيق هذا الأمر لا يمكن حدوثـــه إلا مع إمكان معرفة المنافقين بأعيانهم.

وعلى المسلم أن يكون ذا بصيرة ورؤية حتى لا يخدع بكلام المنافقين وادّعاءاتهم الكاذبة التي لها دائماً آثار تخريبية وهادمة للبناء الإيماني والاجتماعي، خاصة في ظـــروف الصراع بين الحق والباطل؛ فهم يبطنون غير مـــا يُظهرون، ويُظهرون الجانب الحســـن الذي يحبه الناس بينما يبطنون خلافه كما حكى الله عنهم في غير موضـــع من كتابه، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِـــدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾ [البقرة: ١٣]، فهم يدَّعون أشياء لا حقيقة لها عندهم، بل الحقيقة مناقضة لما يدَّعون، فهم مفسدون فـــي الأرض غير مؤمنين، والمؤمن الحقيقي هو من لا ينخدع بمظاهرهم الكاذبة كما قال تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِيـــنَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ [البقرة: ٩]، فلا ينخدع بهم المؤمن وإنما يخدعون أنفسهم فقط.

وليـــس كل اختلاف يقع بين المســـلمين يُقال عنه فتنة يجـــب اعتزاله والبُعد عنـــه، خاصة في صراع الحـــق والباطل، فالفتنة التي يجـــب اعتزالها وعدم الســـعي فيها، بل اعتزالها والبُعد عنها ما أمكن؛ هي الفتنة التـــي يختلط فيها الأمر حتـــى لا يُقدر على معرفة المحق مـــن المبطل، فهذه التي ينبغي اعتزالها، قال ابن حجر: «والمراد بالفتنة ما ينشأ عن الاختلاف في طلب الملك، حيث لا يعلـــم المحق من المبطل»[1].. أما إذا ظهـــر الحق والباطل وعُـــرف الجانب الذي معه الحق والجانب الذي يتمسك بالباطل؛ لم تصبح فتنة، بل صراع بين الحق والباطل، والواجب على كل مسلم في هذه الحالة أن يكون في صف الحق وأهله ومناصرته والتجافي عن الباطل وحزبه والســـعي في إزهاقه وبذل كل ما يقدر عليه في سبيل تحقيق ذلك، قال ابن حجر: «والصـــواب أن يقال إن الفتنة أصلها الابتلاء وإنكار المنكر واجـــب على كل من قدر عليه، فمن أعان المحق أصـــاب، ومن أعان المخطئ أخطأ، وإن أشـــكل الأمر فهي الحالة التـــي ورد النهي عن القتال فيها»[2]، ولـــو اعتزل الناس كل صراع بدعوى الفتنة لمـــا أقيم حق ولا أزهق باطـــل؛ نقل القرطبي وابن حجر والشوكاني وغيرهم عن الطبري قوله: «لو كان الواجب في كل اختلاف يقع بين المسلمين الهرب منه بلزوم المنازل وكســـر الســـيوف لما أقيم حد ولا أبطل باطل ولوجد أهل الفســـوق سبيلاً إلى ارتكاب المحرمات من أخذ الأموال وســـفك الدماء وســـبي الحريم بأن يحاربوهم ويكف المســـلمون أيديهم عنهم بأن يقولوا هذه فتنة وقد نهينا عن القتال فيها، وهذا مخالف للأمر بالأخذ على أيدي السفهاء»[3].

(١) فتح الباري ١٣/ ٣١.
(٢) فتح الباري ١٣/ ٣١.
(٣) فتح الباري ١٣/ ٣٤.

– ومن الفتن التي يقع فيها كثير من أهل الحق أثناء صراع الحق والباطل يظنون أن كونهم على الحق يكون ضامناً لهم في تحقيق النصر دون سعي أو عمل، فيهملون في الاستعداد والعدة المأمور بها في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، ويكتفون فقط بالدعاء والتضرع إلى الله تعالى، ومع أن الدعاء عبادة وهو لازم لكل أحد يريد تحقيق مراده، إلا أن ترك الإعداد والاستعداد مخالفة تستوجب العقاب، فلا يجوز لأحد ترك ما يقدر عليه من الأسباب والاكتفاء بالدعاء؛ فإن ترك الأخذ بالأسباب معصية تحجب إجابة الدعاء، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر التضرع والدعاء لله يوم بدر ولم يمنعه ذلك من إعداد العدة التي يستطيعها، ولم يكتف بكونه رسول الله وأنه يدعو ربه.

– ومن الفتن التي يُبتلى الناس بها أثناء حالة الصراع بين الحق والباطل، اختلاف الناس في موقفهم ممن تكون له رؤية مخالفة لما يرون، حيث تجد منهم من يتجاوز الحدود في تعامله مع المخالف من الطعن في علمه أو صدقه وإخلاصه، ولا يعطيه ما له من الحقوق التي تكون للمسلم على أخيه المسلم، ما يكون سبباً قوياً في تمزيق الصف، وليس يعصم من ذلك إلا تقوى الله تعالى وخشيته سراً وإعلاناً، والتي تكون من نتيجة العلم الصحيح واتباع من هو معروف بالعلم والتقوى.

– ومن الفتن الاختلاف والفرقة، وهي من أعظم الفتن في صراع الحق مع الباطل؛ لأن المفترض أن الصراع يوجب على أهل الحق التساند والتكاتف ليكونوا صفاً واحداً في مواجهة الباطل، والاختلاف والفرقة يضعف قوتهم ويوهن من عزمهم، ومن ثَمَّ حذر القرآن من ذلك، فقال تعالى: ﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وأمرهم بالاعتصام بحبل الله جميعاً ونهاهم عن التفرق فقال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

– ومن الفتن الامتناع عن الاشتراك مع أهل الحق في مدافعة أهل الباطل لوجود غبش في راية أهل الحق أو خطأ أو بدعة، وهذه المسألة قد يقبلها كثير من الناس ويتفاعلون معها، وهذا في أحيان ليست بالقليلة يكون من نتيجته إهمال أمر عظيم بدفع منكر كبير في مقابل عدم الوقوع في منكر أقل شأناً منه، وهذا مخالف للقاعدة الفقهية التي تقول باحتمال أدنى المفسدتين لدفع أعلاهما، وقد رأى من رأى من أهل العلم قتال الكفار ومجاهدتهم تحت راية إسلامية ليست نقية بل بها ضلالة وبدعة مراعاةً للقاعدة المتقدمة، وكما جاء في الأثر: الجهاد ماض مع كل بر وفاجر، قال السرخسي: «إن كان في بلاد الخوارج الذين أغار عليهم أهل الحرب قوم من أهل العدل لم يسعهم إلا أن يقاتلوا عن بيضة المسلمين وحريمهم لأن الخوارج مسلمون ففي القتال معهم إعزاز الدين، ولأنهم بهذا القتال يدفعون أهل الحرب عن المسلمين، ودفع أهل الحرب عن المسلمين واجب على كل من يقدر عليه، فلهذا لا يسعهم إلا أن يقاتلوهم»[1]. وممن أفتى بجواز قتال الكفار تحت راية بدعية الفقيه المالكي أبو الفضل عباس بن عيسى بن العباس الممسي، ومعه كثيرون من فقهاء القيروان، وقد قاتل بنفسه بني عبيد الزنادقة تحت راية أبي يزيد الخارجي، واستشهد في ٨٥ رجلاً كلهم خير فاضل، و«كان يرى أن الخروج مع أبي يزيد الخارجي وقطع دولة بني عبيد فرض لازم؛ لأن الخوارج أهل القبلة لا يزول عنهم اسم الإسلام ويورثون ويرثون، وبنو عبيد ليسوا كذلك لأنهم مجوس زال عنهم اسم الإسلام فلا يتوارث معهم ولا ينسب إليهم»[2]، فإذا كان هذا في مشاركة الخوارج في دفع أهل الكفر والشرك، وبدعة الخوارج بدعة مغلظة؛ فمن باب أولى تجوز مشاركة من لم تبلغ بدعتهم أو خطأهم مبلغ الخوارج في دفع أهل الشرك والشرور، ولو كان أهل العدل تحت راية أهل البدعة.

نسأل الله تعالى بمنّه وكرمه أن يقينا مضلات الفتن، وأن يحفظ أهل الإسلام، وأن يحفظ عليهم دينهم وأمنهم.

---

(١) المبسوط ١٠/٩٨.

(٢) رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقيا ٢/٢٩٧– ٢٩٨.

مَن هُم السُّمَنية؟

■ فيصل بن علي الكاملي(*)
popedia@windowslive.com

إذا لـم تكن مـن المهتمين بدراسـة العقائد، فإن اسـم «السُّمَنِية» قد لا يستدعي إلى ذهنك صورة معينة؛ لكنه يرتبط في أذهان دارسي العقيدة الإسلامية بمقالة الجهم بن صفوان، رأس الجهميـة المعطلة، الذي نَجَمت بدعتـه في نهاية القرن الأول الهجري.

ذكـر الإمام أحمـد - رحمه الله - في كتابـه «الرد على الزنادقة والجهمية»، أن الجهم لقي أناسـاً من المشركين يقال لهم «السـمنية»، فعرفوا الجهم، فقالوا له: نكلمك فإن ظهرت حجتنا عليك دخلت فـي ديننا وإن ظهرت حجتك علينا دخلنا في دينك. فكان مما كلموا به الجهم أن قالوا له: ألسـت تزعم أن لـك إلهاً؟ قـال الجهم: نعم. فقالوا لـه: فهل رأيت إلهك؟ قال: لا. قالوا: فهل سـمعت كلامه؟ قال: لا. قالوا: فشـممت لـه رائحة؟ قال: لا. قالوا: فوجدت له حسـاً؟ قال: لا. قالوا: فوجدت له مجسـاً؟ قال: لا. قالوا: فما يدريك أنه إله؟ قال: فتحير الجهـم فلم يدرِ من يعبد أربعين يوماً، ثم انتهى إلى أن الله لا يُرى له وجه، ولا يُسمع له صوت، ولا تُشم له رائحة، وهو غائب عن الأبصار، ولا يكون في مكان دون مكان[1].

هذه الفرقـة التي ناظرت الجهم وكان لهـا أثر في قيام بدعته أسـماها أبو الريحان البيروني (الشُّمَنية) - مُعجمةً - في كتابه «تحقيق ما للهند من مقولة»، وذكر أن خراسان وفارس والعراق والموصل إلى حدود الشام كانت قديماً على دين هؤلاء حتى ظهور «زرادشـت» الذي دعا إلى المجوسية، فلما انتشرت المجوسـية على أيدي الملوك بعده في فـارس والعراق انجلت السـمنية إلى مشارق بلخ وبقي المجوس بأرض الهند[2] إلى أن فتح المسلمون آسيا الوسطى في القرن الأول الهجري/ الثامن الميـلادي على يد قتيبة بن مسـلم الباهلي، وهي الحقبة التي عاش فيها الجهم بن صفوان ولقي فيها السمنية وناظرهم.

لكن السـؤال الذي يفرض نفسـه هو: إن كانت السمنية من ديانات المشرق الشـهيرة كما ذكر البيروني وغيره، فلِمَ لَم يشر إليها المؤرخون إلا لِماماً؟ والجواب عن هذا نجده عند ابن النديم، إذ يقول في «الفهرسـت»: «قرأت بخط رجل من أهل خراسـان قد ألف أخبار خراسان في القديم وما آلت إليه في الحديث، وكان هذا الجزء يشـبه الدستور، قال: نبي السمنية «بوداسف». وعلى هذا المذهب كان أكثر أهل ما وراء النهر قبل الإسلام وفي القديم»[3].

فهذا الذي ذكـره ابن النديم يدل على ارتباط السـمنية بالبوذية؛ فإن «بوداسف» ليس عَلَماً على رجل بعينه، وإنما هو تعريب لـ «بوديساتفا» (Bodhisattva)، أي «الكائن المستنير» عند البوذيـين، ويلقبون به من حصَّل درجـة عليا من الرقي الروحي لكنه آثـر ألا يبلغ منزلة «النيرفانـا» أو الفناء ليظل

(*) باحث سعودي متخصص في دراسة الأديان - يعمل في مركز الدراسات والبحوث التابع لمجلة البيان.

(١) أحمد بن حنبل، الرد على الزنادقة والجهمية، (القاهرة: المطبعة السلفية، ١٣٩٣ هـ)، ص ١٩.

(٢) أبو الريحان البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة، (بيروت: عالم الكتب، ٢٠١١م)، ص ١٩.

(٣) ابن النديم، الفهرست، (بيروت: دار المعرفة، ١٩٧٨م)، ص ٤٨٤.

ملازماً للفقراء[1]. وعليه؛ فإن اعتبار «بوداسف» نبياً هو إشارة صريحة إلى أن السمنية مرتبطة بالبوذية أو أنها هي. يؤكد هذا البيروني – وهو الخبير بهم –، إذ يصفهم في كتابه «الهند» بـ «أصحاب البُدّ». وكذا صاحب «البدء والتاريخ» حيث يقول: «وقرأت في كتاب المسالك أن السمنية فرقتان: فرقة تزعم أن البُدَّ كان نبياً مرسلاً، وفرقة تزعم أن البُدّ هو البارئ»[2]. وكلمة الـ (بُدّ) إنما هي تعريب لاسم «بوذا» الذي تنسب إليه البوذية.

وبناء على ما ذُكر يمكن القول بأن من صنف في هذا الباب من علماء المسلمين اعتبروا السمنية مرادفةً للبوذية، إلا أنهم ذكروها باسمها أحياناً، وباسم «أصحاب البد» أو «سَدَنة البد» أو «عباد البد» ونحوها أحياناً أخرى، وهذا الأخير كثير في كتب التراث الإسلامي، من ذلك ما ذكره ابن الأثير في «الكامل» من أن محمد بن القاسم لما غزا بلاد السند ودخل «مُلتان» نزل أهلها على حكمه «فقتل المقاتلة وسبى الذرية وسدنة البد، وهم ستة آلاف، وأصابوا ذهباً كثيراً... وكان بُدُّ الملتان تهدى إليه الأموال ويُحَج من البلاد ويَحلقون رؤوسهم ولحاهم عنده...»[3].

والتحقيق أن «السمنية» أو «الشمنية» ليست هي البوذية بعينها، وإنما هي الرهبنة الأولى التي قامت على مبادئها البوذية، وقد ظهرت في الألفية الأولى قبل الميلاد[4]، وقد كان لها أثر على بعض عقائد الهندوسية والجينية، لا سيما عقيدتي التناسخ والكارما. وتعرف هذه الرهبنة في اللغة البالِيَّة[5] بـ (ساماناً)، وفي السنسكريتية بـ (شرامانا)؛ ولذا انتقلت إلى العربية باسم السُّمَنية أو الشُّمَنية مهملةً ومعجمة.

وقد نسبها البعض إلى بلدة «سومنات»[6]. والصواب أن (ساماناً) أو (شرامانا) تعني الناسك أو الزاهد، مشتقة من (ش ر م) بمعنى «اجتهد في التنسك». ولعل هذا الارتباط الوثيق بين هذه الرهبنة وبين البوذية هو ما جعل البيروني يصف أتباعها بـ «أصحاب البُدّ».

ووفقاً لـ «الموسوعة الهندوسية المصورة»، فإن الرهبنة السُّمنية سلكت منهجاً حراً في التعبد والتنسك لا يلتزم بطقوس ولا نصوص، وهو ما أثار عليهم الكهنة البراهميين حتى أصبح الخلاف بينهم مضرباً للمثل في الأدب الهندي[7].

أما عقيدتهم فقد أوجزها البغدادي بقوله: «فأصحاب التناسخ من السُّمنية قالوا بقدم العالم، وقالوا أيضاً بإبطال النظر والاستدلال، وزعموا أنه لا معلوم إلا من جهة الحواس الخمس، وأنكر أكثرهم المعاد والبعث بعد الموت، وقال فريق منهم بتناسخ الأرواح في الصور المختلفة، وأجازوا أن تُنقل روح الإنسان إلى كلب وروح الكلب إلى إنسان... وزعموا أن من أذنب في قالب ناله العقاب على ذلك الذنب في قالب آخر، وكذلك القول في الثواب عندهم»[8].

فهم كمن خَلَفهم من البوذيين لا يؤمنون بإله خالقٍ، ولا يقبلون الكتب المقدسة كالـ «فيدا»، بل يعتقدون عقائد باطنية من أشهرها الكارما وتناسخ الأرواح.

والراجح عندي – والله أعلم – أنهم لم ينكروا وجود إلهٍ خالقٍ، بل أنكروا أن تكون له صفات، فجعلوه وجوداً مطلقاً في الأذهان لا حقيقة له في الخارج؛ ولأجل هذا امتَحنوا الجهمَ بقولهم: هل رأيت إلهك؟ هل سمعت كلامه؟ هل شممت له رائحة؟ هل وجدت له حساً أو مجساً؟ فما يدريك أنه إله؟ فصار الجهم إلى ما صاروا إليه من التعطيل، وضل بضلاله الكثير، والله المستعان.

خلاصة القول: إن السمنية رهبنة بوذية نجمت قبل ميلاد المسيح – عليه السلام –، أو أنها أصل البوذية، وبذا يكون الباحث في العقيدة الإسلامية قد وضع يديه على أصل التعطيل، وأن ثمة علاقة قديمة وثيقة بين أهل البدع ممن ينتسبون إلى الإسلام وبين البوذية. ولا تزال البوذية تصدِّر لأهل الإسلام عقائدها باسم الكارما وقانون الجذب واليوجا وغيرها. فحريّ بطلاب العلم أن يتجهوا لدراسة البوذية بأقسامها دراسة عميقة، ولو استدعى الأمر دراسة اللغات الأصلية (كالبالِيَّة) التي دونت بها عقائدها، فهي تغزو أهل الإسلام بفكرها، ويُقتِّل أتباعُها – بل كهنتُها – في بورما أهلَ الإسلام في مذابح بشعة سَخْطةً لدينهم، فبذْلُ الجهد في كشف حقيقة هؤلاء وصدِّ باطلهم أولى من صرفه إلى ما قد يكون من تحصيل الحاصل[9].

---

(١) *The Wordsworth Dictionary of Beliefs & Religions* (Wordsworth Editions Ltd, 1995), p. 71.

(٢) مطهر بن طاهر المقدسي، البدء والتاريخ، (المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني)، ١/ ١٩٣.

(٣) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، (المكتبة الشاملة، الإصدار الثاني)، ٢/ ٣٣٤.

(٤) *James G. Lochtefeld, The Illustrated Encyclopedia of Hinduism* (The Rosen Publishing Group, 2002), vol. II, p. 639.

(٥) اللغة البالية هي لغة قديمة كتب بها كثير من النصوص البوذية المقدسة.

(٦) عضد الدين الإيجي، المواقف، (بيروت: دار الجيل، ١٩٩٧م)، ١/ ١٣٠.

(٧) *The Illustrated Encyclopedia of Hinduism*, vol. II, p. 639.

(٨) عبد القاهر البغدادي، الفرق بين الفرق (بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٧٧)، ١/ ٢٥٣.

(٩) لا أعلم بحثاً علمياً مؤصلاً تناول البوذية من منظور إسلامي إلا كتاب الدكتور عبد الله مصطفى نوموسوك «البوذية: تاريخها وعقائدها وعلاقة الصوفية بها».

الوساطة بين الفكر والتربية

■ مشاري الشثري
@m_alshathri

لا يزال الناس بخير ما داموا يعرفون للآفات أوصافَها، ويخلعون عليها أكمَّتَها، ليسعوا بعد ذلك في علاجها والخلاص منها، ولكن البليَّة حين يستحيل الفَتقُ رتقاً، ويلبس الداءُ جبَّةَ الدواء، فتستطيل حينئذ عملية الإصلاح، ويكون من ضرورتها بعثُ الروح في حقائق الأشياء لتسمَّى باسمِها، ويكون من مقدماتها تلقينُ الناس إشكالَ الإشكال، وتعريفُ الآفات بأنها: آفات!

ثمــة آفة تلصَّصــت زمناً على مختلف حقول المعرفة وسَــرَت بينها علــى مُكْث، حتى إذا ما تمكَّنتْ منها وطوَّقتها صرَّح شــرُّها واســتبان، وأضحــت - على حين غفلــة - جزءاً من كل حقــل معرفي، ترتبط به ارتباطــاً عضويّاً، ويجهر بها أربابه دون نكير.. إنها آفة الحدود الفاصلة بين (دويلات المعرفة)، فليســت دولة الخلافة وحدَها مَن تعرَّضت لأسْرِ هذه الحدود الفاصلة بين أجزائها، بل إن دولة المعرفة كذلك، فصار لكل معرفة حدودُها، وساســتُها، ومواطنوها، وحرسُها، وما شئتَ وراء ذلك، وصار كلُّ مواطن يحمل جنســية معرفته، لا يقبل أن يُنسبَ لغيرها، ولا يجد في نفســه لغير دولته ميلاً ونزوعا.. فكان من شؤم ذلك أنْ تقطَّعت أوصــال المعارف، أو قُلْ: تقطَّعت أوصالُ معارفِ المخلصين في وطنيتهم، والقصة تطول، وليس عن هــذه الآفة أردت الحديث، ولكن التَّقدِمة بها يقرِّب من المقصود.

وصلة تاريخية:

الفكر - مــن حيث هو مفاهيــمُ معرفيــةٌ لا أدواتٌ عقلية - ليس تخصُّصاً معزولاً، فإنما تُســتنبَت بذوره في أراضــي المعارف المختلفة، فللاقتصاد فكرُه، وللسياسة فكرُها، وللفقه فكرُه، وللتربية فكرُها، وهلمَّ جــرّاً، وإماتةُ الفكــر تتحقق بعزله عن مواقع المعــارف المختلفة، وعليه فالنفرة من (الفكر) كمفهوم معرفي ليســت ذات عِمــاد موضوعي، لِمَا أن الفكر ذو اتصال وثيــق بالحقل الذي ولَّده، وهذه الجنايةُ على كل ما

كان فكراً، والتزهيدُ في كتبــه وأعلامه أنجبت لنا تأخراً في الحــراك المعرفي الفكري، كما مهَّدت الســبيل للدخلاء على علم الشــريعة لأنْ يتحدثوا عن مفاهيمها بحجة أنهم يعالجون (فكراً) لا (علماً شــرعيّاً).. ولما ارتاضت كثير من العقول على هــذا الفكِّ الجائر بين العلم والفكر صار اســم الفكر ثقيلاً، منفِّراً، مبتذلا.

ونجد لهذه الآفة بعداً زمنيّاً، وحضوراً قديماً في الساحة المعرفية، ففــي افتتاحية العدد الثامن والعشــرين من مجلة البيان (شــوال - ١٤١٠ هـ) تحت عنوان (صناعة الفكر) نجد ما نصُّه:

(إننــا في بلاد المســلمين لا زلنا بحاجــة إلى التخطيط الفكــري، فإن هذه البضاعة لا تزال عزيزة، وإذا وُجِدت فإنها بضاعةٌ غيرُ رائجة، فلا تزال المنزلة الأولى للخطيبِ، والواعظِ، وصاحــبِ الحديث الجذاب والبلاغة الأدبية، ولا تزال «المجلة الفكرية»، و«المحاضرة الفكرية» ثقيلتَي الظل على الســامع أو القارئ المســلم بشــكل عام، وإذا حَدَث ودُعِي مفكر لندوة أو محاضرة فهي من باب «التمَلُّح» أو لكسر الروتين السائد).

وفي محاولة مبكرة يقوم أ. د. عبدالكريم بكار بتســليط الضوء على أحد أسباب تشــكُّل هذه الآفة، فيكتب في مقالة بعنــوان (الفكر.. طبيعته وأهميته) نشــرت فــي ذات المجلة (شعبان - ١٤١٦هـ) ما نصُّه:

(صدَّ تأكيدُ كثيرٍ من مفكري المســلمين على أهمية الفكر كثيراً من الشــيوخ والشــباب عــن الاهتمــام بمناهج الفكر وقضاياه، ظنّاً منهم أن ذلك الاهتمام ســيكون على حســاب العمل و«التربية» والأخلاق والســلوك، وسبب هذا الظن أننا حين نتبنى توجهاً معينــاً في الإصلاح نلح عليه إلحاحاً يوهم الآخرين بأننا لا نرى سواه، وأننا نهمل ما عداه، ومن ثَمَّ فإنني أبادر إلى القول: إن اســتقامةَ الفكر ونقــاءَه ليس بديلاً عن «التربية»، ولا الأخلاق، ولا أعمال الخير، ولا الحركة الدعوية)

وعن التربية خصوصا، وعن الفكر في جانبه الأداتي، كتب الشــيخ المربي د. محمد الدويش مقالةً في مجلة البيان أيضاً بعنوان (التكامل في التربية بين مفهومين) نُشِرت في (شعبان - ١٤٢٥ هـ) جاء فيها:

(الحديــثُ عن بنــاء القدرات العقلية ومهــارات التفكير لدى الفرد، والمهارات الاجتماعية، والصحة النفسية... إلخ = الحديثُ عن هذه الجوانب في «التربية الدعوية» لا زال نادراً، فضلاً عن الاعتناء بذلك في التطبيق والممارسة).

فهذه ثلاثةُ نماذج منتقاة من شكاية التأخر الفكري، تخلَّلت أعطاف العشرين الأعوام الماضية، ما يحتِّم علينا أن نسعى في فحصها، ونشرعَ في مداواة جزء من عَرَض (دويلات المعرفة) عبر (وَســاطةٍ) عاقلةٍ بين (الفكر) و (التربية)، ولهذا الغرض تحديداً كانت هذه الكتابة.

بين ثنائيتين:

في ســنواتٍ خلــت كان العقلُ التربويُّ مهجوســاً بثنائية (التربية/العلــم)، وكم وجــد كثيرٌ من المربين أنفســهم أمام مفترق طرق، إما إلى العلم أو إلى التربية، وتلحظ هذه الثنائية حاضرةً في الكتابة التربوية في العشــرين سنةً الماضية، وكذا في المحاضرة الصحوية والسؤالات الواردة في ذيلها، لكن هذه الثنائية أخذت في الذبول، ويمكن التعليق على ذلك بما يلي:

• ليســت التربية قسيماً للعلم بإطلاق، بل كلٌّ منهما مكمِّلٌ للآخر، وليســت المقابلةُ بينهما في هذه الثنائية والمصيرُ إلى أحدهما يعني إهدار الآخر وعدم العناية به، بل المقابلة واقعة بــين القدر الزائد على حــدِّ الإجزاء، وبيان هــذا الأمر من الأهمية بمكان، لدفع التشــغيب الموجَّه نحو المحاضن التربوية بحجة إعراضها عن العلم الشرعي وتزهيدها فيه، وهذا تجنٍّ لا يصدر إلا من ناقدٍ لا يشــترط في بناء نقده سلامةَ التصور والعدلَ في التقويم، وإن كانت هناك شــواهد لذلك فهي شاذَّة في السياق العام، ولو تتبعنا مخرجات التربية لوجدنا الساحة العلمية العامة والكليات الشرعية - طلابا وأساتذة - والدوائر القضائية طافحةً بها.

وأيضــاً فإن من آثار الفهم الخاطــئ لهذه المقابلة أنْ كفَّ كثيرٌ مــن طلبة العلم يــد العون لمحاضن التربيــة بحجة أنَّ كلّاً (على ثغــر)، والواقع أن البيئة التربوية ليســت خلوا من المكــوِّن العلمي، لكنها لم تتخصص فيه، وبوســع طالب العلم أن يخصص جزءاً من عطائه لها بالقدر الذي ينضج رســالة التربية ويسدِّد مسيرتها، وذلك من زكاة علمِه ووسائل تثبيته.

كما أن انصراف كثير من طلاب العلم عن التربية خصوصا، والدعــوة عموما، ولَّد لديهم فتوراً في الهمَّة العملية، فتوراً في الهمِّ الإصلاحي والســعي في تكوين قيادات من رحم المجتمع التربوي والدعوي، في مقابل شِرَّةٍ مباركة في الهمة العِلمية.

ومن ناحية أخرى اختزل كثير من المربين اهتماماتهم في حدود ضيقة ليس منها طلبُ العلم الشرعي، وما فقهوا أن المقابلة ليست في أصل الاهتمام بهذا الجانب أو ذاك، بل في هوامشَ نادَّةٍ عن صلب المتن.

• كان حضور هذه الثنائية صحِّيا فيما أحسب، فإن التفكيرَ الجادَّ في تحديد مسارٍ من بين مسارات عدَّة يشير بالضرورة إلى أن هناك باعثاً داخليّاً وعزيمةً صادقةً على الرقي بالمدارك والدفع بالنفس لمراتب عالية، ومن هنا كان ذبولُها أمارة ضعف.. فتأفُّف المربي ضجرا من عدم وضوح الطريق له لاحبةً، آلعلم أم التربية؟ وقلقُه الذي يبعثه لاستثمار ما يملك تطويقه من يومه = خيرٌ من اطمئنانٍ يمكِّنه من الاتكاء على أريكة الخمول.

هذه أولى الثنائيتين، وأما ثنائية (الفكر/التربية)، فقبل النظر في مفرداتها والبحث عن صيغة ملائمة تضبط علاقة المربي بهما نحتاج لنظرةٍ مقاربةٍ مقارِنة بين الثنائيتين، فمن جهةٍ نلحظ حضور ثنائية (العلم/التربية) في زمنٍ مضى عند شريحة عريضة من المربين، بينما نجد حضور ثنائية (الفكر/التربية) خجولاً، وذلك لأسباب، منها:

١- بروز القيادات العلمية بخلاف الرموز الفكرية، ما يجعل المربي يستحضر - حين تفكيره - شخوصَ أهل العلم وطلابه، دون أهل الفكر وروَّاده، على أن حضور هذه الثنائية بدأ يبدِّد حمرة الخجل بعد أن جاوز ثلةٌ من نشطاء الفكر الإسلامي مرحلة البواكير الإعلامية، وعمروا الساحة المحلِّية بكتابات رصينة لفتت نظر المهتمين من المربين وغيرهم.

٢- الموقف المتحِّرز من الفكر والمفكرين، ولهذا الموقف دوافعُ منطقية، وأخرى ليست كذلك، وعلاج هذا الموقف هو محلُّ بحث الفقرة التالية.

٣ - ضمور التصور عن حقيقة الفكر ومجالاته، وهذا تسبَّب في تحييده عن حيز النظر وعدم مكابدة المقابلة بينه وبين مجال التربية المعهود المألوف، والفطامُ - كما يقول أبو حامد الغزالي - (عن المألوف شديد، والنفوسُ عن الغريب نافرة)[1].

عن أيِّ فكرٍ نتحدَّث؟

ثمة مأزقٌ في رسم حدود ما يسمَّى (فكراً)، ولِينضبط حديثنا، لا بد من تخليص مفهوم (الفكر) من الاشتباه، ولن أسترسل مع القيود المنطقية، لكني سأحاول أن أضع محدِّدَين ليتميَّز في ذهن المقالة الفكرُ الذي تعالج العلاقة بينه وبين التربية:

• للفكر جانبان: أداتي، ومفاهيمي.. فالأداتي يشمل ما يتعلق بأدوات التحليل والنقد ومهارات التفكير ونحوها، أما المفاهيمي فهو (ضربٌ من البحث في الصلة بين الواقع الثقافي والمنهج. والواقع الثقافي هو مظاهرُ ممارساتِ الناس المتعلقة بالدين والعادات والآداب والفنون والسياسات. والفكر بالتحديد: محاولةُ صياغةِ رؤيةٍ للواقع الثقافي، تصوراً وحكماً وتغييراً، من خلال منهج معين، فيستعمل المنهج لصياغة وتحليل المفاهيم، ثم لصناعة النماذج التي يتم التعامل مع الواقع على أساسها)[2].

والفكر الإسلامي بشكلٍ أخص هو (عبارةٌ عن مجموعة الرؤى والتحديدات والطروحات والاجتهادات الذي توصل إليها العقل المسلم من خلال اشتغاله على النصوص والأحكام والأدبيات الشرعية والإسلامية، وذلك بغية استيعاب الواقع الموضوعي والارتقاء به وحل مشكلاته)[3].

والجانب الثاني، أعني الفكر من جهته المفاهيمية، هو المقصودُ بحثُه هنا، وإن كان له مساسٌ بجانبه الأداتي، لكنني أجعل من الأدوات الفكرية مكوناً خادماً للجانب المفاهيمي، ولهذا لن أبالغ في الفكِّ بينهما.

نلحظ من الأسطر الماضية أنَّ الفكرَ في نسخته الإسلامية عبارةٌ عن نتاج احتكاك العلوم الشرعية - وسائلِها وغاياتِها - بالواقع ومشكلاته المعرفية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها.

وهذا يجرُّنا إلى نتيجة مهمة يصدقها الواقع الفكري، وهي أن كثيراً من الأطاريح الفكرية هي في واقع الأمر مسائلُ شرعية، لكنْ لاختلاف مستوى المعالجة سميت هذه (فكراً إسلاميّاً) وتلك (علماً شرعيّاً).

ومتى ما ذلَّت الأقلامُ وأصحابُها لهذه الحقيقة، كان من اللازم على أحلاس علم الشريعة أن يتنبَّهوا لحجم البُسُطِ التي تسلب من تحت أرجلهم بأيدي الفكر، فهي بضاعتهم، ولا بُدَّ أن تُردَّ إليهم، ولا يضيرهم بعد ذلك أن يوصفوا بكونهم علماء أو مفكرين أو مثقفين، فالغاية أن يفطنوا لهذا المدخل المعرفي، فإنَّ (من أعظم وسائل الدعوة اليوم التسلح

(١) المستصفى (١: ٤٣).

(٢) أحمد سالم (أبو فهر السلفي)، مقالة (قائمة قراءة في المباحث الفكرية): http://www.arabicenter.net/ar/news.php?action=view&id=1722

(٣) عبدالكريم بكار، المناعة الفكرية (٨).

بقدر أســـاس من الثقافة المعاصرة، فإنَّ العلمَ الشرعيَّ غذاء، والثقافة المعاصرة وعاء، والوعاء الجميل يفتح شـــهية المتلقي للغذاء النافـــع، وأكثر العلماء بعد الســـلف تأثيراً في قضايا المنهـــج هم العلماء المثقفون، كابن حـــزم والغزالي وابن تيمية، بل إن المثقفين الإســـلاميين كالمودودي وســـيد قطب والندوي ونحوهم كانوا أكثر تأثيراً من بعض فحول العلماء في عصرنا، برغم ما يعتري خطاب هؤلاء المثقفين الإســـلاميين من قصور ناشئ عن قلة الخبرة بعلوم الشريعة، فكيف لو جمع بينهما في نموذج العالم المثقف؟!)[1].

وختم هذه الفقرة أن يقرَّر أن العلم الشـــرعي أساسٌ في التكوين، وليس مرحلة مصاحبة للفكـــر والثقافة ولا متأخرة عنها، بل ســـابقةٌ لها، و(انفتاح الشـــباب السلفي على العلوم الإنسانية، ولو كان بمجرد الرغبة فيها = ليس أمارةَ نضج، بل الذي أزعمه أنه علامة تأخر وانهزام في «كثير» من أحواله، إذ نجد غالب هذه الشـــريحة لم يأخذوا من علم الشريعة بالقدر الذي يســـد الرمق الفكري .. ولو أجلنا النظر لوجدنا المؤثرين في الساحة الإسلامية من السلفيين قد كان صلب تكوينهم من علوم تراثهم، وقد أبلغوا من النهل منه، فكان ذلك حصنا مكينا لهم حين تقحَّموا علومَ القوم)[2].

وسدُّ الرمق يكون بالإشراف على مباحثِ أصول الاعتقاد، والأحـــكامِ الواجبِ تعلُّمُها من العبـــادات والمعاملات، وأدوات المعرفة الشرعية، ومناهج الاستدلال، ومصادر التلقي.

فالعلاقـــة بين العلـــم والفكر تراتبيـــة لا تزاحمية، وإنما تبرز مظاهر القصور والانحراف بأحـــد أمرين: تأخيرِ العلم وتهميشه، وطرد الفكر وتقزيمه، ولكلٍّ أهلون.

• فـــرقٌ بـــين (الفكر)، و(نتـــوء الفكـــر).. فالفكر وحدة متكاملة، أما نتوءُه فأعـــراضٌ آيلةٌ للزوال، الفكر بنيةٌ معرفية صلبة، يتنقَّل طالبه فيها من التبصُّر بلَبِنة إلى البصر بأخرى، أما نتوءه فبيتٌ زجاجي يعكس صورة شاهق مكين، حتى إذا ما قرب منه الطالب لم يجده شيئا!

النُّتـــوء الفكرية قضايا تســـتلهم حضورهـــا من الظرف المحيـــط بها لا من ذاتها، حتى إذا مـــا تبدَّلت الظروف بارت، ربما كان باعثها قذراً تحـــدَّر من عقول أهل الفـــكر المنحـــرف – وبطبيعـــة الحـــال ليس الفـــكر فـــي هذه المقالة يشـــمل فكراً كهـــذا –، وربما كان باعثها ســـؤالات منطقية ونظرات معتبرة، لكنها نالت أزيدَ من حظِّها المشـــروع واستطالت على محكَم الفكـــر ومقاصده – ومن هنا كانت نتـــوءاً –.. وأيّاً ما كانت، فلست أعني بذلك تجاوزها والإعراض عنها، لكن المراد التنبيه على أن الاسترسال معها يخدع طالب الفكر عن نفسه، فلِتكالب النـــاس على قضية معينة يـــرى أنَّ من اللازم عليه صرفَ غالب جهده لبحثها وفحصها، وربما استغرق منه ذلك زمناً طويلاً على حســـاب تكميل بنائه الأســـاس الذي سيكون مصاحباً له في مسيرته مهما تبدلت الظروف، فما هي إلا أن تنقشع سحابة هذه النتوء، وإذا به يراجع أوعيتَه فلا يجد فيها سوى ماءٍ آسنٍ، ولبنٍ قد تغيَّر طعمه.

فإذا خلَّصنا الفكرَ في الفقرة الأولى من الاشتباه الباطن، فهذه الفقرة لتخليصه من الاشتباه الظاهر.

نعـــم، لهذه النتـــوء أثرٌ في تحريك الميـــاه الراكدة، وإثارة بعض السؤالات، ثم البحث عن علاجها باستنهاضِ المدارسات والحـــوارات، وحصدِ مخبَّآت المصادر، لكن لا ينبغي أن يُجاوَزَ بها قدرها، فإنما هي نتوء.

علاقة المربي بالمجال الفكري:

ســـعادةَ المربِّي، هنا أستحثُّ ســـمعَك لمزيدٍ من الإصغاء، وبصرَك لتكثيف التحديق..

ذاتُ المأزق الذي صدَّرنا بـــه الحديث في فقرة: (عن أيِّ فكر نتحدَّث؟) ينســـاق هنا، فكما أن هناك مأزقا في رســـم حدود ما يســـمَّى (فكراً)، فكذلك الشأن في التربية، ويسجل د. محمـــد الدويش شـــهادة مهمة في ذلك، وهي شـــهادة لها اعتبارها إذا ما اســـتصحبنا رسوخ قدمه في المجال التربوي.. نصُّ الشهادة:

(لا زال العمل التربوي الدعـــوي يفتقر إلى رؤية واضحة شـــاملة، فمفهوم التربية عائم غير محدد، أو يدور في إعطاء الأفراد قدراً من المحتوى العلمي والســـلوكي.. والممارســـات التربوية إما تنطلق من الســـجية والعفوية، أو وفق ما نســـميه «تخطيطاً»، وهو لا يعدو رسم خارطة سنوية أو فصلية لمحتوى البرامج التربوية)[3].

ومع ذلك، فســـأتكئ على المعهود الذهني لدى القارئ، مع

(١) إبراهيم السكران، مقالة (إلباس العجز جبَّة الحكمة):
http://www.dorar.net/art/1557

(٢) الكاتب، مقالة (شبابَ السلفية.. الزموا أماكنكم):
http://www.dorar.net/art/1527

(٣) مقالة (هل حان الوقت لرسم رؤية تربوية؟)، مجلة البيان، العدد (٢٢٥)، شهر جمادى الأولى، ١٤٢٧ هـ.

ما تمليه سياقاتُ المقالة من تصوُّرٍ، (وعلى الله قصدُ السبيل).

يمكننا القول بأن للتربية أربعــةَ أركان: (المربِّي - المتربِّي - منهج التربية - البيئة التربويــة).. وإذا نظرنا في الركن الثالث منها وجدناه ينكســر إلى عدة مستويات: فأسُّ التربية قائمٌ على تعبيد المتربين لله عز وجل، ووراء هذه الدائرة تتسع أُطُر التربية، وتتفاوت بحسب تفاوت قُدَرِ المتربين واهتماماتهم، ولِيُشبِعَ المربي نهمة الطالب لابد أن يكون له من اتساع النظر وبسطة المعرفة ما يملك معه إشباعَ هذه النهمة، ومِن بَخسِ المتربين حقَّهم أن يُقادوا إلى حيث يحسنه المربي القائم على العمل التربوي.

فالتربية ليست منهجاً تتســاوى تطبيقاته بالنسبة لآحاد المتربين، بل ذلك يختلف اختلافاً واســعا، ويَقرُبُ أن يكون لكل فردٍ تربيةٌ تخصُّه، ولا يعني ذلك نفيَ وجودِ مشترَكَاتٍ تربوية، ولكن لا ينبغي أن تُنسِــيَنا هذه المشترَكات غيرَها من مكونات التربيــة، ولهذا فـ (الهدف من التربية فــي كلمات قليلة هو: تنشــئة «الإنسان الصالح» أيّاً كان هذا الإنسان: ذكراً أم أنثى، وأيّــاً كانت وظيفته التي يقوم بها فــي المجتمع)[1].. نعم، وأيّاً كانت طبيعته وقدراته.

ومن هنــا كان من أخــصِّ صفات المربِّــي اطلاعُه على (الثقافة العامة، بمعنى: الاطلاع السريع على العلوم الأساسية الطبيعية أو الإنســانية وأحدث التطورات العامة فيها. ويمكن جمع الفوائد التي تعود على المربي من ذلك في:

١ - معرفة سبل الخير وسبل الشر، وكيف يُسلك كلٌّ منها؟

٢ - توسيع المدارك وتعميق الأفهام وتنشيط العقول، فهذه الثقافات من شــأنها أن تنمي قدرة المربي على التفكير، وعلى القياس المستقيم، وربط الأسباب بمسبباتها.

٣ - زيادة قدرة المربي علــى التحدث والحوار الثنائي أو الجماعي، فالمربي يتعامل مع عقول مختلفة وثقافات متنوعة، يحتــاج إلى التواصل معها بكفــاءة، والمربي محدود الثقافات أشــبه شــيء بمذياع الشــيوعية القديم ليس فيه إلا محطة واحدة: إما أن تسمعها أو تغلقه، بينما المربي متنوع الثقافات: متعدد الموجات، فاحتمال غلقه غير وارد.

٤- فَهمُ ظــروف المتربين المختلفــة اجتماعياً واقتصادياً وثقافياً، انطلاقاً من فهمه لأحوال المجتمع الذي يعيشــون فيه والتي تمثل الخلفية الدافعة للكثير من أقوالهم وتصرفاتهم)[2].

وفي هذا الســياق أقيِّد بعض ما عســى أن يُلِين الجانبَ التربويَّ للحاضنة الفكرية:

• بغضِّ النظر عن تقييم مدى حاجتنا للفكر، فالحديث عن الفكر أضحى ضــرورةً لا اختيارا، فإن المحاضرات والدورات الفكرية صارت حاضرة في المشهد، وإقبال الشباب على الكتب الفكرية قد بدت معالمه، ونحن إن وقفنا نتربَّص آثار ذلك دون أن يكون لنا إسهام فكري فسيأتي علينا زمان نخضع مناهجنا التربوية وأطاريحنا لما تقرَّر بأقلامِ غيرنا.

نحــن في عصر («الفكر للجميع»، فلــم يعد هناك طبقة قليلــة من الناس تفكر بينما الأخــرى والأكثر عددا حظها أن تنقاد لمــا يقوله الأكثر علماً، والأنفذ بصيــرة، والأرجح رأياً. الكلُّ أصبح يعتقد أن من حقِّه قولَ ما يريد، ومناقشةَ ما يشاء، ومَن يشاء)[3]، وقد كانت منافذ التلقِّي للعقل التربوي تُطلُّ على من يُؤمَن جانبه من أهل العلم وأشــياخ الصحوة ودعاتها، أما الآن فـ (لم تَعُد الصحوةُ برموزها الحاليين ومنجزاتها الباهرة ومكتسباتها الضخمة اللاعبَ الوحيدَ على الساحة المحليَّة ولا المتفرّدةَ بقيادة المشهد الثقافي)[4].

ومــا دامت البيئة التربوية بيئــةً مفتوحةً فهي خاضعةٌ لا محالة لإشــكالية «اختلاط التربيات»، حيــث (صار المجتمعُ خليطاً عجيباً من أشــخاصٍ تتنازعهم تربيــات عديدة، فإن الدرجات العديدة التي عليها أصحاب كل وجهة تربوية بحسب مدى الســماع والرؤية، والدرجات المتعددة التي عليها أولئك الذين تتنازع التربيةُ الجديــدةُ عندهم مع التربية القديمة = كلُّ ذلك جعل المجتمع وكأن لكلِّ عضوٍ فيه تربيةً خاصةً معينة، أو أن أصحابَ الســمت الواحد هم عددٌ قليــل)[5]، وهذا ما يضع أمامنا تحديّاً كبيرا، فالظواهر والمشــاكل في بيئة كهذه ذاتُ طبائعَ مركبةٍ لا أحادية، ما يعسِّــر من فهمها وعلاجها.. والخلاصــة: البيئة التربوية لا تكون شــاغرة أبداً، بل إما أن تضع فيها ما تريد، أو سيضع فيها الآخرون ما يريدون.

• كان من ســنة النبي ﷺ في تربيتــه لأصحابه تنبيهُهم على ما ســيلقونه في قابل أيامهم، من ذلك قولُه عليه الصلاة والســلام: (بادروا بالأعمال فتناً كقطــع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، أو يمســي مؤمناً ويصبح كافراً،

(١) محمد قطب، مكانة التربية في العمل الإسلامي (١٢).

(٢) أحمد فهمي، مقالة (صفات المربي.. دراسة تحليلية) بتصرُّف، مجلة البيان، العدد (٢٠٤)، شهر شعبان، ١٤٢٥ هـ.

(٣) محمد السعيدي، منهج للبناء الفكري (٧).

(٤) ماجد البلوشي، مقالة (جيل ما بعد الصحوة):
http://www.saaid.net/arabic/344.htm

(٥) محمد الراشد، منهجية التربية الدعوية (١٦).

يبيع دينه بعرض من الدنيا)[1]. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: (إنها ستكون بعدي أثرةٌ وأمور تنكرونها) قالوا: يا رسول الله، كيف تأمر من أدرك منَّا ذلك؟ فقال: (تؤدون الحق الذي عليكم وتسألون الله الذي لكم)[2]. ووعظ عليه الصلاة والسلام صحابته موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، فقال رجلٌ: إن هذه موعظةُ مودِّعٍ، فماذا تعهدُ إلينا يا رسولَ الله؟ فقال: (أوصيكم بتقوى الله، والسمعِ والطاعة، وإنْ عبدٌ حبشيٌّ، فإنه من يعِش منكم يرى اختلافاً كثيراً، وإياكم ومحدثاتِ الأمور، فإنها ضلالةٌ، فمن أدرك ذلك منكم فعليه بسنَّتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديِّين، عضُّوا عليها بالنواجذ)[3].

وإذ قد علمنا أن عصرَ (الفكر للجميع) قد أظلَّنا، وإشكاليةَ (اختلاط التربيات) قد أحكمت قبضتها على من نربي وزاحمت مقرَّراتنا، فهذا يزيد من ضرورة التأكيد على وعي المربي بما يَجِدُّ في الساحة الفكرية، لِما لذلك من أثرٍ في تربيته وتحصين طلابه مما قد يعرِض لهم، كما (يتطلَّب الاعتناءَ بالبناء الداخلي للمتربين، وتزويدَهم بمهارات التفكير والنقد والتمييز والموازنة، وتنميةَ القدرة على التكيُّف مع الأوضاع التي تفرض نفسها، وأن يكون خطابُنا وحديثُنا مقنعاً مبرراً لا يفترض في الآخرين السماعَ والإنصاتَ فحسب)[4].

إن طغيانَ جملةٍ من المفاهيم الفكرية المنحرفة يستدعي معالجة فاحصة لها من قبل المختصين، واطِّلاعاً وتوظيفاً من قبل الدعاة والمربين، ومن تلك المفاهيم: نسبية الحقيقية، التلاقح الثقافي اللا منضبط، استقلال العقل، غلواء الحرية، التزهيد بمرجعية الوحي في القيام بمشاريع الإصلاح، وغيرها كثير.. ولابد أن نقرَّ بأن لديناً تأخراً في البصر بعلاج بعض المشكلات المحيطة بنا، فكيف بما تستقبلنا الأيام به؟!

• المربي أحوجُ إلى «توسيع قاعدة الفهم» منه إلى «تكثير المعلومات المحفوظة»، والكتب الفكرية من الروافد المهمة لتحقيق ذلك، علماً أن (القراءة من أجل توسيعِ قاعدة الفهم أشقُّ أنواع القراءة) ولكنها (أكثرها فائدة، والذين يقرؤون من أجل هذا الغرض قلةٌ قليلةٌ من الناس) وهذا الضرب من القراءة شاقٌّ منذ بدايته (فالكتاب الذي يرقى بفهم قارئه ليس ذلك الكتابَ المفهومَ لديه، أو ذلك الذي يعرض معلوماتٍ وأفكاراً معروفة، وإنما ذلك الكتاب الذي يشعر قارئه أنه أعلى من مستواه) ونحن وإن قررنا ذلك فـ (لابد من القول: إن الخطَّ الذي يفصل بين الكتاب الذي يعطي معلومات، وبين الكتاب الذي يوسع قاعدة الفهم = خطٌّ غامضٌ في أكثر الأحيان، فما من كتاب مخصَّصٍ لإعطاء معلومات إلا يمكن أن يحسِّن نوعية الفهم إذا تم تقديمه بطريقة سرد جديدة، كأن يحتوي إلى جانب المعلومات البحتة على استدلالات أو استنتاجات أو مقارنات أو تعليلات معينة)[5].. وفي التربية، لابد كذلك من العناية بتوسيع فهوم المتربِّين أكثر من العناية بإعطائهم الحلولَ للمشاكل الواقعة، فإن تداعيات هذا الزمن المتغير تقف دون ملاحقتها والوقوف على آحادها القائمة فضلا عمَّا في أجنَّة الأيام.. وليس يعني ذلك التقليل من شأن كثرة المعلومات، فهي من أن أعظم مغذِّيات الفهم، ولكن: لا ينبغي أن نفرح بتسجيل الأهداف الفكرية، وإنما نريد أن نكتسب لياقة تؤهلنا لخوض أية منافسة، أما أهداف الأمس فلن تحتسب في منافسات اليوم.

يقول أبو حامد الغزالي: (إذا لم يتكلم الفقيه في مسألة لم يسمعها ككلامه في مسألة سمعها = فليس بفقيه)[6]. وعلى قياسه المربي، فإذا لم يتكلم المربي في قضية تربوية لم يسمعها ككلامه في قضية سمعها = فليس بمربٍّ، ولا يحقِّق له ذلك شيءٌ كعنايته بتوسيع قاعدة الفهم.

• ليس القصد من دفع المربِّي للفكر والنهل منه أن يكون مَدرَجَةً للشبهات الفكرية إلى المحضن التربوي، بحيث يتعهَّد المتربين بشُبَه الفكر للإجابة عنها، فضرر ذلك أقربُ من نفعه، ولكن الغاية أن يكون المربِّي على درايةٍ بها ليُحسِنَ إلباس رؤاه اللبوسَ المناسبَ لطبيعة المرحلة، ويكونَ مستحضرا للسؤالات السابحة في الفضاء المجتمعي حتى يتمكن من تقويم أحوال طلابه تقويماً دقيقاً وإفادتهم الإفادةَ المثلى، غايةُ ما نريده من المربي – إذا تأهَّل لتفكيك شبهات الفكر – أن يكون كالمفتي لا المعلِّم، فالمفتي يكتنز علماً لكنه لا يَهَبُ مستفتيه إلا ما يحتاجه، أما المعلم فسائرٌ مع طالبه من مبدأ المتن إلى منتهاه، مع ضرورة تحسُّسٍ دبيب الشبهات إلى المتربي والسعي في إبادتها قبل تمكُّنها وانتشارها.

• السؤال الذي لا ينفكُّ من الصراخ في عقل كل مربٍّ راغبٍ في الفكر: كيف أكوِّن نفسي فكريّاً؟ ماذا أقرأ؟ بماذا

(١) أخرجه مسلم (١١٨).
(٢) أخرجه البخاري (٣٤٠٨)، ومسلم (١٨٤٣).
(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٧٦) وقال: (هذا حديثٌ حسنٌ صحيح).
(٤) محمد الدويش، الصحوة والتربية المنشودة (٦١).
(٥) عبدالكريم بكار، القراءة المثمرة (٣٢-٣٤).
(٦) نقله عنه الزركشي في البحر المحيط (١: ٢٤).

أبدأ؟ إلى أيِّ حدٍّ أَصِل؟ وســـؤالاتٌ بين ذلك كثيرا.. وقبل الإجابة لابد من التذكير بما تقدَّم من أنَّ الفكـــر ليس تخصصا معزولاً، وعليه فالبحثُ عن منهج فكريٍّ يترقَّى فيه الطالب من مرحلة لأخرى على حدٍّ ما يجده في العلوم الشـــرعية = خَبطٌ في عماية.. ولذا أفضِّل هنا أن أســـجِّل طائفةً من الموضوعات الفكرية وما له تعلُّقٌ بها، مع (كتابٍ/بحثٍ/مقالٍ) مقترحٍ، وما عدا ذلك من الموادِّ المناسبة يصل إليها المربي من خلال البحث وسؤال المهتمين بالشأن الفكري، وبعض هذه الموضوعات المسمَّاة منـــدرجٌ في بعض، وقد يُنصَّ على الفـــرع لأهميته، فليس هذا المدوَّنُ منهجاً فكرياً يترقَّى فيه المربِّي شيئا فشيئا، بل هو نثار موضوعات.

م	الموضوع	(ك) كتاب مطبوع (ب) بحث منشور على الشبكة أو في مجلة محكَّمة (م) مقالة
١	مصادر التلقي ومنهج الاستدلال	(ك) منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة لـ عثمان علي حسن (ك) الدليل العقلي عند السلف لـ عبدالرحمن الشهري
٢	المحكمات	(ك) المحكمات لـ عابد السفياني
٣	حجية فهم السلف	(ك) فهم السلف الصالح للنصوص الشرعية لـ عبدالله الدميجي
٤	الموقف من الصحابة	(ك) اعتقاد أهل السنة في الصحابة رضي الله عنهم لـ محمد الوهيبي (ك) النصب والنواصب لـ بدر العوَّاد (مقدمة الكتاب) (م) موقف الصحابة رضي الله عنهم من معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه لـ سلطان العميري (م) موقف علماء الأشاعرة من معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه لـ سلطان العميري (م) من السلامة إلى الغل لـ فهد العجلان
٥	قضايا الإصلاح	(ك) شريعة المصلحين لـ أحمد الصويان (م) مشاريع الإصلاح.. رؤية تقويمية لـ عبدالرحيم السلمي (م) الخطاب الإصلاحي والإشكاليات المتجذرة لـ سلطان العميري (م) ذرائع الإصلاحيين لـ إبراهيم السكران
٦	السياسة الشرعية	(ك) أضواءٌ على السياسة الشرعية لـ سعد بن مطر العتيبي (ب) مفاتيح السياسة الشرعية لـ إبراهيم السكران
٧	مقاصد الشريعة	(ك) الاجتهاد المقاصدي لـ نور الدين الخادمي (م) التداول الحداثي لنظرية المقاصد (١-٢) لـ سلطان العميري
٨	الفقه المعاصر	(ك) منهج البحث والفتوى في الفقه بين انضباط السابقين واضطراب المعاصرين لـ مصطفى الطرابلسي (ك) المبالغة في التيسير الفقهي لـ خالد المزيني (ك) إصلاح الفقيه لـ هيثم الرومي (م) جسارة الانتقاء وأكذوبة التقليد لـ عبدالله البطاطي
٩	التصوُّر الإسلامي لقضايا الحريات	(ك) فضاءات الحرية لـ سلطان العميري
١٠	الإسلام والعلم التجريبي	(ك) مناهج الاستدلال على مسائل العقيدة الإسلامية لـ أحمد قوشتي (ص٦٢٣-٦٨٦) (ك) النظريات العلمية الحديثة.. مسيرتها الفكرية لـ حسن الأسمري (١: ٦٧٩-٨١٠)
١١	الإسلام والقوانين الوضعية	(ك) التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي لـ عبدالقادر عودة (مقدمة الكتاب) (ك) الإسلام وأوضاعنا القانونية لـ عبدالقادر عودة

١٢	شبهات أعداء الإسلام	(ك) شبهاتٌ حول الإسلام لـ محمد قطب
١٣	التحولات الفكرية	(ك) التحولات الفكرية لـ حسن الأسمري (ك) تحولات الإسلاميين لـ وليد الهويريني
١٤	الانفتاح الفكري	(ك) الانفتاح الفكري لـ عبدالرحيم السلمي
١٥	المعارضات الفكرية المعاصرة	(ك) التسليم للنص الشرعي والمعارضات الفكرية لـ فهد العجلان (ك) ينبوع الغواية الفكرية لـ عبدالله العجيري (ك) معركة النص (١-٢) لـ فهد العجلان
١٦	التعددية الفكرية	(ب) مفهوم التعددية الفكرية لـ خالد المزيني [نشر في مجلة التأصيل - العدد (٢) - (ص٢٧-٧٩)]
١٧	الموقف من المبتدعة	(ك) المبتدعة وموقف أهل السنة والجماعة منهم لـ محمد يسري (م) التسامح العقابي مع المبتدع وضرورة الإتقان المعرفي لـ سلطان العميري
١٨	الحضارة الغربية والموقف منها	(ك) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا لـ محمود شاكر (ك) الإسلام والحضارة الغربية لـ محمد محمد حسين (ك) صراع الحضارات بين عولمةٍ غربية وبعثٍ إسلامي لـ جعفر شيخ إدريس (ب) مآلات الخطاب المدني لـ إبراهيم السكران (م) هل من الممكن أن نتحرر من هذا الرق الثقافي؟ لـ صالح الحصين
١٩	الفكر العربي	(ك) الفكر العربي في عصر النهضة لـ ألبرت حوراني (ك) قراءة في خطاب النهضة لـ محمد الفقيه (ك) التفسير السياسي للقضايا العقدية في الفكر العربي لـ سلطان العميري (ص٩-٣١)
٢٠	مذاهب فكرية معاصرة	(ك) مذاهب فكرية معاصرة لـ محمد قطب (٥) أصول الفرق والأديان والمذاهب الفكرية لـ سفر الحوالي
٢١	العلمانية/الليبرالية	(ك) العلمانية لـ سفر الحوالي (ك) حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها لـ عبدالرحيم السلمي [له مختصر على الشبكة] (ك) العلمانيون والقرآن الكريم لـ أحمد الطعّان (ص١٨-٢٨٦) (ك) معركة الثوابت بين الإسلام والليبرالية لـ عبدالعزيز مصطفى كامل
٢٢	التنوير	(ك) التنوير الإسلامي في المشهد السعودي لـ عبدالوهاب آل غظيف (م) خارطة التنوير من التنوير الغربي إلى التنوير الإسلامي لـ أحمد سالم (أبو فهر السلفي)
٢٢	التغريب / قضايا المرأة	(ك) حراسة الفضيلة لـ بكر أبو زيد (ك) هل يكذب التاريخ؟ لـ عبدالله الداود (ك) عودة الحجاب لـ محمد المقدَّم (م) المدخل الفقهي للمشروع التغريبي لـ عبدالرحيم السلمي
٢٤	الإلحاد	(ك) الإسلام يتحدَّى لـ وحيد الدين خان (ك) الفيزياء ووجود الخالق لـ جعفر شيخ إدريس (م) اضطراب الملحدين (١-٤) لـ جعفر شيخ إدريس
٢٥	مهارات التفكير	(ك) منهج التفكير لـ ناصر العمر (ك) فصولٌ في التفكير الموضوعي لـ عبدالكريم بكار

ونجـــازُ بحث العلاقة بين المربي والمجال الفكري بالتأكيد على أنَّ صلبَ العملية التربوية بنـــاءُ جيلٍ قرآني، جيلٍ يُصنَع على عين القرآن، ومن أشـــرف أوصاف القرآن أنه تبيانٌ لكلِّ شيء، وقد دلَّ الكتاب على ذلك في ســـياق التقرير: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْـكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّـكُلِّ شَيْءٍ وَهُـدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْـلِمِينَ﴾ [النحـل: ٨٩] وكذا في ســـياق المدافعة: ﴿وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً﴾ [الفرقان: ٣٣].. ولهذا (فليســـت تنزلُ بأحدٍ من أهل دين الله نازلةٌ إلا وفي كتاب الله الدليلُ على سبيل الهدى فيها)[١]، فجديرٌ بالمربي أن يمهِّد الطريق لرســـائله بأنوار القرآن، ويسعى جاهداً في زرع المضامين الفكرية الصحيحة في قلوب من يربِّيهم من خلال النص القرآني، فهذا أمكنُ لنفوذها وأبقى لآثارها[٢].

(١) الشافعي، الرسالة (٢٠).

(٢) من الكتب المعينة على بناء ملكة استثمار النصِّ القرآني في تقرير المضامين الفكرية: (مآلات الخطاب المدني) للشيخ البحَّاثة إبراهيم السكران، وكذا كثيرٌ من مقالاته.

رجاء:

تمنَّى أ. د. عبدالكريم بـــكار في كتابه الحافل عن الصحوة الإســـلامية (أن يكون لـــدى كل جماعة وهيئة ومنظمة وجهة صحوية وحدةٌ صغيرة، مهمتُها الأساسية اصطيـــاد الأفـــكار، والاطلاع على التجـــارب العالمية، واقتباس الأســـاليب الناجحة) ثم عقَّب بقوله: (إن هذه الوحدة قد تختصر الطريق بأكثر مما نتصور)[٣].. وبما أن أحرفَ (الرجاء) أكثرُ فألاً من حروفِ (التمنِّي) فإني لأرجو أن نقوم بإنشاء وحدات تربوية صغيرة في كل بيئة تربويـــة، أو تكون الوحدة مغذِّية لأكثر من بيئة، مهمتُها: القفز بمعارف المربين من خلال تقييد موضوعات تعين علـــى تكوين عقل المربي في مختلف المعارف، مع حصر حاجيات المحضن التربوي، والمشـــكلات التي تحيط به، وذلك بشـــكلٍ دوري (أسبوعي أو شهري...)، ثم السعي في إنشاء أوراق تسُـــدُّ رمقَ المربين في ذلك، من خلال المقـــالات المكتوبة، أو انتزاعِ فصولٍ من بطون الكتب، أو تتبع الدراسات الإقليمية والعالمية، والتقارير الإحصائية، وغيرها من روافد المعرفة، مع اقتراح أفكار بنائيَّة لمناهج التربية، وحلولٍ للمشـــكلات، الواقعةِ والممكنِ وقوعُها، وكذلك يكون من مهمة هذه الوحدة الوساطة بين المربين وأهل التخصصات المختلفة عند الحاجة إليهم.

وإضافـــةً إلى تلك الأوراق تقوم الوحدة باســـتثمار مختلف الوسائل الإعلامية، كمقاطع الـ (YouTube) فتجمع البرامج والحوارات والمناظرات الملائمة لشريحة المربين.

ومـــن أبرز بواعث هـــذا الرجاء أنَّ المربـــيَ الفردَ لا يســـتطيع أن يقوم بتلك المهام لوحـــده، فلا أقلَّ من إعانتـــه وتغذيته بهذه الأوراق من قِبَـــل هذه الوحدات التربوية، وليس بشـــرطٍ أن تكـــون هذه الوحدات تحت إدارة أشـــخاص معينين في كل بيئة تربوية، بل الأجدى أن يكـــون الأمر دُولَةً بين المربـــين جميعاً، مع أهمية أن يكون على رأسها مَن تحقَّقت فيه أهليةُ النظر في الفكر والتربية، وإن عُدِم ذلك الأهل ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْـتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

(٣) الصحوة الإسلامية (٢٠٥).

ماذا بقي؟

لم يبقَ إلا شفوفُ النفس ليبدوَ منها ما استكنَّ.. لم يبقَ إلا وقفة الوفاء لجلالة التربية وسماحة المربين، ومن ذا الذي يملك أن يتحدَّث عن التربية دون أن تنسدل أشواقه وتندلق أقتاب قلبه!

خلُّوا بيني وبين التربية..

أيَّ ســـموٍّ ذاك الذي حفرته محاضن التربية في سماء أمجادنا، وأيَّ معانٍ تلك التي أرســـتها رسائلُها في مرافئنا.. يفيء إليها الفتى فتجعل منها كهلاً في همته، والخاملُ فتُحيله مكنزَ جِدٍّ وإنجاز، وفاترُ الهمِّ فتحفر فـــي وَجنتيه مجاريَ دمعٍ كلَّما دهمـــت أمَّتَه النوائب.. أمسى فتورُه أثراً بعد عين!

أما أهلُها، فالحديث عنهم شـــاق، وشخوصهم الطاهرة تتراءى الآن بين ناظريَّ، فماذا عسى أن أقول عنهم؟!

ما جالستُ واحدَهم إلا وأخاديدُ الهموم قد غزت سحنةَ وجهه، فما الذي ألجأه؟

يَســـعد الناسُ بذكر المنجزات، ولا يفتنني شيء كسماع الهموم، هموم التربية فحســـب، من صوت المربي فحسب، برعشة يده المثقلَة حين تُشير وتشـــرح، بتجاعيد آماله المطلَّة من عينيه، بتنهيدته التي تُثقِل حروفَه، ينطق لسانه ببضع كلمات، وتخُطُّ عيناه لك أسفاراً من شَجَن التربية.. فيا لَشُجُون المربِّين.

خلُّوا بيني وبين التربية..

أقسم بالله غيرَ حانثٍ أنّ لو قُدِّرتْ محاضنُ التربية عَدَماً لكانت جنايـــة الباطل وأهله أضعافاً مضاعفة عما هي عليه، فكم من قتيلٍ لإبليـــس قد أحيتْه، وكم من تائهٍ ضالٍّ قد هدتْه، فما أحســـنَ أثرَها على الناس، وأقبحَ أثر الناس عليها!

بيوتُ إيمان، ومصانعُ قادة، مدَّت جســـورها الواصلة بين شباب الأمة وجميعِ ثغور العطاء، «جميعِها» ولا أستثني، وقد آن لها أن تخطَّ تاريخَها المشـــرق بأقلامٍ فخورة، آن له ذلك ليُعلَمَ مقامُها من جسد الأمـــة، ليعلَمَ لاحقُ المربين فضلَ ســـابقهم، ويحذوَ حذوهم، لنبصرَ مســـيرتَها الســـابقة، ونصلَها بالحاضرة، ثم نكتب من بعدُ خارطةَ طريقِها المستقبلة.

فيا ربِّ أتمَّ لأهل التربية مسيرتهم.. يا ربّ.. يا ربّ.

الأمراض الستة للأمة..

التشخيص والعلاج

■ د. أحمد بازز(*)
bazizahmed@gmail.com

كثيراً ما يحتاط الناس من الأمراض الخطيرة التي تصيب الجسد عبر مراحله العمرية منذ الصغر إلى الشيخوخة، حيث يعمدون إلى أخذ الجرعات الواقية من التلقيحات الأساسية المضادة لهذا المرض أو ذاك، لكنهم لا يحتاطون للأمراض الحقيقية التي تنخر كيانهم وتطول القلب واللسان ومنه إلى القضاء على الجسد، فرداً كان أو أمة؛ لهذا نبّه الحق - جل وعلا - في كتابه إلى جملة الآفات والأمراض القلبية واللسانية، مبيّناً خطورتها عبر خطاب النهي الذي يفيد بالتوقف كما هو مبيّن في النصوص الشرعية، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

(*) باحث في الدراسات الإسلامية، وخطيب مسجد الفلاح، مريرت – المملكة المغربية.

وقول الحبيب النبي ﷺ «ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم... الحديث»[1].

ومن ثم يتبيَّن أن هذه المعاصي التي جاءت بها هذه المحاذير القرآنية هي لا محالة ذنوب من عيار ثقيل، وشرها خطير؛ نظراً لارتباطها بحقوق الآخرين وكرامتهم، ولأنها متى وُجدت في مجتمع ما دمّرته وخرّبته وفكّكت وحدته وأضعفت قوته، ومعلوم أن وحدة الأمة على الطريق المستقيم هي مبتغى الأوامر الشرعية.

إن الله سبحانه وحده أعلم بحقيقة النفس البشرية، الحقيقة الكاملة؛ لذلك نبّه سبحانه المؤمنين إلى أمراض سادت في الجاهلية وأورام تنهدم بها أركان الأخوة الإيمانية، محذراً من مغبّاتها ونتائجها، وسورة الحجرات هي بحق سورة للأخلاق يقف معها المؤمن مع ما ينبغي وما لا ينبغي من السلوكيات والمعاملات.

هذه الأمراض التي سنتحدث عنها - بحول الله وقوته - كانت تسري في جسد الأمة العربية - الجاهلية مع ما كانت تُعرف به من شيم وخصال حميدة، لذا جاء الشرع الحكيم لتشخيصها وبيان سبل الوقاية منها، قال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١١ - ١٢].

هذه مداخل الشيطان الستة، وأسلحته الفتاكة! وهي مزالق المتكلمين بغير موازين، وإنها لمن أخطر أسباب خراب العلاقات الاجتماعية أنى كانت، من الأسرة إلى الجماعة! وهي سبب فشل الإنسان في مد جسور المحبة والتواصل مع المؤمنين. وكلها آفات لسانية وقلبية[2]، وهي كما جاءت مرتبة في الآيات كالتالي: السخرية، واللمز، والتنابز بالألقاب، والظن، والتجسس، والغيبة! فلا بد من الوقوف مع هذه الأمراض حتى يعلم المسلم حقيقة أمره منها.

إن حسن المعاملة بين عموم المسلمين يقتضي حسن المعاملة بين آحادهم؛ لذلك نبّه هذا النص القرآني إلى أمور من حسن المعاملة قد يغفلها المسلم، إذ النهي عن أمور يقتضي كما هو معلوم في علم أصول الفقه الأمر بأضدادها.

وهذه الأمراض التي أشارت إليها الآيات في هذه السورة العظيمة، تفسد الحياة، وتدمر العلاقات، وتؤجج نيران الفتن، وتهيئ البيئة للاقتتال، وتوقد الحرائق في حقول المحبة الخضراء! فما أعراضها وأوصافها إذن؟

المرض الأول: السخرية

السخرية: وهي الاستهزاء. جاء في مختار الصحاح سَخِرَ منه من باب طرب وسُخْراً بضمتين ومَسْخَراً بوزن مذهب.. وقال الأخفش سخر منه وبه وضحك منه وبه وهزئ منه وبه كل يقال والاسم السُّخْرِيَّةُ[3].

وحكمها في الشرع أنها حرام، بل يتبيَّن من التعليل الوارد في الآية المبالغة في النهي عن تحريمها.

نهَى - جلّ جلالُه - المؤمنين في مطلع هذا النص القرآني عن السخرية بالناس، وهو احتقارهم والاستهزاء بهم، واستصغارهم، وهذا حرام، بل هو كبيرة شنيعة! لأن الساخر المحتقر لغيره إنما يفعل ذلك لِمَا توهم من العلو لشخصه ولما وجد من الكبرياء في نفسه! والمتكبر لا يدخل الجنة ابتداء من مثقال ذرة منه لما فيه من رد الحق وغمط الناس واحتقارهم؛ لأنه ضرب من التأله والتجبر على الخلق! وتلك كلها أحاسيس تعمي صاحبها عن أن يرى للناس منازلهم!

المرض الثاني: اللمز

واللمز لغة: العيب، وأصله الإشارة بالعين ونحوها، وبابه ضرب ونصر، وقرئ بهما قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ٥٨]، ورجل لَمَّازٌ مشدداً ولُمَزة بوزن همزة أي عيَّاب[4].

وفي الشرع: هو ذكر ما يعده الذاكر عيباً لأحد مواجهة، فهو المباشرة بالمكروه، ويكون بحالة بين الإشارة والكلام بتحريك الشفتين بكلام خفي يعرف منه المواجه به أنه يذم أو يتوعد.. وهذا يصب في قالب من يزدري الناس وينتقص بهم ويطعن فيهم ويعيب عليهم، وهو من أشنع الأخلاق وأسوئها!

(١) أخرجه البخاري ومسلم من رواية أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) انظر ص ٢٤٤ مجالس القرآن للدكتور فريد الأنصاري رحمه الله.
(٣) انظر مختار الصحاح، الجذر: س خ ر.
(٤) انظر مختار الصحاح، الجذر: ل م ز.

وللمفسرين وكتب اللغة اضطراب في شرح معنى اللمز، وهذا الذي أوردناه هو المنخول من ذلك[1]. وقد توعد سبحانه فاعله بالويل في سورة الهمزة: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، وقوله تعالى: ﴿وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [الحجرات: ١١]، معناه: لا تلمزوا إخوانكم المؤمنين، فهم بمثابة أنفسكم؛ لأن مجتمع المؤمنين كالجسد الواحد.

المرض الثالث: النبز

والنبز في اللغة من: النَّبَزُ بفتحتين، وهو اللَّقب، والجمع الأَنْبَاز، ونَبَزَهُ أي لقبه، وبابه ضرب، وتَنَابَزُوا بالألقاب لقَّب بعضهم بعضاً[2].

وفي الاصطلاح هو: اللقب السوء والمكروه، وغالب الألقاب في الجاهلية كانت نبزاً، قال الشاعر:

أكنيه حين أناديه لأكرمه
ولا ألقبه والسوأة اللقب

واللقب ما أشعر بخسة أو شرف، سواء كان ملقباً به صاحبه أو اخترعه له النابز له.

وقد خصص النهي في الآية بـ "الألقاب" التي لم يتقادم عهدها حتى صارت كالأسماء لأصحابها وتنوسي منها قصد الذم والسب خصّ بما وقع في كثير من الأحاديث كقول النبي ﷺ: أصَدق ذو اليدين؟ وقول المحدثين "الأعرج" لعبد الرحمن بن هرمز، و«الأعمش» لسليمان بن مهران[3].

وقوله تعالى: ﴿وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾ [الحجرات: ١١] أي لا تتنادوا بالألقاب الساخرة! مما يطلقه بعضكم على بعض سخريةً وتنقيصاً واستهزاءً! فالنبز طعن أيضاً كاللمز، ولذلك قال تعالى بعدها مباشرةً: ﴿بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١١]، أي بئس ما كنتم تصنعون من التنادي بالأسماء الفاسقة والألقاب الشنيعة مما اعتدتم عليه في الجاهلية!

فذلك كله مما وجب على المؤمن أن يتبرأ منه ويتخلى عن بوائقه، من بعد ما أكرمه الله تعالى بالإيمان والتوبة والصلاح. ومن لم يتب من هذا الفعل الشنيع فأولئك هم الظالمون لأنفسهم، بما لطخوها من السيئات، والظالمون لغيرهم بما وقعوا فيه من الطعن في أعراضهم والحط من أقدارهم! وقد يكون أولئك المطعون فيهم ممن أحبهم الله وأعلى لهم الدرجات! وما يدريك؟ فربما طعنتَ على ولي حقيقي من أولياء الله؟ المحروسين بعين الله! و(كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لاَ يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ!)[4].

المرض الرابع: الظن السيئ

ما سبق ذكره من هذه الأمراض مشاحنات شنيعة يبوء بها اللسان، وينوء ببوائقها؛ سخريةً ولَمْزاً ونَبْزاً! لكنها جميعها ترجع إلى ما يقع بالنفس من أوهام وخواطر شيطانية، ما يَعْقِدُ القلوبَ على الإثم وظن السوء بالمؤمنين! ومن هنا يبدأ الخطر!

ذلك أن الظن السيئ إذا تشكل في قلب الإنسان جرّأَهُ على الطعن في الأعراض والحط من الأقدار! سخريةً ولمزاً ونبزاً! ولذلك فقد غاص الخطاب القرآني في أعماق النفس الإنسانية منبّهاً المؤمن إلى ضرورة التخلص مما ينعقد بقلبه من الظنون السيئة، وما يلقيه الشيطان إليه من خواطر سوداء تجاه إخوانه المؤمنين! فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

والظن هو التوهم، والمراد بـ "الظن" هنا: الظن المتعلق بأحوال الناس. والمقصود بالظن السيئ: التهمة بالوهم، والتخون المتخرص للأهل وللناس؛ لأن بعض ذلك إنما يكون إثماً وظلماً!

والرسول ﷺ يقول محذراً من الظنون: (إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث! ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً!)[5].

والظن المأمور باجتنابه هو التهمة التي لا دليل عليها، واتهام الآخر دون دليل موقع في الإثم ومفضٍ إلى العقوبة، وما نجمت العقائد الضالة والمذاهب الباطلة إلا من الظنون الكاذبة، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

---

(١) انظر على سبيل التمثيل تفسير ابن كثير ج ٤، ص ٥٥١ في تفسير سورة الهمزة. ذكر الطاهر بن عاشور في تفسيره يقول عما اعتمدناه أنه هو المنخول من ذلك الاضطراب.
(٢) معجم: مختار الصحاح، الجذر اللغوي: ن ب ز.
(٣) راجع تفسير الطاهر بن عاشور تفسير سورة الحجرات، ص ٢٤٩.
(٤) أخرجه الترمذي والضياء عن أنس مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم. وصححه الألباني في صحيح الجامع، حديث رقم ٤٥٧٣.
(٥) أخرجه البخاري.

ولما جاء الأمر في آية الاستدلال باجتناب كثير من الظن، علمنا أن الظنون الآثمة غير قليلة؛ لذلك يجب تمييز الظن الباطل من الظن الصادق، حتى لا يعامل المسلم أخاه بما لا يليق من المعاملات السيئة، وتكمن خطورتها في كونها خفية لا يتفطن لها من عومل بها ليدفعها[1].

وهذا التحذير يراد منه مقاومة الظنون السيئة بما هو معيارها من الأمارات الصحيحة، وليس التكليف باجتناب ما يحصل منه في خاطر الإنسان عن غير اختيار، وإنما يراد الأمر بالتثبت فيه، وفي الحديث عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا ظننتم فلا تحققوا"[2].

ينبغي للمؤمن أن لا يستسلم لوسوسة الشيطان في إساءة الظن بالمسلمين، بل عليه أن يلتمس لهم المعاذير والمخارج فيما يراهم أخطأوا فيه، بدل أن يتطلب لهم العثرات والعيوب، وإذا لم يجد وجهاً واحداً للخير يحمله عليه فيجمُل به أن يتريث، ولا يستعجل في الاتهام، فقد يبدو له شيء عن قريب، وما أصدق ما قاله الشاعر هنا:

تأنّ ولا تعجل بلومك صاحباً
لعل له عذراً وأنت تلوم!

فالظن الباطل إذا تكررت ملاحظته ومعاودة جولانه في النفس، قد يصير علماً راسخاً في النفس، فتترتب عليه الآثار بسهولة، كما أن الظن الحسن الذي لا مستند له غير محمود؛ لأنه قد يوقع فيما لا يحد ضرره من اغترار في محل الحذر ومن اقتداء بمن ليس أهلاً للتأسي، وقد قال النبي ﷺ لأم عطية حين مات في بيتها عثمان بن مظعون وقالت "رحمة الله عليك أبا السايب فشهادتي عليك لقد أكرمك الله": "وما يدريك أن الله أكرمه؟". فقالت: "يا رسول الله ومن يكرمه الله؟". فقال: "أما هو فقد جاءه اليقين وإني أرجو له الخير وإني والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي". فقالت أم عطية: "والله لا أزكي بعده أحداً"[3].

وهي عند المالكية من الكبائر. وجعلها الشافعية من الصغائر ٢٥٧:

فإذا تظاهر إنسان بمعصية، أو اشتهر بتعاطي الرّيَب، أو جاهر باقتراف السيئات، أو دخل مداخل السوء؛ فلا لوم على مَن أساء به الظن؛ لأن الظن هنا أصبح حقيقة، وما دام ذلك كذلك يكون بعضه من تمام الإيمان، يقول الرسول ﷺ: «من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان»[4].

لهذا نجد في كتب السير والأخلاق أنَّ عمر بن الخطاب روي عنه أنَّه قال: (مَن دخل مداخل السوء فلا يلومن مَن أساء به الظن). وفي الحديث (... حَتَّى مَتَى تَرْعَوُونَ عَنْ ذِكْرِ الْفَاجِرِ اهْتِكُوهُ حَتَّى يَحْذَرَهُ النَّاسُ)[5].

المرض الخامس: التجسس

إن الذي يتحدث عن هذه الأمراض ينبغي له أن يتحدث عنها مجتمعة مرتبة كما ساقها النص القرآني؛ نظراً لارتباط بعضها البعض وأن بعضها يتولد من بعض، فتتكاثر كأنها خلية سرطانية لا تعرف التوقف حتى تشل الأركان عن الحراك.

والتجسس في اللغة: نقول - جس الخبر: بحث عنه، وفحص. وتجسس الخبر: جسه. والجاسوس: من يتجسس الأخبار ليأتي بها (ج) جواسيس -: صاحب سر الشر. والناموس صاحب سر الخير[6].

وفي القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢]، أي: خذوا ما ظهر ودعوا ما ستر لله عز وجل، أو: لا تفحصوا عن بواطن الأمور، ولا تبحثوا عن العورات.

لذلك جاء النهي في الآية ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾، وهو مرحلة تحصل بعد الظن السيئ لمحاولة التحقق من تلك الظنون والأوهام، فالتجسس بهذا الاعتبار هو محاولة التحقق الخفي والتتبع السري للعورات، لفضح ما قد صوّرته النفس الأمارة عن المؤمنين من عيوب خفيات!

فقد نهى النبي عن تتبع عورات المسلمين وبيّن العاقبة الوخيمة لذلك الفعل: «... من يتبع عورة أخيه يتبع اللهُ عورتَه! ومن يتبع اللهُ عورتَه يفضحه في جوف بيته!»[7].

---

(١) الطاهر بن عاشور، ص ٢٥١.
(٢) صححه الشيخ الألباني في الصحيحة ٣٩٤٢.
(٣) انظر تفسير الطاهر بن عاشور ص ٢٥٣ .

(٤) أخرجه أبو داود (صحيح الجامع ٥٩٦٥).
(٥) أَخْرَجَه الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ وَالصَّغِيرِ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ رِجَالُهُ مَوْثُوقُونَ وَأَخْرَجَهُ فِي الْكَبِيرِ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ بْنِ حَيْدَةَ.
(٦) القاموس الفقهي لغة واصطلاحاً للدكتور سعدي أبوجيب: ص ٦٤، ط ١٤٠٨ هـ = ١٩٨٨ م، دار الفكر، دمشق - سورية.
(٧) أخرجه الأربعة عن البراء بن عازب، وأخرجه أحمد وأبو داود عن أبي برزة الأسلمي، كما أخرجه الترمذي عن ابن عمر، وصححه الألباني: حديث رقم ٧٩٨٤ في صحيح الجامع.

المرض السادس: الغيبة

الغيبة لغة: البعد، والتواري. وشـــرعاً: - بإجماع المسلمين - هي ذكرك أخاك بما يكره[1].

وقد حذر منها المولى جلّ في علاه قائلاً: ﴿وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

نهى سبحانه عن إشـــاعة التصورات السيئة، والمواقف المنتقصة من أقدار الناس، ســـواء كان ذلك بحـــق أو بباطل! فلا يجوز تجريح مؤمن بغيبة أو بأي كلام جارح مما لو اطلع عليه لغضب منه! وهو ما فســـره النبي ﷺ جواباً في الحديث الصحيح: قيل: يا رسول الله ما الغيبة؟ قال ﷺ: "ذكـــرك أخاك بما يكره!". قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال ﷺ: "إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بَهَتَّهُ"[2].

ويلحق بالغيبة في المعنى السَّعْيُ بالنميمة بين الناس؛ لإفساد ذات بينهم! وهو ما ذمه القرآن بشـــدة في سياق آخر، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١٠ - ١١].

وقد جعل الله تعالى الغيبة في بشاعتها - وما يلحق بها من آفات - كأكل لحم الإنسان وهو ميت! ومعلوم أن النفس الإنسانية تعاف مثل هذا وتستقذره! بل تعاف حتى مجرد تصوره خيالاً[3]! فبيَّن الله - جل جلاله - أن التجســـس والغيبة في بشـــاعتهما وشناعتهما أشد عند اللـــه من ذلك! فقال تعالى: ﴿وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًـــا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

ولذلك؛ فقد حذَّر النبي ﷺ من هذا وذاك أشـــد التحذير! فقد روى البراء بن عازب وأبو برزة الأســـلمي - رضي الله عنهما - قالا: (خطبنا رســـول الله ﷺ حتى أســـمع العَوَاتِقَ في بيوتها، أو قال: في خدورها، فقال: يا معشـــر مَنْ آمن بلسانه ولم يدخل الإيمانُ قلبَه! لا تغتابوا المسلمين!...)[4].

وعن أنَس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: (لما عُرج بي مررتُ بقوم لهم أظافر من نحاس يخمشـــون وجوهَهم وصدورَهم! قلتُ: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم)[5].

• الوقاية والعلاج:

وللســـلامة من هذه الأمراض كلها دعا سبحانه المؤمنـــين إجمالاً إلى الدواء الشـــافي الكافي وقاية وعلاجاً، دعا إلـــى تقوى الله! وإنمـــا تكون التقوى هنا بالحرص على تعظيم محـــارم الله من أعراض المســـلمين، وصون شـــرفها وحفـــظ كرامتها! فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢].

فوجب بمقتضى ذلك على من وقع في شـــيء من هذه الكبائر الخطيرة؛ أن يســـارع إلى التوبة إلى الله قبل فوات الأوان! عسى أن ينجو برحمة الله، ويفوز بغفرانه جل ثناؤه!

أما بالتفصيل فينبغي على المســـلم أن يتربى على خلـــق التواضع، وعدم الخـــوض في عيوب الناس قولاً أو فعلاً، ومناداة الناس بأحب الأسماء إليهم، وإحســـان الظن بهم ما لـــم يقفوا مواقف التهم، وعدم التحقق من الظنون الســـيئة، وعدم تتبّع عـــورات الناس، وحفظ الحـــواس عن هذه الأنجاس، وتجنب الغيبة ومجالســـها، والاستغفار لمن وقعـــت عليهم الغيبة بختـــم المجالس بكفارة المجلس اقتداء بسنة النبي عليه الصلاة والسلام، والموفَّق لهذا العلاج من حمل نفســـه على الخلال الحسنة وابتعد عن هذه الأمراض.

(١) القاموس الفقهي لغة واصطلاحاً، ص ٢٨١.
(٢) أخرجه الإمام مسلم بسنده من رواية أبي هريرة.
(٣) لمزيد من التصوير البياني حول هذه الآفة ص ٥٢٤ مجالس القرآن للدكتور فريد الأنصاري رحمه الله.
(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٤٢٠، رقم ١٩٧٩١)، وأبو داود (٤/ ٢٧٠، رقم ٤٨٨٠)، والبيهقي (١٠/ ٢٤٧، رقم ٢٠٩٥٣). وأخرجه أيضاً: ابن أبي الدنيا في الصمت (ص ١٢١، رقم ١٦٨)، وأبو يعلى (١٣/ ٤١٩، رقم ٧٤٢٣)، وصححه الألباني في المشكاة، ٥٠٤٤.
(٥) أخرجه أبو داود وأحمد، وصححه الألباني. حديث رقم ٥٢١٣ في صحيح الجامع.

مدار الوطن للنشر

مركز خدمة المتبرعين بالكتاب

يسره أن يطلق مشروع عقيدتي

خلال موسم حج ١٤٣٤هـ

- لكل من يرغب في التوزيع الخيري على ضيوف الرحمن
- لكل الهيئات الحكومية والأهلية المعنية بالتوزيع خلال موسم حج ١٤٣٣هـ

ساهم معنا في توزيع
رسائل مختارة في العقيدة
على حجاج بيت الله الحرام

أكثر من 200 إصدار لخدمة ضيوف الرحمن

وسائل دعوية متنوعة

الحقائب الدعوية

حقائب سلوفانية فاخرة بمقاسات متنوعة

الكتب والرسائل

أكثر من ٤٠ كتابًا في أحكام ومناسك الحج والعمرة ومنها :

المطويات

أكثر من ٦٠ مطوية دعوية في الحج والعمرة ومنها :

الكروت

أكثر من ٣٥ كارتاً دعوياً في الحج والعمرة ومنها :

اللغات الأجنبية

حقيبة هذا هو الإسلام مترجمة إلى ٨ لغات

حقيبة العقيدة أولا باللغة الإنجليزية واللغة الإندونيسية

مطوية أعمال الحج مترجمة إلى ٦ لغات

الأكثر مبيعًا في الحج

كتاب كيف نحقق التوحيد؟ 9

كتاب التحذير من فتنة القبور لسماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله 9

تهذيب حجة النبي لابن القيم

استعداد كامل للشحن داخل وخارج المملكة
الخط الساخن لخدمة العملاء
0566665451

الرياض : الملز / ت : ٤٧٩٢٠٤٢ (٥ خطوط) ف : ٤٧٢٣٩٤١ | السويدي / ت : ٤٢٦٧١٧٧ ف : ٤٢٦٧٣٧٧ | مندوب الرياض : ٠٥٠٣٢٦٩٣١٦
مندوب الغربية (مكة المكرمة) : ٠٥٠٤١٤٣١٩٨ مندوب الشرقية والشمالية : ٠٥٠٣١٩٣٢٦٨ مندوب الجنوبية والتوزيع الخيري : ٠٥٠٣١٩٣٢٦٩
لطلبات الجهات الحكومية : ٠٥٠٠٩٩٦٩٨٧ الموقع على الإنترنت www.madaralwatan.com البريد الإلكتروني pop@madaralwatan.com

حلقات ابن مسعود رضي اللّه عنه بمسجد الكوفة..

قراءة إدارية وتربوية

فايز بن سعيد الزهراني
@fayz_zhrani

بعث الخليفة الراشد الملهم عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – إلى الكوفة كلاً من عمار بن ياسر – رضي الله عنه – أميراً، وعبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – معلماً، وكتب إلى أهل الكوفة: (إني قد بعثت إليكم عماراً أميراً، وابن مسعود معلماً ووزيراً، وهما من النجباء من أصحاب محمد، من أهل بدر، فاسمعوا لهما واقتدوا بهما، قد آثرتكم بعبد الله على نفسي)[1].

انطلق عبد الله بن مسعود مع أخيه عمار بن ياسر إلى الكوفة لأداء المهمة التعليمية، وقد وقع الاختيار عليه لقدرته التعليمية الفائقة؛ فهو ممن يتحرى في الأداء، ويشدّد في الرواية، ويزجر تلامذته عن التهاون في ضبط الألفاظ[2]. يقول الذهبي عنه: (كان معدوداً في أذكياء العالم)[3]. وأورد عن حذيفة – رضي الله عنه – قوله عنه: (إنّ أشبه الناس هدياً ودلاً وقضاءً وخطبة برسول الله ﷺ من حين يخرج إلى بيته إلى أن يرجع – لا أدري ما يصنع في أهله – لعبد الله بن مسعود)[4]. ويقول عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه – عن نفسه: (والله الذي لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن نزلت، ولو أعلم أحداً أعلم منّي بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه)[5].

وتراوحت إقامة المعلم الرباني عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – في الكوفة ما بين السنة (١٧هـ) تقريباً إلى السنة (٣٢هـ) تقريباً زمن خلافة عثمان بن عفان – رضي الله عنه –، أي أنه مكث في الكوفة قرابة ١٥ سنة، وتخرج على يديه وبين ناظريه جيل من أغزر الناس علماً وفهماً بكتاب الله العزيز وأجودهم أداء له، حيث كان هو في الأساس إماماً في أداء القرآن الكريم وفهم معانيه وأحكامه، قال أبو مسعود – رضي الله عنه –: (لا والله، لا أعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك أحداً أعلم بكتاب الله من هذا القائم)[6].

لقد قام بجهد جبار وتاريخي في تخريج القراء والعلماء؛ أقرأهم القرآن، وعلّمهم أحكامه، ورباهم على اتّباعه. وقد أشار قيس بن مروان إلى مثابرة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في تعليم الناس القرآن الكريم، حيث أتى إلى عمر

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٤٨٦.
(٢) تذكرة الحفاظ ١/ ١٣.
(٣) سير أعلام النبلاء ١/ ٤٦٢.
(٤) سير أعلام النبلاء ١/ ٤٧٠.
(٥) أخرجه البخاري ٣/ ٣٤١ رقم ٥٠٠٢ باب القراء من أصحاب النبي.
(٦) سير أعلام النبلاء ١/ ٤٩٠.

بـــن الخطاب رضي اللـــه عنه، فقال: جئت يـــا أمير المؤمنين من الكوفة، وتركت بهـــا رجلاً يملي المصاحف عن ظهر قلب. فغضـــب عمر، وانتفخ حتى كاد يملأ ما بين شـــعبتي الرجل، فقـــال: ومن هو؟ ويحك! فقال: ابن مســـعود. فما زال يطفئ غضبه ويتسرى عنه حتى عاد إلى حاله، ثم قال: ويحك! والله ما أعلم بقي من الناس أحدٌ هو أحقّ بذلك منه[1].

كان تلاميذ مدرســـة المعلم القدوة عبد الله بن مســـعود رضي اللـــه عنه يتأثرون به ويقتدون به، في ســـمته وتعليمه، فهذا زيد بن وهب يقول: (رأيت بعيني عبد الله أثرين أسودين من البكاء)[2]. وكان علقمة بن قيس يُشَبّه بعبد الله بن مسعود رضي الله عنه[3]، بل قال ابن مســـعود عنه: (ما أقرأ شيئاً وما أعلم شيئاً إلا وعلقمة يقرؤه ويعلمه)[4].

كان عبـــد الله بن مســـعود رضي الله عنـــه يعلم تلاميذه أحكام الآيات وآدابها ويربّيهم عليها بتدرج، يقول الإمام المقرئ أبو عبد الرحمن الســـلمي – وهو ممن عرض القرآن على ابن مســـعود رضي الله عنه –: (أخذنا القـــرآن عن قوم أخبرونا أنهم كانوا إذا تعلموا عشـــر آيات لم يجاوزوهن إلى العشـــر الأُخـــر حتى يتعلموا ما فيهن، فكنا نتعلـــم القرآن والعمل به. وسيرث بعدنا قومٌ يشربونه شرب الماء لا يجاوز تراقيهم). قال إســـماعيل بن أبي خالد: (كان أبو عبدالرحمن السلمي يعلمنا القرآن خمس آيات خمس آيات)[5].

هاتان الروايتان تفيدان معنـــى إضافياً في إقراء القرآن وتعليمـــه، وهو تعليم التلاميذ أحـــكام الآيات وآدابها والتربية عليهـــا بتدرج بحيث لا ينتقل إلى غيرها من الآيات إلا بعد أن يرى منهم التأثر والاستيعاب والتطبيق.

لقد كان تعليم القرآن يقتضـــي فهم المراد من آياته، ومن خـــلال ذلك نقل التلاميـــذ كثيراً من مرويات التفســـير؛ عن مســـروق بن الأجدع قال: جاء رجل إلـــى عبد الله فقال: إني تركت في المســـجد رجلاً يفســـر القرآن برأيه، يقول في هذه الآية ﴿يَوْمَ تَأْتِي الـــسَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الدخـــان: ١٠] إلى آخرها: يغشـــاهم يوم القيامة دخان يأخذ بأنفاسهم حتى يصيبهم منه كهيئة الزكام! قال: فقال عبـــد الله: (من علم علماً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم. فإن من فقه الرجل أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم. إنما كان هذا لأن قريشاً لما استعصت على النبي ﷺ دعا عليهم بســـنين كســـني يوسف فأصابهم قحطٌ، وجهـــدوا حتى أكلوا العظام، وجعل الرجل ينظر إلى الســـماء فينظر ما بينه وبين الســـماء كهيئة الدخان من الجهد، فأنزل الله عزّ وجلّ ﴿فَارْتَقِـــبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَـــانٍ مُّبِينٍ ۝١٠ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الدخان: ١٠ – ١١]، فأتي رســـول الله ﷺ، فقيل: يا رســـول الله! استسقِ الله لمضر فإنهم قد هلكوا، قال: فدعا لهم، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّا كَاشِـــفُوا الْعَذَابِ﴾ [الدخان: ١٥]، فلمـــا أصابهم المـــرة الثانية عادوا، فنزلت ﴿يَـــوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦] يوم بدر[6].

كما حفـــظ تلاميذ عبد الله بن مســـعود رضي الله عنه الكثيـــر من وصايـــاه وتوجيهاتـــه التربوية، منهـــا: (إن هذا القرآن مأدبة الله، فمن اســـتطاع أن يتعلم منه شيئاً فليفعل، فإن أصفـــر البيوت من الخير الذي ليـــس فيه من كتاب الله شـــيء)، ومنها: (إنما هذه القلوب أوعية؛ فأشغلوها بالقرآن، ولا تشـــغلوها بغيره)، وكان يخوفهم من الذنوب ويبيّن خطرها على الاســـتفادة من القرآن، يقول: (إني لأحسب الرجل ينسى العلم كان تعلّمه للخطيئة يعملها)[7]. إلى غير ذلك من الكلمات النافعة والتوجيهات التربوية التي يتربى عليها شباب الأمة منذ ذلك الوقت، جيلاً بعد جيل، ونسأل الله الكريم أن ينفعنا بها.

وحين عزم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الرجوع إلى المدينـــة النبوية زمن خلافة عثمان بـــن عفان رضي الله عنه، جمع تلامذتـــه، فقال: (والله إني لأرجـــو أن يكون قد أصبح اليوم منكم مِن أفضل ما أصبح في أجناد المســـلمين من الدين والفقه والعلم بالقرآن. إن هذا القرآن نزل على حروف، والله إن كان الرجلان ليختصمان أشـــدّ ما اختصما في شيء قط، فإذا قال القارئ: هذا أقرأني، قال: أحسنت، وإذا قال الآخر، قال: كلاكما محسن، فأقرأنا: إن الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، والكـــذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار، واعتبـــروا ذلك بقول أحدكم لصاحبه: كذب وفجر، وبقوله إذا صدّقه: صدقت وبررت. إن هذا القرآن لا يختلف، يُستَشـــنّ ولا يَنْفَهُ لكثرة الردّ، فمن قرأهُ على حرف فلا يدعهُ رغبةً عنه، ومن قرأه على شـــيء من تلـــك الحروف التي علّم رســـول الله فلا يدعـــه رغبة عنه، فإنه مـــن يجحد بآية منه يجحد به كلّـــه، فإنما هو كقول أحدكم لصاحبه: اعجل، وحيّ

(١) سير أعلام النبلاء ١/ ٤٧٥.
(٢) سير أعلام النبلاء ١/ ٤٩٥.
(٣) سير أعلام النبلاء ١/ ٤٨٥.
(٤) تذكرة الحفاظ ١/ ٤٨.
(٥) سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٦٩، ٢٧٠.
(٦) مسند الإمام أحمد، تحقيق أحمد شاكر، ٥/ ٢١٧، رقم ٣٦١٣.
(٧) حلية الأولياء ١/ ١٣٠ – ١٣١.

هلا، والله لو أعلم رجـــلاً أعلم بما أنزل الله على محمد ﷺ منّـــي لطلبته، حتـــى أَزدادَ علمَه إلى علمي. إنه ســـيكون قومٌ يميتون الصلاة، فصلوا الصلاة لوقتها، واجعلوا صلاتكم معهم تطوعاً. وإن رســـول الله كان يعارَض بالقرآن في كل رمضان، وإني عرَضتُ في العام الـــذي قُبِض فيه مرتين، فأنبأني أني محسن، وقد قرأتُ من في رسول الله ﷺ سبعين سورة)[1]. ثم رحل إلى المدينة النبوية.

وبقي مسجد الكوفة عامراً بالقرّاء والحفظة وطلبة العلم، لهم دويّ بالقرآن. ذات مرة ســـمع الخليفة علي بن أبي طالب رضي الله عنه بهذا المسجد ضجة شديدة، فقال: (ما هؤلاء؟). قالوا: قوم يقرأون القرآن أو يتعلمون القرآن. فقال: (أما إنهم كانوا أحبّ الناس إلى رســـول الله ﷺ)[2]. وقد خلّف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه تركة عظيمة من أوعية العلم وحملة القـــرآن أفادت منهم الأمة الإســـلامية في كل الأمصار وعبر الأزمان، يأتي في مقدمتهم العشرات من الرجال الثقات، قال إبراهيم التيمي: (كان فينا ســـتون شـــيخاً من أصحاب عبد الله)[3]. وعلى رأســـهم ستة هم أبرز التلاميذ وأنجب الحفاظ يســـرد أســـماءهم إبراهيم حين قال: (كان أصحاب عبد الله الذين يُقرئون الناس القرآن ويعلمونهم الســـنة ويصدر الناس عن رأيهم، ســـتة: علقمة، والأسود، ومســـروق، وعَبِيدة، وأبو ميسرة عمرو بن شرحبيل، والحارث بن قيس)[4].

ما يمكن قراءته من هذه المدرسة العظمى:

أولاً: التدرج في التربية والتعليم

قال علقمة بن قيس: (قرأت القرآن في ســـنتين)[5]. وهو أكبر تلاميذ ابن مســـعود رضي الله عنـــه قدراً وفهماً وعلماً، وهذا يعني أن ابن مســـعود رضي الله عنه أخذ بالمنهج النبوي في تعليم القرآن (كنّا لا نتجاوز عشـــر آيات حتى.....)، الأمر الـــذي ورثه التلاميذ في تعليمهم لطلابهم، كما كان المقرئ أبو عبد الرحمن الســـلمي يفعل، حيـــث كان يعلّم الطلاب خمس آيات خمـــس آيات. لم يكن تحديد عـــدد الآيات مقصداً، بل الفكرة الكامنة في تحديد الآيات هي التدرج في حفظ القرآن والتربيـــة على معانيه وأحكامه وآدابه. لقد كانت تلك الأجيال على قدرٍ عالٍ من قوة الذاكرة وسرعة الحفظ، إلا أنّ المنهجية المتبعة هـــي التدرج في الحفظ بغـــرض التحقق من انعكاس تأثيره على سلوك وسمت الحافظ.

وكذلك كان التوجيه والإرشـــاد والموعظة، عن عبد الله بن مـــرداس قال: (كان عبد الله يخطبنـــا كل خمسٍ على رجليه، فنشتهي أن يزيد)[6]. يحبون أن يستمعوا إلى المزيد من حديثه الشيق.. الحديث الذي يرفرف بأرواحهم نحو الآخرة، لكنه لا يستعجل الغرس؛ لأنّ ذلك مضرٌ بالمتربي.

ثانياً: التلازم بين حفظ القرآن والتربية على أحكامه وآدابه

يقول أبو عبد الرحمن السلمي – وهو ممن عرض القرآن على ابن مســـعود رضي الله عنـــه –: (أخذنا القرآن عن قوم أخبرونـــا أنهم كانوا إذا تعلموا عشـــر آيات لم يجاوزوهن إلى العشر الأُخر حتى يتعلموا ما فيهن، فكنا نتعلم القرآن والعمل به. وسيرث بعدنا قومٌ يشربونه شرب الماء لا يجاوز تراقيهم).

هكذا كان هدي النبي ﷺ فـــي تعليمه القرآن لأصحابه، وهكذا كان أصحابه في تعليمهم القرآن لطلابهم: تعليم القرآن حفظـــاً وتجويداً وأداء وأحكاماً وآدابـــاً. ولم يكونوا بحال من الأحوال يستســـيغون أن يحفظ المرء كتاب الله ثم هو لا يعقل معانيـــه، أو لا يتأدب بآدابه، أو لا يعمل بأحكامه، لذلك أخبر عن قوم يشـــربونه شـــرب الماء لا يجاوز تراقيهم، إخباراً على ســـبيلِ الإنكار؛ أن يحفـــظ المرء القرآن حفظـــاً مجوداً، لكن القرآن لا يصل إلى قلبه وعقله ووجدانه.

إذن، لم يكن الحفظ المجرّد طريقة متبعة عند ابن مسعود رضـــي الله عنه، بل كان يقرنه ببيـــان معاني القرآن وأحكامه وآدابه.

قال مسروق: (كان عبد الله يقرأ علينا السورة، ثم يحدثنا فيها، ويفســـرها عامـــة النهـــار)[7]. إذن، التعليق على الآيات وشـــرحها والتربية عليها، وبيان مراد الله منها.. كلّ ذلك من مهام معلّم القرآن، فهذا ابن مســـعود رضي الله عنه مع كونه مشدّداً في الأداء متحرّياً في الضبط؛ فهو أيضاً لا يُغفل جانب

(١) مسند الإمام أحمد، تحقيق أحمد شاكر، ٥/ ٣٢٤، رقم ٣٨٤٥.
(٢) مجمع الزوائد ٧/ ١٦٢.
(٣) الطبقات الكبرى ٦/ ١٠.
(٤) سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٧.
(٥) معرفة القراء الكبار ١/ ٤٥.
(٦) سير أعلام النبلاء ١/ ٤٧٢.
(٧) تفسير الطبري ١/ ٣٦.

المعاني والأحكام.

وكان رضي الله عنه يبيّن الأخطاء حال وجود فهم خاطئ، يحدثنا عمرو بن شـــرحبيل أن ابن مسعود رضي الله عنه قال له: (يا أبا ميسرة! ما تقول في الخنس الجوار الكنس؟). قال: قلت: لا أعلمها إلا بقر الوحش. قال ابن مسعود: (وأنا لا أعلم فيها إلا ما قلت)[1]. وكما في رواية مســـروق الســـابقة حول هـــذه الآية ﴿يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ [الدخان: ١٠]، وهذا الأثر يدل على وجود منهجية لتفســـير القرآن الكريم، تعلّمها التلاميذ، لذلك جاء مسروق مستتكراً هذا النوع من التفسير، وهو التفســـير بالرأي، المخالف للتفسير الذي يسمعه من ابن مسعود رضي الله عنه.

وامتلأت كتب التفسير بأقوال ابن مسعود رضي الله عنه التي نقلها تلاميذه في مســـجد الكوفة وأصبحت عمدة يرجع إليها طلاب العلم، ومما اســـتقرّ عليه الأمر أن ابن مســـعود رضي الله عنه يعدّ في كبار مفسري الصحابة.

ثالثاً: الاعتناء بالطاقـات المتميزة والطلاب النجباء (الموهوبين)

كان مســـجد الكوفة يغصّ بالتلاميـــذ وطلبة القرآن، لكن كتب التراجم أفاضت بالحديث عن ســـتة منهم كانوا على قدرٍ عـــالٍ من التميـــز، إلى درجة أن قابوس بن أبي ظبيان ســـأل أباه قائلاً: لأي شـــيء كنت تأتي علقمة وتدع أصحاب النبي؟ فقال أبوه: أدركت ناســـاً من أصحاب النبي يســـألون علقمة ويستفتونه[2]. بل إن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: (ما أقرأ شيئاً ولا أعلمه إلا علقمة يقرؤه أو يعلمه)[3].

أما الستة النجباء الذين أصبحوا من كبار (أصحاب) عبد الله بن مســـعود رضي الله عنه، والذين أقرأوا الناس القرآن وعلموهم السنة وصدر الناس عن رأيهم، فهم: علقمة بن قيس، ومسروق بن الأجدع، والأسود بن يزيد، وعبيدة السلماني، وأبو ميســـرة عمرو بن شرحبيل، والحارث بن قيس. كما سبق ذكر ذلك.

الروايات تفيد بأن نخبة من تلاميذ عبد الله بن مســـعود رضـــي الله عنـــه، كانوا على قـــدرٍ عالٍ من الفهـــم والنجابة والحرص على الاســـتفادة، ومن ثَمّ زادت عنايته بهم، بتعليمهم وتربيتهـــم، حتى وصلوا إلى علوّ في الشـــأن، وتســـنموا قياد التعليم والإقراء.

رابعاً: التوجيه التربوي

لم يكن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مقرئاً فحسب، بـــل كان موجّهاً. وبعبارة أخرى قد تكون هـــي الأكثر صواباً: لم يكن المقرئون من أصحـــاب النبي ﷺ يفصلون بين الإقراء والتربية. كان ابن مســـعود رضي اللـــه عنه مربياً عجيباً، نقل عنه تلاميـــذه الكثير من التوجيهات التربويـــة التي ينتفع بها النـــاس إلى يومنا هذا، كقوله: (ينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بليله إذا الناس نائمون، وبنهـــاره إذا الناس يفطرون، وبحزنه إذا النـــاس يفرحون، وببكائه إذا النـــاس يضحكون، وبصمته إذا الناس يخلطون، وبخشـــوعه إذا الناس يختالون....). ومن توجيهاته أيضاً: (إذا ســـمعت الله يقول ﴿يَـــا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرعها ســـمعك، فإنه خيرٌ يأمر به، أو شر ينهى عنه)[4]. وكان يحرص على أن تقع توجيهاته الموقع الحسن، ويتخذ الإجراءات فـــي ذلك، مثل التفريق بين المواعظ بمـــدة زمنية طرداً للملل والسآمة.

خامساً: معايشة التلاميذ بغرض التربية

لم يكن معلم القرآن عبد الله بن مســـعود رضي الله عنه ليعلّم الطلاب وهو في معزل عن مخالطتهم ومعايشتهم.. كيف وقد تلقى هذا الهدي من رسول الله ﷺ.

تأمل دلالة هذا الأثر الذي رواه إبراهيم أن ابن مســـعود رضـــي الله عنه كنّى علقمة أبا شـــبل قبـــل أن يولد له. قال: فســـئل، فحدث علقمة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رســـول الله ﷺ كنّاه أبا عبد الرحمن قبـــل أن يولد له[5]. وروى إبراهيـــم أيضاً عن علقمة قال: (كنت رجلاً قد أعطاني الله حسن الصوت بالقرآن، وكان ابن مسعود يرسل إليّ، فأقرأ عليه، فإذا فرغت من قراءتي قال: زدنا فداك أبي وأمي، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن حسن الصوت زينة القرآن)[6].

لقد كان الإمام الرباني ابن مسعود رضي الله عنه يدرك أن التربية الإيمانية تقتضي المعايشة والمخالطة، لما لها من فاعلية

(١) الطبقات الكبرى ٦/١٠٦.
(٢) سير أعلام النبلاء ٤/٥٩.
(٣) سير أعلام النبلاء ٤/٥٨.
(٤) حلية الأولياء ١/١٣٠.
(٥) المستدرك للحاكم ٣/٣٥٤.
(٦) سير أعلام النبلاء ٤/٥٨.

في تعميق المعاني الإيمانية، وتمتد المعايشة إلى المشاركة في شؤون الحياة اليومية كالأكل والشرب، قال علقمة: أُتِيَ عبد الله بشراب، فقال: أعطِ علقمة، أعطِ مسروقاً، فكلهم قال: إني صائم. فقال ابن مسعود: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧][١].

ولهذا المعنى تأثر الطلاب كثيراً بشيخهم ابن مسعود رضي الله عنه، وظهر ذلك التأثير على سمتهم وسلوكهم. قال معمر لجلسائه: قوموا بنا إلى أشبه الناس بعبد الله هدياً ودلاً وسمتاً، فقاموا معه حتى جلسوا إلى علقمة[٢].

سادساً: إعداد القيادات

مكث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يعلّم القرآن في مسجد الكوفة قرابة ١٥ سنة. كان يدرك – كأي مربٍّ حاذق – أنه مهما طال به الزمان في هذه المهمة العظيمة؛ فإنه يوماً ما سيترك مكانه، بوفاة أو رحيل، فكان لزاماً أن يبني صفاً قيادياً يرث الرسالة من بعده، ويبلغها للأجيال القادمة.

ولقد كان من بين تلاميذ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه من اشتهروا بـ (الأصحاب)، وعلى رأسهم الستة الذين ذكرتهم سابقاً. قال العجلي: (كان عبيدة أحد أصحاب عبد الله بن مسعود الذين يقرؤون ويفتون)[٣].

وقال ابن المديني: (لم يكن أحد من الصحابة له أصحاب حفظوا عنه وقاموا بقوله في الفقه إلا ثلاثة: زيد بن ثابت وابن مسعود وابن عباس، وأعلم الناس بابن مسعود: علقمة والأسود وعبيدة والحارث)[٤]. وما ذكره ابن المديني إضافة إلى المرويات الأخرى يمكن أن يعطينا تصوّراً ذهنيّاً عن طبقات تلاميذ ابن مسعود رضي الله عنه التعليمية والتربوية، فمنها عموم التلاميذ، وهم يمثلون قاعدة الهرم، ويعلوهم الأصحاب، وهم أقل من العموم ممن حمل علم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ونقله إلى الأمة، ويعلوهم الخاصة من الأصحاب وهم الستة: علقمة والأسود ومسروق وعبيدة وأبو ميسرة والحارث. أما علقمة بن قيس فيتربع على رأس الهرم التعليمي، حيث قال عنه شيخه: ما أعلم شيئاً ولا أقرأ شيئاً إلا وعلقمة يعلمه أو يقرؤه.

قد يحتاج عبد الله بن مسعود رضي الله عنه إلى هذه القيادات لتساعده في مهمته التعليمية والتربوية، وأحياناً يمنحها الفرصة لتخوض غمار التجربة الجديدة وتتعلم منها، هذا ما يفسر كون عبيد بن نضلة أحد القراء النجباء؛ قرأ على ابن مسعود رضي الله عنه وقرأ أيضاً على علقمة[٥].

في موقف آخر، وفي الحج تحديداً، يحدثنا رباح بن أبي المثنى قائلاً: (كان عبد الله وعلقمة يصفان الناس صفين عند أبواب كندة فيقرئ عبد الله رجلاً ويقرئ علقمة رجلاً، فإذا فرغا تذاكرا أبواب المناسك وأبواب الحلال والحرام. فإذا رأيت علقمة فلا يضرك ألا ترى عبد الله، أشبه الناس به سمتاً وهدياً)[٦].

سابعاً: التقييم

تنقل المرويات ثناء عبد الله بن مسعود رضي الله عنه على أبرز تلاميذه: علقمة بن قيس.. هذا الثناء هو تعديل لعلقمة، وباللغة التربوية: تقييم.

وحين اجتمع بطلابه في ختام عمله المبارك قال رضي الله عنه لهم: (والله إني لأرجو أن يكون قد أصبح اليوم منكم مِن أفضل ما أصبح في أجناد المسلمين من الدين والفقه والعلم بالقرآن)[٧]. إن هذا الكلام يعدّ تقييماً لمن اجتمع بهم من تلاميذه، ولهذا عبّر عن شعوره بالارتياح لنتيجة جهده التعليمي خلال تلك المدّة الزمنية التي قضاها في مسجد الكوفة.

نستطيع القول بأن مسجد الكوفة الذي مكث فيه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ١٥ عاماً.. لم يقتصر الإقراء فيه على تسميع آيات القرآن وتجويدها، بل تعدى ذلك إلى تعليم أحكام القرآن والتربية على آدابه ومواعظه. وكان التعليم يسير وفق منهج وآليات. فرضي الله عنه وأرضاه، وجزاه عن أمة الإسلام خير الجزاء، وهنيئاً له الأجر الذي لا ينقطع عنه بعد موته إن شاء الله.

فيا معلّمي القرآن الكريم، في الحلقات والدور والمساجد.. دونكم منهج تعليم القرآن الكريم فاتبعوه.

(١) سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٧.
(٢) سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٥.
(٣) سير أعلام النبلاء ٤/ ٤١.
(٤) سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٥.
(٥) الطبقات الكبرى ٦/ ٢١١.
(٦) سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٥.
(٧) مسند الإمام أحمد، تحقيق أحمد شاكر، ٥/ ٣٢٤، رقم ٣٨٤٥.

أوراد

أهل السنة والجماعة

من القرآن الكريم وصحيح السنة والنبوية

قال شيخ الإسلام: (فالأدعية والأذكار النبوية هي أفضل ما يتحراه المتحري من الذكر والدعاء، وسالكها على سبيل أمان وسلامة، والفوائد والنتائج التي تحصل لا يعبر عنها لسان، ولا يحيط بها إنسان).

في هذا الكتاب..

الثناء • الصلاة على الحبيب • الاستغفار • السؤالات • الاستعاذات
تفريج الكرب والهم • الرقية الشرعية • أذكار الصباح والمساء

للتوزيع الخيري والمبيعات في المملكة العربية السعودية - اليمن - السودان
دار رسالة البيان للنشر والتوزيع - هاتف : ٤٥٤٦٨٦٨ - تحويلة ٥٠٢/٥٠٠ - جوال : ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
المنطقة الغربية : ٠٥٠٦٤٦١٠٥٧ - المنطقة الجنوبية : ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨ - القصيم : ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦
الشرقية : ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩ - مكة : ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠

الجاذبية الأخلاقية

أحمد عبد المجيد مكي(*)

قراءة في خُلُقِ النبيِّ وصَاحِبِه قَبْلَ البَعْثَة

استوقفني حَدَثَان مِنْ أحداث السيرة العطرة وجدت فيهما فوائد كثيرة وعِبراً جليلة، ولطالما سألت الله لي ولإخواني أَنْ يوفقنا للعمل بما اشتملا عليه.. ولأَنَّ الحَدَثَين وردا في كتب السنة الصحيحة فَلَنْ أسردهما بطولهما، وإِنَّمَا سأقف على محل الشاهد مِنْهُما.

الحَدَث الأول: حين جاء جبريل عَليه السَّلَامُ إلى النَّبِيِّ الأمين ﷺ في غار حراء وضمَّه إلى صدره وأمره بالقراءة، عاد النَّبِيُّ ﷺ بعدها إلى بيته مرتعداً يرجف فؤاده، وهو يقول لخديجة رضي الله عنها - بعد أَنْ قَصَّ عليها الخبر -: «لقد خَشِيتُ على نفسي». فقالت له تلك الكلمات الخالدات: «كَلَّا، أَبْشِرْ، فَوَاللَّه لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَداً؛ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتصدُق الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ[1]، وتكسب المعدوم[2]، وَتُقْرِي الضَّيْفَ[3]، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبَ الحق[4]».

(*) باحث دكتوراه في مقاصد الشريعة.

(١) تحمل الكل: أي: تنفق على الضعيف، واليتيم وذي العيال.

(٢) تكسب المعدوم: أي تعاون الفقير وتتبرع بالمال لمن عدمه.

(٣) تقري الضيف: أي تكرمه.

(٤) ما ينزل بالإنسان من حوادث ومصائب.

الحَدَث الثاني: حين خرج أبو بكر مُهَاجِراً نحو أرض الحبشة ليلحق بمن سبقه إليها من المسلمين، لقيه رجل من المشركين يقال له ابْنُ الدَّغِنَة فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَخْرَجَنِي قَوْمِي. قَالَ ابْنُ الدَّغِنَة: إِنَّ مِثْلَكَ لاَ يَخْرُجُ وَلاَ يُخْرَجُ، فَإِنَّكَ تَكْسِبُ المَعْدُومَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ، وَأَنَا لَكَ جَارٌ (أَيْ مُجِيرٌ أمنع من يؤذيك)، فَارْجِعْ فَاعْبُدْ رَبَّكَ بِبِلاَدِكَ. فَارْتَحَلَ ابْنُ الدَّغِنَة، فَرَجَعَ مَعَ أَبِي بَكْرٍ، فَطَافَ فِي أَشْرَافِ كُفَّارِ قُرَيْشٍ، فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لاَ يَخْرُجُ مِثْلُهُ وَلاَ يُخْرَجُ، أَتُخْرِجُونَ رَجُلاً يُكْسِبُ المَعْدُومَ، وَيَصِلُ الرَّحِمَ، وَيَحْمِلُ الكَلَّ، وَيَقْرِي الضَّيْفَ، وَيُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ. فَأَنْفَذَتْ قُرَيْشٌ جِوَارَ ابْنِ الدَّغِنَة، وَآمَنُوا أَبَا بَكْرٍ... إلخ.

إذا تأملنا هَذَيْنِ الوصفين وجدنا العديد من الفوائد التربوية والنفسية والاجتماعية والخُلُقية التي ترتقي بالإنسان إلى أقصى درجات الكمال البشري الممكن والمعبَّر به في وصف أبي بكر بقوله: «لاَ يَخْرُجُ مِثْلُهُ وَلاَ يُخْرَجُ»، كما تمنعه تلك الفوائد من السقوط الاجتماعي والنفسي المعبَّر عنه في كلام خديجة - رضي الله عنها - بالخزي، والخِزْي كما عرفه العلماء هو شُعور مؤلم يسبِّبه الإحساس بالذنب أو الإحراج أو عدم الأهميَّة أو العار.. وسأكتفي بالإشارة إلى بعض الفوائد الخُلُقية، مُرْجِئاً الحديث عن الفوائد التربوية والنفسية لمناسبة أخرى، فأقول مُسْتَعِيناً بِاللَّه:

- الجاذبية الأرضيّة هي القوَّة التي ينجذب بها جسم ما نحو مركز الأرض دون اتِّصال بينهما، وعكسها انعدام الوزن، فهو الحالة التي يخفّ بها الإحساسُ بالوزن نظراً لانعدام الجاذبيّة. ولا تقتصر الجاذبية وانعدام الوزن على الأشياء المحسوسة والملموسة فقط، فهناك الجاذبية الأخلاقية والتي تعني القوَّة التي ينجذب بها شخص ما أو جماعة نحو سلوك حسن بِإِرَادَةٍ حرة دون تأثير مادي مِنْ صاحب السلوك، كما أَنَّ انعدام الوزن في عالم الأخلاق يعني انعدام تأثير الشخص في الوسط المحيط نظراً لانعدام جاذبيّته.

وبالتأمل في الحدثين المذكورين نجد أَنَّهما يؤسسان لقانون الجاذبية الأخلاقية، ويؤكدان أَنَّ لهذه الجاذبية مَعَالِمَ ومنارات ظاهرة واضحة كمَعَالِم الْأَرْضِ وَالْبِنَاءِ، وعلى كل مَنْ أراد أَنْ يكون جذاباً أَنْ يقصد هذه المعالم ويسعى إليها، أذكر منها الثلاثة التالية:

المَعْلَمُ الأول: السيرة الحسنة:

من الواضح أَنَّ الأوصاف التي وَصَفَ بها الرجلُ أبا بكر هي عين الأوصاف التي وصفت بها السيدة خديجة رسول الله، وأَنَّ هناك تطابقاً تاماً بين الوصفين، فعلى أي شيء يدل هذا التوافق؟

إِنَّهُ مِنْ جِهَة يدل على ائتلاف الروحين - روح الصادق والصدّيق -، كما يدل على عظيم فضل أبي بكر واتصافه بالصفات البالغة في أنواع الكمال؛ ومِنْ جِهَة أخرى يدل على ضرورة توافر هذه الأوصاف كلها أو جلها في حياة الْقُدْوَات والدعاة ومَنْ أَرَادَ قيادة الناس، بل وفي حياة أفراد المجتمع كافة من جهة أخرى، كما أَنَّك إذا أمعنت النظر في هذه الأوصاف وَجَدْتَهَا تشمل أصول مكارم الأخلاق؛ لأنّ الإحسان إِمَّا إلى الأقارب أو إلى الأجانب، وإِمَّا بالبدن أو بالمال، وإِمَّا على مَنْ يستقل بأمره أو مَنْ لا يستقل، وذلك كله مجموع في الوصفين، مِمَّا جعل النبي ﷺ وصاحبه قبل البعثة عَلَمين في محيطهما الاجتماعي.

وقد عاب الله على أهل قريش حين لم يستجيبوا لدعوة رسوله، وتساءل سبحانه - تَعَجّباً واسْتِنْكاراً -: لماذا لم يستجيبوا لمحمد؟! هَلْ لأنّهم لا يعرفونه؟! لذا فهم في حاجة إلى وقت حتى يسألوا عَنْ أصله وفصله وعَنْ خلقه وسلوكه؟! لا، ليس الأمر كذلك، فهذا احتمال مستبعد تماماً؛ لأنّهم يعرفونه معرفة تامة - صغيرهم وكبيرهم -، يعرفون شخصه ويعرفون نسبه، ويعرفون - أكثر مِنْ أي أحد - صفاته، يعرفون مِنْه كل خلق جميل، ويعرفون صدقه وأمانته حتى كانوا يسمونه قبل البعثة "الأمين"، فَلِمَ لَا يصدقونه حين جاءهم بالحق العظيم والصدق المبين؟.. لذلك استنكر الله عليهم هذا السلوك العجيب في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩].

فالسيرة الطيبة والأفعال الحميدة والأخلاق الزاكية تجعل صاحبها قدوة طيبة وأسوة حسنة لغيره، ويكون بها كالكتاب المفتوح يقرأ فيه الناس المعاني الجميلة والنبيلة فيقبلون عليها وينجذبون إليها.. ومعلوم أنّ التأثر بالأفعال والسلوك أبلغ وأكثر مِنْ التأثر بالكلام فقط، ولم ينسَ الحكماء أَنْ يُضَمِّنوا هذا المعنى في أقوالهم، فقالوا: «عَمَل رَجُلٍ في أَلْفِ رَجُلٍ خَيْرٌ من كلام أَلْفِ رَجُلٍ في رَجُلٍ». وفي التنزيل الحميد موقف يختصر لنا المسافة ويعطينا المعنى في ألطف إشارة، حين قال الْفَتَيَانِ ليوسف - عليه السلام -: «نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين»، وكان هذا الطلب مِنْهما بعد أَنْ أُعْجِبَا بصلاحه وسلوكه مع أهل السجن وحُسن معاملته لهم. ومِنْ وجوه الإحسان التي كان يمارسها - على ما

يذكر الإمام القرطبي -: «أَنَّهُ كَانَ يَعُودُ الْمَرْضَى وَيُدَاوِيهِمْ، فَكَانَ إِذَا مَرِضَ الرَّجُلُ مِنْ أَهْلِ السِّجْنِ قَامَ بِهِ، وَإِذَا ضَاقَ وَسَّعَ لَهُ، وَإِذَا احْتَاجَ جَمَعَ لَهُ»، ويضيف ابن كثير «وَكَانَ يُوسُفُ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَدِ اشْتُهِرَ فِي السِّجْنِ بِالْجُودِ وَالْأَمَانَةِ وَصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَحُسْنِ السَّمْتِ وَكَثْرَةِ الْعِبَادَةِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ، وَمَعْرِفَةِ التَّعْبِيرِ وَالْإِحْسَانِ إِلَى أهل السجن وعيادة مَرْضَاهُمْ وَالْقِيَامِ بِحُقُوقِهِمْ. وَلَمَّا دَخَلَ هَذَانِ الْفَتَيَانِ إِلَى السِّجْنِ، تَآلَفَا بِهِ وَأَحَبَّاهُ حُبّاً شَدِيداً، وَقَالَا لَهُ: وَاللَّهِ لَقَدْ أَحْبَبْنَاكَ حُبّاً زَائِداً».

المعلم الثاني: الإيجابية والتحرك لمواجهة المشكلات اليومية الحياتية:

مِنْ أهم الأمور التي تُعِينُ على جذب الآخرين نحو شَخْصٍ ما: أنْ يكون عملياً، يَقِلُّ الكلام لديه، في حين تكْثُرُ الأساليب العملية التي تعالج المشكلات المعاصرة المحيطة به على نحو فعال وحاسم، يظهر ذلك بوضوح مِنْ الوَصْفين المشار إليهما، فخديجة - رضي الله عنها - لَمْ تَقُلْ للنبي: وماذا تخشى وقد أَلْقَيْت فيهم خُطْبَةً بَلِيغَةً جَزِلَةً. والذي وصف أبا بكر لم يقل له: لماذا يخرجك قومك وأنت من أشعر (أنسب أو أعرف العرب بشعرها وأنسابها) العرب وأفصحها لساناً؟ إنَّما ذَكَرَا صِفَاتٍ عملية واقعية. ولا يخفى أنَّ ديننا هو دين العمل وأنَّ أكثر الأمور اقتراناً وتساوقاً في القرآن الكريم: الإيمان والعمل الصالح، وكان مِمَّا نهت عنه الشريعة وكرهته وحذرت مِنْه: "القيل والقال"، أي فضول القَوْل والاشتغال بما لا يعني مِنْ أقاويل الناس.

ولا ريب في أَنَّنا سنرتكب خطأ فادحاً حين نظن أَنَّنا نستطيع جذب الآخرين إلى أخلاقنا بمجرد أَنْ نتحدث إليهم عَبْر مكبرات الصوت ونحن قابعون في أبراجنا العاجية، دون أَنْ نوجد حُلُولاً - أو نشارك في إيجاد حُلُول - لمشكلاتهم اليومية الحياتية المختلفة - مثل الفقر والجريمة والأُمِّيَّة والمرض والبطالة -، وهذا يقتضي الحرص على المخالطة التي لا بُدَّ منها، بل إنَّ هذا الواجب أصبح أشد تَحَتُّماً في زماننا مِنْ أيِّ زمان مضى بعد أَنْ اتسع العمران وضاقت الصدور ونَمَتْ مساحة الشخصي والذاتي على حساب المجتمعي والعام، فخدمة الإسلام لا تكون مِنْ خلال مديحه ولا مِنْ خلال الخطب الرنانة حول إنجازاته، وإنَّما مِنْ خلال الارتقاء بالواقع وتحسين أوضاع أفراد المجتمع.. وقد عاب القرآن الكريم في بداية الدعوة على أهل مكة أَنَّهم كانوا لا يهتمون بما يمكن أَنْ نُسميه بمصطلح العصر المشترك الإنساني، فهاجمهم في عقر دارهم في قوله تعالى: «كَلَّا. بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ. وَلا تَحَاضُّونَ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ»، فهم لا يكرمون اليتيم الصغير الذي فقد أباه واحتاج إلى مَنْ يُجْبِرُ خاطره ويُحْسِنُ إليه، كما أَنَّهم لا يتواصون على إطعام المحاويج مِن المساكين والفقراء؛ ما يوحي بضرورة توجيه الأنظار إلى الواجب الاجتماعي وإلى العمل العام.

المعلم الثالث: التصوّر الصحيح لعلاقة الإنسان بالإنسان:

نحن لا نعلم على وجه التحديد مَنْ هم الذين كانوا ينالون هذه الألوان مِنْ البر والإحسان، حيث لم يُشِرْ أي من النصّين مِنْ قريب أو بعيد إليهم، ولم يتكلّف أحد من الشراح والمفسرين تعيينهم أو تحديد أسماء بعضهم، فليس في ذلك فائدة تُذْكَر، والشيء المؤكد أَنَّهم كانوا ممن يعيشون مع النبي ﷺ وصاحبه في نفس الحيز المكاني، وقد حرص النبي وصاحبه كل الحرص على إحسان المعاملة معهم ومشاركتهم شعورهم، وهذا يعني أَنَّ مستقبل البشرية سيظل مَرْهُوناً بأمرين أساسيين: حُسْنُ علاقتها بالله جل وعلا، وحُسْنُ العلاقة بين الإنسان والإنسان أيّاً كانت العقائد والتوجهات.

فالله جلّ وعلا بقدرته وحكمته لم يخلق شخصين - منذ نشأة الحياة وإلى أَنْ تقوم الساعة - متشابهين في الشكل والمعنى أو المظهر والجوهر، بل حتى في أطراف الأصابع التي هي مِنْ عظيم قدرته، يشير إلى ذلك قوله تعالى: «بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ»، ومِنْ وجوه التفسير فيها: نحن قادرون على تسوية تلك الخطوط الدقيقة في الأصابع والتي تختلف بين إنسان وإنسان اختلاف الوجوه والأصوات واللهجات، مِمَّا يجعل الإنسان في نهاية المطاف شخصية مستقلة تتولّد عند اجتماعها واختلاطها بغيرها ألوانٌ مِن الاختلاف يستحيل القضاء عليها قَضَاءً تاماً، والمطلوب أَنْ يتجاوز بنو البشر - ولو في المحيط الجغرافي الواحد على الأقل - هذه الاختلافات حتى يتحقق المقصد من الحياة، وهو العمارة والعبادة. ومِنْ عجيب ما استنبطه العلماء من الوصفين المشار إليهما: أَنَّ مَنْ كانت فيه منفعة متعدية لا يُمَكَّن مِنْ الانتقال عن البلد الذي هو فيه إلى غيره بغير ضرورة راجحة. وقد صدقوا، فَهَؤُلَاءِ للناس كالجبال الرواسي للأرض.

اللهم إنّا نسألك إيماناً في حُسْن خُلُق، وصَلَاحاً يَتْبَعُهُ فلاح.. آمين.

سلسلة رحلة الأيام

د. إيهاب عويص

متوفرة في مكتبة التدمرية
فرع الرياض - بريدة

ملحمة روائية جمع فيها المؤلف عناصر
التشويق والإثارة والحقيقة العلمية

التوزيع والنشر

مؤسسة دار رسالة البيان للنشر والتوزيع

الرياض: - هاتف: ٤٥٤٦٨٦٨
تحويلة: ٥٠٠ و ٥٠٢ فاكس:
٤٥٣٢١٢١
التوزيع والمبيعات:
٠٥٠٤٤٧٨٩٣٢ - ٠٥٠٣٤٠٩٨١٦ -
٠٥٠٣٨٩٦٣٦٥ - ٠٥٠٦٤٦١٠٦٥
مكة وجدة والمدينة : ٠٥٠٧٢٦٦١٢٠
المنطقة الجنوبية: ٠٥٠٦٤٦١٠٥٨
المنطقة الشرقية: ٠٥٠٦٢٩٢٦٨٩
منطقة القصيم: ٠٥٠٢٢٢٠٦١٦

روايه
Rewayah

دار رواية للنشر
لندن
104 Queensway
London W2 2RR
UK
E-Mail: info@rewayah.net
www. rewayah.net

[نص شعري]

في نُصرة «أبو الطيب» السريري للرسول ﷺ

■ عمر البخاري

مقدمة:

العلامة الأصولي المجدد أبو الطيب مولود السريري[1]، أمازيغي انتصر لرسول الله ﷺ، فأكد أن الأمازيغ الأقحاح براء من أحمد عصيد[2] ومن تجرئه على نبينا محمد ﷺ، وقال إنه لا يمثل إلا نفسه؛ إذ إنهم أكثر الناس تيمّناً باسم محمد وأحمد، وهم أكثر الناس تشبّثاً بالدين وباللغة العربية التي هي لغة القرآن، وأكثر النحاة المغاربة هم أمازيغ.

تعليقاً على رد العلامة السريري قلت بلغة الشين:

لله درُّ فقيهنا مولود ... ذي العلم والتأصيل والتقعيد
قد قام يعلن دعوةً ميمونة ... للحق والإيمان والترشيد
قد قام يعلنها بكل صراحة ... في وجه من عملوا لأجل يهود
في وجه من لتفرقٍ وتشتت ... للمسلمين يقوم بالتمهيد
وعداوة للضاد يذكر أنه ... متميزغ حاشاه ذو تبليد
فيذود عن كل الفواحش موقناً ... من غَرْبِه بالنصر والتأييد
فيخصهم من دون خلاق الورى ... بعبادة وتنسك وسجود
فأجابه الشيخ الغضنفر قائلاً: ... لسنا لغير إلهنا بعبيد
إنّا أمازيغ نناصر ديننا ... وبنا لعمرك باء بالتوطيد
منا ابن ياسين كثير تنسّك ... وكذلك المهدي في التوحيد
منا كذلك يوسف بطل الوغى ... قد كان في زلّاقة كعميد
فاسأل دفاتر خُطَّ فيها مجدنا ... تخبرك عما قلت بالتأكيد
تخبرك عما قد بنى أجدادنا ... من مجد عز خالد وتليد
واعرج على سوس ويمّم صالحاً ... والتامري ترى أصيل الجود
لترى أناساً للديانة جندوا ... ولضادنا انتصروا بلا ترديد
فالضاد لغة المسلمين جميعهم ... ليست على العربان ذات جمود
أَوَغَرَّ مثلك أن سكتنا عنهم ... أملاً بجنحهم إلى الترشيد؟
لكن فاسقهم أبى أن يرعوي ... فأتيت أردعه هنا بقصيدي
فاخسأ فإنك مارق متفسخ ... فلفكر مثلك مفعم بصديد
قبحاً لمثلك قد سبقت لمثلها ... لم تأتِ فيها يا فتى بجديد
اخسأ فإن نبينا قد خصه ... رب البرايا الله بالتمجيد
والدين دين الله دوماً في الورى ... قد باء عند الله بالتخليد

ملاحظة: رد العلامة الأصولي أبو الطيب مولود السريري على هذا الرابط:

http://www.youtube.com/watch?v=YYp8_WRzoGM

(١) http://www.youtube.com/watch?v=r3HDlBlTZ6g.

(٢) ناشط أمازيغي ادَّعى أن رسائل المصطفى صلى الله عليه وسلم رسائل تهديدية إرهابية يجب أن تزال من المقررات الدراسية، ويدَّعي دفاعه عن الأمازيغ ويزعم أنه المتكلم باسمهم، ويثير البلبلة بين العرب والأمازيغ، حتى قال يوماً: العرب دخلوا غزاة وسيخرجون كما دخلوا: http://www.youtube.com/watch?v=qgJiRgd9FIM.

[المسلمون.. والعالم]

- سورية.. الكيان الجمهوري بين سايكس-بيكو وكيري-لافروف
  د. بشير زين العابدين
- مصر.. هل تصبح نموذجاً لـ «الدولة المُشاع»؟
  أحمد فهمي
- مكاسب الصهاينة من استئناف المفاوضات
  د. صالح النعامي
- تحديات السياسة الخارجية التركية
  علي حسين باكير
- جولة كيري واستئناف المفاوضات.. قراءة تحليلية
  أحمد دلول
- تونس وهواجس الانقلاب العسكري في مصر
  عبد الرحيم بلشقار بنعلي
- الجيش الصهيوني.. العقيدة القتالية وتحديات المستقبل
  أحمد أبو دقة

سورية.. الكيان الجمهوري

بين سايكس-بيكو وكيري-لافروف

■ د. بشير زين العابدين(*)
zein73@hotmail.com

(*) باحث سوري.

خرائط تُرسم

في شهر مايو ١٩١٦ أبرم وزير الخارجية الفرنسي فرانسوا جورج بيكو اتفاقاً سرياً مع نظيره البريطاني مارك سايكس لتحديد مناطق نفوذ دولتيهما في المنطقة العربية، وتم تداول بنود هذه الاتفاقية في مراسلات بين وزارات خارجية فرنسا وبريطانيا وروسيا القيصرية في الفترة: نوفمبر ١٩١٥ – مايو ١٩١٦، ونصت المعاهدة في صيغتها النهائية على منح فرنسا كلاً من: الموصل وسورية ولبنان، ومنح بريطانيا جنوب بلاد الشام وصولاً إلى بغداد والبصرة شرقاً.

وقد بقيت هذه الترتيبات طي الكتمان حتى نهاية عام ١٩١٧ عندما كشف زعماء الثورة البلشفية عنها، ما سبب إحراجاً كبيراً للندن وباريس.

لكن ذلك لم يوقف نشاط الدول الغربية المحموم لإعادة رسم خريطة المنطقة وفق ما يتناسب مع مصالحها؛ ففي نوفمبر ١٩١٧ أطلق وزير الخارجية البريطاني آرثر بلفور وعده الشهير بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين، وفي سنة ١٩٢٠ تم توقيع معاهدة «سيفر» التي قسَّمت منطقة الهلال الخصيب وفق أطماع القوى الأوروبية، وأبرمت في السنة نفسها معاهدة «سان ريمون» التي نصت على وضع سورية والعراق تحت الانتداب الفرنسي والبريطاني تباعاً.

ورغم وقوفه إلى جانب الحلفاء في الحرب العالمية الأولى، كان الأمير فيصل بن الحسين الخاسر الأكبر بعد أن حطت المعركة أوزارها، فلم يحصل من غنائم المعركة إلا على أنقاض مملكة أعلن عنها في دمشق في شهر مارس ١٩٢٠، وانهارت إثر زحف القوات الفرنسية على المدينة من جهة ميسلون في شهر يوليو من العام نفسه، لتبدأ مرحلة الانتداب الفرنسي الذي حظي بالشرعية الدولية إثر صدور قرار عصبة الأمم منح فرنسا حق الانتداب على سورية ولبنان.

وفي أتون حالة الفوضى التي انتابت الجمهوريات العربية ابتداء من عام ٢٠١١، عاد الولع الغربي بخريطة المنطقة؛ إذ بدأت تظهر رسومات جديدة وخرائط مستحدثة لإعادة تقسيم المنطقة العربية وفق مصالح القوى الدولية المتنافسة.

ففي محاضرة بمدرسة «جيرالد فورد للسياسة العامة»، طرح عراب السياسة الخارجية الأمريكية هنري كيسنجر فكرة تقسيم سورية على أسس إثنية وطائفية، قائلاً: «هنالك ثلاث نتائج ممكنة: انتصار الأسد، أو انتصار السنّة، أو نتيجة تنطوي على قبول مختلف القوميات بالتعايش معاً، لكن في مناطق مستقلة ذاتياً على نحو أو آخر، بحيث لا تقمع بعضها البعض، وهذه هي النتيجة التي أفضّل رؤيتها تتحقق».

وأضاف كيسنجر: «تصور الصحافة الأمريكية الحرب في سورية وكأنها نزاع بين الديمقراطية والدكتاتورية، حيث يقتل الدكتاتور شعبه ومن واجبنا معاقبته، لكنّ الحال في مجملها نزاع إثني وطائفي، ويتوجب عليّ القول إننا أسأنا فهمها منذ البداية»!

والحقيقة هي أن رؤية كيسنجر لحل الأزمة السورية عبر تقسيم الكيان الجمهوري على أسس إثنية وطائفية، لا تنبع من محض هواجس ذاتية لدى وزير الخارجية الأمريكي الأسبق؛ بل تأتي ضمن مراجعات تجريها مراكز الفكر الغربية وبعض الجهات الرسمية التي بدأت تدعو علناً إلى إعادة فرز القوى السياسية وفق سياسة تفتيتية تحقق التوازن بين فصائل الثورة والنظام.

فقد رأى الباحث في جامعة هارفرد «روجر أوين» (مايو ٢٠١٣)، أن التسوية الغربية للمنطقة العربية عقب الحرب العالمية الأولى أنتجت دولاً مصطنعة لا يزال تحقيق الاستقرار فيها متعذراً دون حكم عسكري استبدادي، ما يدفع بالمجتمع الدولي للبحث عن ترتيبات جديدة تهدف إلى تحقيق الاستقرار عبر إعادة تقسيم المنطقة وفق حدود جديدة تحظى باعتراف عالمي كما وقع في السودان، أو من خلال تطبيق مفهوم «التجزئة ضمن الحدود» كما هو الحال في العراق. ويرى الكثيرون أن السيناريو الأخير هو الأفضل بالنسبة للحالة السورية؛ إذ إن البديل قد يتمثل في نشوء دولة فاشلة يمكن أن تؤثر سلباً على جيرانها.

وفي دراسة موازية أشار «أرنولد ألرت» (مايو ٢٠١٣)

إلـــى ظهور عوامل التحلل على خريطـــة المنطقة العربية بعد مرور نحو قرن ســـاد فيه الحكم الاســـتعماري ثم العسكري الشـــمولي. ورأى ألرت أن الصورة الأنســـب لضمان استقرار الكيان الجمهوري في سورية تكمن في تأسيس نظام «ترويكا» تتوزع السلطة فيه بين السنة والأكراد والعلويين، مشدداً على ضرورة وضـــع المصالح الأمريكية على قمة الحســـابات في ترتيبات المرحلة القادمة للبلاد.

وعلى نهج ســـابقيه نشر «غبريال شـــينمان» بحثاً (يوليو ٢٠١٣) أشـــار فيه إلى أن الشـــرق الأوسط يدفع ثمن أخطاء الدول الغربية التي رســـمت خريطة المنطقة في مطلع القرن العشـــرين، مؤكداً أن حـــل الأزمة الســـورية يكمن في إعادة رسم خريطة الجمهورية فيما يتناسب مع طموحات الأقليات الكرديـــة والمســـيحية والدرزية والعلوية، مستشـــهداً بمبادئ ولســـون الأربعة عشـــر التي أقرت حق الشـــعوب في تقرير مصيرها خلال مفاوضات السلام التي أعقبت الحرب العالمية الأولى.

وتنســـجم هذه الرؤية مع المقال الذي نشره رئيس تحرير صحيفة هآرتز العبرية «ألوف بن» (يوليو ٢٠١٣)، والذي أكد فيه ضرورة أن تســـفر تطورات المنطقـــة عن صياغة خريطة سياســـية جديدة تحترم حقوق الشعوب في تقرير مصيرها، وذلك عبر تأســـيس كيانات سياسية جديدة، وهو الأمر الذي سيكسر عزلة إســـرائيل ويتيح لها مجال المناورة ويعزز فرص تواصلها مع شعوب المنطقة.

ويمكن سوق عدد كبير من المشاريع التفتيتية، ونماذج من الخرائط التي نشرتها معاهد الفكر الغربية في غضون الأشهر الثلاثة الماضية، كحلول للأزمة السورية وفق مفهوم «التجزئة ضمن الحدود»، ولعل أبرزها خريطة «معهد دراسات الحرب» (مايو ٢٠١٣) التي تحدثت عن تقســـيم الكيان الجمهوري إلى ثلاثة أقســـام: رقعة شمالية شرقية يســـيطر عليها الأكراد، وأخرى وســـط وشمال غربي البلاد تســـيطر عليها المعارضة في حلب، وذلك مقابل الاعتراف الدولي بسيطرة النظام على دمشـــق وحمص واللاذقية وطرطوس بالتفاهم مع موســـكو وطهران.

كما نشر «مركز ويلسون» (أغسطس ٢٠١٣) دراسة أخرى ضمَّنها خريطة تقترح فض الاشـــتباك بين المعارضة والنظام على طول الخط الســـريع بين دمشـــق وحلب، بحيث تصبح دمشق وحمص وحماه ومحافظات الساحل تحت حكم النظام، في حين تخضع القطاعات الشمالية والشرقية للمعارضة، مع ضرورة إنشاء جيب جنوبي يشمل محافظات: الجولان وحوران وجبل العرب لحماية الحدود مع الأردن و«إسرائيل»، وتمثل تل أبيب القوة الدافعة لمثل هذا الطرح؛ إذ إنها تفضّل بقاء النظام ضعيفـــاً على تخومها بدلاً من ظهـــور جار جديد تهيمن عليه النزعة الدينية التي تهدد أمن «إسرائيل».

ويجدر التنبيه إلى أن الفقرات السابقة استعرضت بعض ما نشر في الأروقة الغربية من دعوات لمراجعة خريطة المنطقة العربية في الأشهر الثلاثة المنصرمة، أما فيما يخص المشاريع الغربية التي نشرت قبل ذلك؛ فيمكن إفراد بحث مطول حول المشـــاريع التي تم نشـــرها في غضون العقد الماضي لتفكيك الـــدول العربية وإعادة تقســـيم خريطة المنطقة على أســـس إثنيـــة وطائفية؛ من أبرزها: مقترحات القيادي في أوســـاط المحافظين الجدد وليام كريســـتول (يونيو ٢٠٠٢)، والمشـــروع الذي نشـــره الباحث بمؤسســـة «راند» لوران موريس (يوليو ٢٠٠٢) حول إعادة رســـم خريطة المنطقة، وتقرير مؤســـس معهد «هدسون» للدراسات الاستراتيجية ماكس سنجر الذي قدمه لوزارة الدفاع الأمريكية (أغســـطس ٢٠٠٢)، ومشروع الرئيس الفخري لمجلس العلاقات الخارجية الأمريكي ليسلي غليـــب حول: «حل الدول الثلاث» (مارس ٢٠٠٣) والذي تبنّته لجنة بيكر آنذاك، ودراســـة غاري هلبرت (أبريل ٢٠٠٦) التي نشـــرها معهد «غلوبال ريســـيرتش» الكندي حول المخططات الغربية لتقســـيم منطقة الشرق الأوســـط على أسس عرقية وطائفية، والتقرير الذي نشـــره مركز «ستراتفور» للدراسات الجيوسياســـية حول خطط الإدارة الأمريكية لمراجعة خريطة المنطقة، مروراً بالبحث الذي نشـــرته مجلة القوات المسلحة الأمريكية لنائب رئيس هيئة الأركان الأمريكي الأســـبق رالف بيترز (يوليو ٢٠٠٦) والذي دعا فيه إلى إعادة رســـم خريطة الشرق الأوسط ما أدى إلى احتجاج رئيس هيئة الأركان التركي لـــدى نظيره الأمريكي من التجاوز الخطير المتمثل في الدعوة إلى إنشـــاء دولة كردية على حساب تركيا. وهناك أمثلة كثيرة يصعب سردها في ورقة موجزة تعالج مقترحات المؤسسات

«كيري-لافروف» ووهم إنشاء دولة علوية في الساحل السوري

وفي موازاة المشاريع والخرائط التي عكفت معاهد الغرب على إعدادها؛ بذلت الدبلوماسية الأمريكية في الأشهر الثلاثة الماضية جهوداً مضنية للتفاهم مع روسيا على ترتيبات الوضع النهائي في سورية؛ ففي اللقاء الذي جمع كيري ولافروف في موسكو (٧ مايو ٢٠١٣) تم الاتفاق على مجموعة من النقاط المهمة التي تضمنت: التأكيد على حل الأزمة من خلال الوسائل الدبلوماسية، والعمل على منع انتشار الصراع خارج حدود القطر السوري، إضافة إلى إقرار واشنطن باستراتيجية موسكو في القضاء على «الجماعات المتطرفة» بسورية، حيث أكد كيري أنه يتفق مع رؤية نظيره الروسي لافروف في مواجهة هذه الجماعات، لكن المشكلة الكبيرة في هذه التوافقات هي أن مفهوم «الجماعات المتطرفة» لا يقتصر لدى الوزيرين على الكتائب التي تُحسب على تنظيم القاعدة، بل يمتد ليشمل كتائب أخرى «معتدلة» تشترط تل أبيب تفكيكها قبل الشروع في أي مشروع سياسي لحل الأزمة في سورية.

وإثر ذلك اللقاء عقد الرئيس الروسي فلاديمير بوتين اجتماعاً مع رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو أكد فيه أن روسيا معنية بتدمير البنى التحتية للجماعات المسلحة التي تمثل خطورة على مصالح كل من موسكو وتل أبيب والدول الغربية على حد سواء.

ثم دار الحديث في الاجتماع - الذي حضره رئيس الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية (Aviv Kochavi) وقائد القوات الروسية الخاصة (Mikhail Fradkov) - حول تفاصيل عمليات استنزاف «الجماعات المتطرفة». وتشير المصادر إلى أن بوتين أكد لضيفه أنه قد أحاط وزير الخارجية الأمريكي ورئيس الوزراء البريطاني علماً بأن الهدف من العمليات العسكرية التي يشنها النظام السوري في حمص هو القضاء على عدو مشترك، وأنهما كانا متفهمين لضرورة حسم هذه المواجهات قبل مؤتمر «جنيف ٢»، وقد خرج نتنياهو من ذلك الاجتماع مطمئناً وهو يحمل في جعبته ضمانات روسية بعدم تهديد أمن تل أبيب خلال المعارك الدائرة في محافظات: حوران وحمص ودمشق وريفها.

ومما يؤكد صحة هذه التسريبات تغاضي واشنطن عن استخدام النظام السوري الأسلحة الكيميائية ضد معارضيه، وتعاملها الهادئ مع عمليات «حزب الله» في القصير وحمص وريفهما، حيث اكتفت ببعض عبارات الشجب، في حين لا

تـــزال الإدارة الأمريكية والدول الغربية ملتزمة بعدم تســـليح المعارضة، وهو أمر ينسجم مع موقف كل من موسكو وتل أبيب بترجيح كفـــة «حزب الله» في المعـــارك الدائرة غربي البلاد بهدف استنزاف كتائب المعارضة وتفكيك بنيتها تمهيداً لمؤتمر «جنيف ٢».

وقد لفتت مصادر عســـكرية غربية الانتباه إلى وجود دور أساســـي لموســـكو في عمليات القصير وحمص؛ حيث قامت البحرية الروسية في الأشـــهر الثلاثة الماضية بشحن كميات كبيرة من الذخائر وتقنيات الرصد المتطورة والعربات المصفّحة وناقلات الجنود لدعم عمليات «حزب الله» في حمص.

أما نداءات رئيس أركان القيادة المشـــتركة للجيش الحر، والدبلوماســـية الحثيثـــة التي قام بها الائتـــلاف الوطني في العواصم الغربية لإنقاذ حمص؛ فقد لاقت آذاناً صماء، وبدأت تســـود قناعة لدى المعارضين السوريين بأن الإدارة الأمريكية وحلفاءها في أوروبا ينظرون إلى إمكانية ســـقوط حمص بيد النظام باعتبارها «خطوة نحو القبول بالتحاور مع النظام».

تعيدنا دهاليز الدبلوماسية الغربية المعاصرة تجاه سورية إلى تفاصيل حقبة رســـم خريطة المنطقـــة قبل نحو قرن من الزمان؛ فقد اتفقت واشـــنطن ولندن عقـــب الحرب العالمية الأولى على تخويل فرنســـا مهمة تحديد هوية ســـورية ولبنان على أســـس طائفية محضة، وأســـفرت الترتيبـــات الإدارية الفرنســـية عن مشـــروع طائفي تفتيتي تمثل في إعلان دولة لبنان الكبير في غرة ســـبتمبر ســـنة ١٩٢٠، ودولة حلب في الثامن من ســـبتمبر ســـنة ١٩٢٠، ودولـــة العلويين في الثالث والعشرين من سبتمبر ١٩٢٠، ودولة جبل الدروز في ٢٠ أبريل سنة ١٩٢١، ودولة دمشق: التي اتخذت من العاصمة اسماً لها.

لكـــن هذه الدويـــلات الطائفيـــة لم يكتب لهـــا النجاح، فقد أثبتت التجربة أن عملية إنشـــاء خمســـة أجهزة إدارية متكاملة من مســـؤولين وموظفين وعســـكريين، وتأسيس بنية تحتيـــة وخدمات بلدية وصحية وبريدية في كل دولة من هذه الدويلات؛ كانت عملية باهظة التكاليف، فانضمت دولتا حلب ودمشق في ١٩٢٤، واتخذ قرار ضم مناطق الدروز والعلويين للدولة الســـورية في ١٩٣٦، لكن القرار لم ينفذ بصورة فعلية حتى عام ١٩٤٣.

ويبدو أن مراكز الفكر الغربية قد درســـت فشـــل تجارب التقسيم السابقة؛ فاستعاضت عنها بالدعوة إلى تأسيس كيان فيدرالـــي تمثل فيه الدولة المركزية دوراً هامشـــياً، وذلك من خلال تبني مشروع «التجزئة داخل الحدود» على أسس جيو – سياسية يتم من خلالها ترجيح كفة الأقليات الإثنية والطائفية على حساب الأغلبية.

ففي الأشهر الثلاثة الماضية نشطت الدبلوماسية الأمريكية والتركية للتوصّل إلى تفاهمات حاســـمة مع الأكراد لتمكينهم من الســـيطرة على الجزء الأكبر من الشريط الحدودي الممتد لأكثر من ٨٠٠ كم بين سورية وتركيا.

وفي جنـــوب البلاد زج الجيـــش الإســـرائيلي بكتيبتين قوامهما من الدروز في المنطقة الحدودية مع ســـورية تمهيداً لتنفيذ مشروع يتضمن الإعلان عن منطقة عازلة في الجولان وحوران وجبل العرب، ويمكن أن تســـند فيه مهمة الســـيطرة على المناطق الاستراتيجية في جبل العرب إلى كتائب درزية.

أما الترتيبات النهائية للكيان العلوي المرتقب فلا تقتصر على تعزيز موقف النظام في مناطق العلويين غربي البلاد؛ بل تمتد الخطط التمهيدية لمشروع «جنيف ٢» لتشمل محافظات: دمشق وحمص واللاذقية وطرطوس.

وتماماً كســـابقه مارك ســـايكس الذي ترك مهمة التقسيم الطائفي للفرنســـيين عام ١٩٢٠؛ يدرك جـــون كيري اليوم أن الروس أقدر على تشكيل الصورة النهائية للدولة العلوية بالتعاون مـــع طهران التي أوكلت إلـــى قائد فيلق القدس اللواء قاســـم ســـليماني مهمة تأســـيس قوة يبلغ قوامها ١٠٠ ألف مقاتل من العلويين تحت مســـمى «الجيش الشعبي»، في حين تولى «حزب الله» مهمة إخراج كتائب المعارضة من تلك المناطق وإحلال أبناء الأقليات في المدن والقرى السنية التي يسيطر عليها.

ولا بد مـــن التأكيد على أن الفكـــرة التي تداولتها بعض الأوســـاط الإعلامية حول تأسيس كيان علوي تقتصر حدوده على الســـاحل السوري؛ هي ضرب من الوهم الناتج عن عدم فهم طبيعة المخططات الغربية؛ إذ إن الصيغة النهائية للكيان العلوي تتضمن رقعة أوســـع نطاقاً من الســـاحل، وتقوم على أســـاس عملية إعادة فـــرز ديمغرافي وأمني وعســـكري من خلال تقوية موقف النظام غربي البلاد، خاصة في الشـــريط الحدودي مع لبنان، ومع «إســـرائيل» التي لا ترغب بمجاورة كيان سني تهيمن عليه كتائب المعارضة.

المعادلة الدولية وغياب الموقف السوري

وفقاً لدراسة نشرها الباحث الأمريكي «ويل إنبودين» (١٦ يوليو ٢٠١٣)، فإن الأزمة السورية تحوّلت إلى حالة نزاع إقليمي تتقاطع فيه أربعة أنماط من الصراع، هي:

١. تنافس القوى العظمى حول القواعد العسكرية ومد المنظومات الصاروخية وتأمين معابر التجارة العالمية، وتدخل روسيا وأمريكا وبريطانيا وفرنسا والصين ضمن هذه المعادلة الدولية؛ إذ تسعى بكين وموسكو إلى تعزيز نفوذهما الاقتصادي والعسكري والسياسي في المنطقة، في حين تواجه أوروبا وأمريكا مشاكل اقتصادية تمنعها من التدخل المباشر.

٢. تنافس القوى الإقليمية في معادلة ثلاثية المحاور؛ تمثل الرياض وحلفاؤها الطرف الأول، وطهران والقوى التابعة لها الطرف الثاني، وتركيا والجماعات المتعاونة معها الطرف الثالث. ولا شك في أن تغير المعادلة الإقليمية وفق التطورات في مصر يؤذن بظهور تحالف إقليمي جديد يضم الرياض وأبو ظبي والقاهرة وعمّان.

٣. الصراع الطائفي المتنامي الذي تغذيه القوى العابرة للحدود من ميليشيات طائفية نشطة في كل من: لبنان والعراق وسورية، وتقف خلف هذه المجموعات المتطرفة مؤسسات رسمية في بغداد وطهران ومرجعيات دينية تذكي أوار الطائفية ومشاعر الكراهية والتمييز.

٤. الصراع الأيديولوجي القائم بين مفهومي «الديني» و«المدني» في الكيانات الناشئة عن الربيع العربي، وتأثير ذلك على التفاعلات السياسية في سورية، وارتباط ذلك بالدعم السياسي والعسكري والتمثيل الدبلوماسي الذي تحظى به مختلف جماعات المعارضة على الصعيد الإقليمي والدولي.

وبين هذه التداخلات الإقليمية والدولية يغيب الموقف السوري بصورة مقلقة؛ إذ يتردد الحديث عن فقدان بشار السيطرة على أزمة الإدارة والحكم في المناطق الخاضعة للنظام؛ حيث يتولى قائد فيلق القدس اللواء قاسم سليماني مهمات الإدارة والتنسيق بين مختلف الميليشيات الطائفية القادمة من إيران ولبنان والعراق، في حين تدين التشكيلات الطائفية الجديدة من «الجيش الشعبي» بالولاء للقيادة الإيرانية.

أما في الشق المعارض؛ فإن الجناح السياسي للثورة لا يزال عاجزاً عن تطوير نفسه فيما يتواكب مع متطلبات المرحلة، حيث يمزق الخلاف نسيج المعارضة، وتستسلم الأحزاب لضغوطات الاستقطاب الإقليمي، وتحتدم الخلافات بين بعضها في سعي حثيث للاستحواذ على النصيب الأكبر من مصادر التمويل.

والحقيقة هي أن إعلان رئيس الائتلاف الوطني مشروع تشكيل «جيش وطني» يضم ستة آلاف مقاتل، قد جاء سابقاً لأوانه، إذ إن الائتلاف لم يتمكّن من استكمال بنيته التأسيسية بعد توسيعه، ولم يحقق أي منجزات تذكر على صعيد الإدارة المحلية للأقاليم المحررة، في حين يعاني فشل جهود دبلوماسيته لإنقاذ القصير وحمص والحد من تدخّل «حزب الله»؛ ولذلك فإنه من المبكر لأوانه أن يقفز الجسد السياسي المدني للثورة إلى مرحلة متقدمة من التكوين العسكري ليتحدث رئيس الائتلاف عن تأسيس جناح عسكري تحت مظلة «التخلص من أمراء الحرب».

وتكمن المشكلة الأكبر في أن ذلك التصريح قد تزامن مع تسرب تقارير مقلقة حول مخططات قوى إقليمية ودولية للتخلص من فصائل مقاتلة على أسس أيديولوجية، وتشكيل فريق عمل إقليمي يعمل على ترجيح كفة تيار ضد آخر في صفوف المعارضة السورية، وهو أمر منافٍ للمبادئ التي تأسَّس من أجلها الائتلاف، إذ ليس من حق أي جهة أن تنفرد بالقرار السياسي أو العسكري أو أن تعمل على تصفية أطراف أخرى بقصد الهيمنة والاستحواذ.

إن ما تحتاج الثورة إليه في هذه المرحلة العصيبة، هو العمل على إيجاد جسد ائتلافي متين يقوم على أسس الكفاءة والاحتراف، بدلاً من المنافسة الحزبية والاستقطاب الإقليمي، وذلك بغرض رسم استراتيجية سورية محضة تحقق مصالح الشعب السوري بالدرجة الأولى، وتدرأ عن الثورة مخاطر سرقتها من قبل فئات ترغب في الاستئثار بالمكاسب دون المشاركة في التضحيات، أو من قبل قوى خارجية ترى في الأزمة السورية حزمة فرص لتحقيق مصالحها وزيادة نفوذها.

ولا بد من الاعتراف بأن المعضلة الرئيسة في السلوك السياسي لدى قوى المعارضة تكمن في رهانها على الشق الخارجي من المعادلة السياسية، في حين تغيب الجهود المخلصة لتعزيز الجبهة الداخلية، وإدارة المناطق المحررة، وتخفيف معاناة اللاجئين الذين يعانون ظروفاً قاسية، وتجنيب البلاد مخاطر التفكيك والصراع المجتمعي.

وبدلاً من الانخراط في الدبلوماسية الدولية المتعثرة والخضوع لمشاريع التقسيم؛ فإنه يتعين على المؤسسات التي تدَّعي تمثيل المعارضة السورية أن تعي مخاطر الانزلاق في شرك الاستقطاب الإقليمي الذي لا يعود على الشعب السوري بخير، وأن تدرك مكامن قوتها المتمثلة في: حسن تمثيل قوى الثورة والتأليف فيما بينها لتشكل جبهة موحدة تمثل طرفاً مؤثراً في المعادلة السياسية بدلاً من أن تتحول إلى عنصر متأثر بالتجاذب الدولي.

ومن المهم كذلك أن تستفيد المعارضة من دروس تجربة «سايكس-بيكو» بالأمس لدى العمل في مرحلة «كيري-لافروف» اليوم؛ ففي الفترة ١٩١٦ - ١٩٢٠ وثق الأمير فيصل بن الحسين بالدبلوماسية الغربية، وركن إلى وعود

الإنجليز، وكان لـــه دور بارز في إضعاف المقاومة الشـــعبية ضد الفرنسيين؛ بهدف منح الدبلوماسية الدولية فرصة لحل الخلاف المستعصي حول تقسيم غنائم الحرب العالمية الأولى.

وعلى هذا الأساس اختار فيصل تجاهل الحشود الفرنسية في لبنان عام ١٩١٩، وأمر قواته بالتراجع عن اســـتحكاماتها فـــي مجدل عنجر، ثم أمر بتســـريح الجيـــش الوطني طبقاً لشـــروط الإنذار الذي أصدره الجنرال غورو عام ١٩٢٠، بل إنـــه أوفد أخاه الأمير زيد على رأس فرقة عســـكرية لمقاومة الجنود الذين ثاروا احتجاجاً على هذا القرار وهاجموا مخازن الســـلاح لتوزيعها على الأهالي الذين شاركوهم في المطالبة بالدفاع عن أنفســـهم أمام التقدم الفرنســـي، فأوقعت قوات الأمير فيصل بهم أكثر مـــن مائة قتيل وثلاثمائة جريح، وقد اعترف فيصل بمســـؤوليته عن هذه الكارثة في خطاب أرسله إلى رئيس الـــوزراء البريطاني لويد جورج عام ١٩٢٠، بقوله: «لقـــد وثقت بكلمة الجنرال غـــورو واعتمدت على وعده بألا يسمح للجيوش الفرنسية بالتقدم، فأخليت المراكز من الجند وسرحت قســـماً كبيراً من الجيش وأجبت أنا الرجل الأعزل بأنني أرفض الحرب، وكنت أعرف أن موافقتي على الشروط الجديدة لا بد أن تثير حرباً أهلية في دمشـــق، فقد أعطيت الجنـــرال غورو عهـــداً صريحاً بأن أنفذ شـــروط ١٤ تموز بالحرف طالباً إليه لقاء ذلك إيقاف الجيوش الفرنســـية عن التقدم نحو دمشق، فكان جوابه إطلاق النيران على الجيوش النظامية والمتطوعين. على أنني بالرغم من هذا كله أصدرت الأمر إلى النظاميين الذين نجوا من القنابل بإلقاء الســـلاح، فأبيدت فرقة من الجنود البواســـل تحت قيادة البطل يوسف العظمة وهي في مكانها».

لكن بريطانيـــا تجاهلت مخاطبات فيصل، وآثرت التخلي عنه إرضاءً لحلفائها في باريس، راضية من فرنســـا بالموافقة على ضم الموصل ضمن سلطة بريطانيا الانتدابية في العراق، وبتنازل باريـــس عن المنطقة الجنوبيـــة – الغربية التي تعهّد البريطانيـــون بجعلها وطناً قومياً لليهود. وقد عبَّر فيصل عن مشاعر الإحباط في خطاب ألقاه في حديقة قصره بعد عودته من أوروبا عام ١٩٢٠ بقوله: «تخلت بريطانيا العظمى عنا في آخر لحظة إرضاءً لحليفتها فرنسا، ذات المصالح الاقتصادية والثقافية في هذه البلاد، وتجنباً من إثارة الخلاف والمشـــادة بين حليفتـــين حاربتا جنباً إلى جنب حتى أحرزتا مع ســـائر حلفائهما النصر».

لقد أدرك فيصل متأخراً أنه قد اســـتخدم من قبل القوى الدولية لتمرير مشاريع تفتيتية للمنطقة العربية على أنقاض الفكر القومي، وبدأت مع رحيله مرحلة جديدة من التقســـيم الطائفي في البلاد.. فهل تســـتفيد المعارضة الســـورية من دروس التاريخ؟

مصر.. هل تصبح نموذجاً لـ «الدولة المُشاع»؟

أحمد فهمي(*)
afahmee@hotmail.com
@ahmdfahmee

«الأرض المُشاع» مصطلح قديم متداول في كثير من الدول العربية، وهو يعود إلى مرحلة الحكم العثماني، حيث كان نظام «أراضي المشاع» منتشراً في بعض الأقاليم، مثل فلسطين، وهذه الأرض لا تكون مملوكة لشخص بعينه، وتكون تابعة لقرية ما، وتكون تحت تصرف جميع سكان القرية، يخص كل منهم حصة مساوية لغيره.

إنها إذن «ملكية مشتركة» أو «حق انتفاع مشترك».

هذا المصطلح يمكن توظيفه سياسياً لتوصيف بعض التطورات الحادثة على الصعيد العربي حالياً، خاصة في دول الربيع العربي، وفي مقدمتها مصر.

نحن أمام نموذج جديد للدولة يمكن أن نطلق عليه اسم «الدولة المشاع»، وهي الدولة التي يكون للدول الواقعة في نطاقها الإقليمي حق التدخل في شؤونها بدرجات متفاوتة بحسب قوة كل دولة: سياسياً

(*) باحث في الشؤون السياسية.

واقتصادياً وعسكرياً.

هذا الحق في التدخل ليس مكتوباً، وليس رسمياً، بل ينتج بالأساس عن محاولات حثيثة لإعادة صياغة معادلة توازن إقليمية جديدة، بدلاً من معادلة التوازن التي اختلت منذ اندلاع ثورات الربيع العربي في مطلع عام 2011م.

من المعروف سياسياً أن اختلال التوازن الإقليمي ينشئ حالة من الاضطراب بين الدول الواقعة في هذا النطاق. والاختلال الواقع في النطاق العربي يعود إلى أن ثورات الربيع أدت إلى ظهور أنظمة سياسية جديدة في الدول الثائرة، تحمل رؤى مغايرة وتصورات مختلفة حول علاقاتها الخارجية وتوازناتها الإقليمية، في هذه الحالة تنشأ ردة فعل معاكسة لدى الدول التي ترى أن تغييرات الربيع العربي تعمل في غير صالحها.. هنا تبدأ حالة من اصطفاف القوى إقليمياً بهدف احتواء هذه التغييرات قدر الإمكان، ولأن دول الربيع تمر بعد الثورة بمرحلة انتقالية تجعلها غير متماسكة سياسياً، تؤدي الاستقطابات السياسية الحادة داخل الدولة التي تمر بتلك المرحلة، لدفع أغلب القوى لتتوجه بأنظارها إلى الخارج بحثاً عن وسائل لتدعيم موقفها السياسي داخل الدولة، وكلما احتدم الصراع الداخلي، كلما تساقطت قيم وثوابت كانت تمنع هذه القوى دون الاستعانة بـ «الخارج» على «الداخل».

هذا التدخل يكون بداية لتحول الدولة الثائرة إلى نموذج «الدولة المُشاع»؛ لأن القوى الإقليمية تنطلق من مصالحها وليس من مصالح الدولة التي تتدخل فيها. واستناداً إلى المفاهيم السياسية فإنه غالباً ما تكون العلاقة بين «دولة» وبين «قوة سياسية» تنتمي إلى دولة أخرى، هي علاقة غير متوازنة بسبب فارق القدرات والإمكانات، وغالباً ما تؤدي هذه العلاقات إلى انزلاق هذه القوى المستعينة بالخارج إلى سياق ضاغط يصعب عليهم الخروج منه لاحقاً، حتى لو انتهت حالة الصراع السياسي الداخلية.. بل يمكن القول إن بقاء أو إنهاء حالة الصراع تصبح مفاتيحها بيد القوى الخارجية وليس الداخلية.

خطورة هذا النموذج أنه يختلف عن نموذج «الدولة الرخوة» التي تعود رخاوتها إلى حالة الفوضى الداخلية التي تجعلها نهباً لسيطرة وتدخلات القوى الخارجية، بدلاً من ذلك فإن نموذج «الدولة المشاع» يقدم وضعاً أكثر استقراراً من الناحيتين السياسية والاقتصادية، لكنه أيضاً ينطوي على صراعات سياسية تختفي عن السطح حيناً لتعود مرة أخرى، ويصبح العنصر الأكثر تحكماً في حرارة الصراع ومساراته: القوى الخارجية.

ونسرد فيما يلي أبرز سمات هذا النموذج الذي يهدد مصر مستقبلاً:

- تُعاد صياغة مضامين الأمن القومي والمصلحة القومية بما يتناسب مع مصالح القوى الإقليمية والدولية المؤثرة، وبما ينعكس على المؤسسات السيادية.

- لا يمكن حسم أي صراعات سياسية داخلية من دون اللجوء إلى الخارج، لدرجة أن الحضور الخارجي قد يصبح رسمياً ومقبولاً عند التفاوض لحل الصراعات.

- تقنين مسارات التمويل الخارجي الموجَّه من أجل التحكم في المشهد السياسي، وهذا يعني مزيداً من السيطرة، ومزيداً من التحكم.

- فتح المجال لكي تصبح المصالح والدوافع الشخصية للنخبة السياسية، هي المدخل الأساس للتحكمات الخارجية، وهذه كارثة كبرى عندما تصل دولة إلى هذا المستوى، وقد بلغت مصر هذه المرحلة في نهاية عصر مبارك.

هذا النموذج «الدولة المُشاع» يمكن استخدامه كبديل استراتيجي لأنماط العلاقات الغربية - العربية التقليدية، وذلك من خلال تدشين نظام إقليمي يتضمن أساليب تحكم وضغط وعقاب - ذاتي، يجعل من الصعب على أي دولة الخروج من دائرة التبعية الغربية دون أن يرتبط ذلك بالضرورة بتدخل غربي مباشر.

هذا ما يخططون ويريدون.. والله يفعل ما يريد.

مكاسب الصهاينة من استئناف المفاوضات

د. صالح النعامي(*)
@salehelnaami

لأول وهلة يبدو أنه من المفارقة أن يتصدى تحديداً نفتالي بنت، وزير الاقتصاد ورئيس حزب "البيت اليهودي" المشارك في الائتلاف الصهيوني الحاكم؛ للدفاع عن استئناف المفاوضات مع السلطة الفلسطينية؛ فهذا الحزب ليس فقط أكثر الأحزاب تطرفاً في حكومة نتنياهو اليمينية، بل هو أكثر الأحزاب تمثيلاً للمستوطنين اليهود في الضفة الغربية.. لكن عندما نستمع لبنت هذا يزول العجب وتبدو الأمور طبيعية، حيث يتبيَّن أن ممثلي المستوطنين، وعلى رأسهم بنت، يرون في استئناف المفاوضات تحسيناً لبيئة الاستيطان السياسية والأمنية والاقتصادية، وهم ينطلقون من افتراض مفاده أن هذه الخطوة تمثل أهم العوامل التي تضمن تعاظم المشروع الاستيطاني وتشعّب سرطان التهويد في القدس المحتلة. فما الذي يجعل اللوبي المؤيد للمستوطنين في الحكومة والكنيست يبدي هذا الحماس لاستئناف المفاوضات؟

١- لا خلاف داخل إسرائيل على أن موافقة السلطة الفلسطينية على استئناف المفاوضات في ظل تواصل الاستيطان والتهويد، يعد أهم تنازل سياسي فلسطيني، على اعتبار أنه يمثل قبولاً واقعياً بحق إسرائيل في مواصلة الاستيطان في أرجاء الضفة الغربية والقدس.

٢- تمكَّن اللوبي الداعم للاستيطان اليهودي في الضفة الغربية والقدس، والذي يضم وزراء ونواباً من جميع الأحزاب المشاركة في الائتلاف الحاكم؛ من تمرير قرار في الحكومة بالغ الخطورة يقضي بأن يتم تكثيف البناء والتطوير فيما يعرف بـ "المستوطنات النائية"، وهي تلك المستوطنات التي توجد في أطراف الضفة الغربية وبعيدة عن التجمعات الاستيطانية الكبرى. ومن الواضح أن تركيز البناء والتطوير في هذه المستوطنات يعني عملياً حسم مصير الأرض الفلسطينية قبل بَدء المفاوضات، على اعتبار أن هذه المستوطنات تنتشر في جميع مناطق الضفة الغربية، وهذا ما يعني أن توسيعها

(*) باحث في الشؤون الإسرائيلية.

سيؤدي عملياً إلى تكريس ما يعرف بـ "خارطة جلد النمر"، أي أن تبدو التجمعات السكانية الفلسطينية في الضفة الغربية كمعازل في بحر من المستوطنات اليهودية. ومن أجل طمأنة المستوطنين، وبشكل يشي بحقيقة النوايا الصهيونية؛ فإن نتنياهو تعهّد بأن تكون جميع الوحدات السكنية التي يتم بناؤها في المستوطنات النائية "مكيَّفة"، حتى تكون جاذبة لمزيد من اليهود للإقامة فيها. ومن أجل تعزيز البيئة الجاذبة لمزيد من المستوطنين اليهود، فقد وافقت حكومة نتنياهو على ضم المستوطنات النائية إلى ما يعرف بـ "مناطق الأفضلة الوطنية"، وهي تضم البلدات التي تقدم لها الحكومة خدمات إضافية وتسهيلات على صعيد السكن والضرائب والبنى التحتية وفرص العمل ومرافق الترفيه، وغيرها من الإغراءات.

٣- وافقت الحكومة الإسرائيلية على تسريع وتيرة العمل فيما يعرف بمشروع "E1"، وهو مشروع يقوم على ربط مستوطنة "معاليه أدوميم"، أكبر المستوطنات اليهودية في الضفة الغربية، والتي تقع شمال شرق مدينة القدس؛ بالمدينة المقدسة. وتكمن خطورة هذا المشروع في أن إنجازه يعني إسدال الستار على أي إمكانية لإقامة دولة فلسطينية متصلة الإقليم في الضفة الغربية؛ لأن الشارع الرئيس الذي يربط شمال الضفة الغربية بجنوبها يمر في المنطقة الفاصلة بين القدس و«معاليه أدوميم».. من هنا، ففي حال تم ملء الفراغ بين القدس وهذه المستوطنة، فإنه سيتم عملياً فصل شمال الضفة الغربية عن جنوبها.

٤- يضمن استئناف المفاوضات بين إسرائيل والسلطة توفير البيئة التي تضمن تواصل التعاون الأمني بين إسرائيل والسلطة الفلسطينية في ظروف مثالية، وهذا يحسّن بحد ذاته بيئة الاستيطان الأمنية في الضفة الغربية، مع العلم أن هذا يمثل عامل جذب مهماً للأزواج اليهودية الشابة التي تعيش داخل المدن اليهودية داخل الكيان الصهيوني للإقبال على الإقامة في المستوطنات. وبالفعل، فقد أسهم تحسّن البيئة الأمنية في المستوطنات اليهودية بفعل جهود الأجهزة الأمنية التابعة للسلطة الفلسطينية؛ في مواجهة حركات المقاومة، إلى جانب جملة الإغراءات الاقتصادية، فقد توجه كثير من اليهود للإقامة في المستوطنات.

٥- تستطيع إسرائيل أن تتنفس الصعداء بعد استئناف المفاوضات؛ لأن هذه الخطوة تضمن عدم توجه السلطة الفلسطينية للمؤسسات الدولية، وتحديداً محكمة الجنايات الدولية، لبحث مشكلة الاستيطان، مع العلم أن المحكمة اعتبرت الاستيطان في الماضي جريمة حرب. فمما لا شك فيه أن استئناف المفاوضات سيجنّب عباس خيار التوجه للأمم المتحدة للحصول على عضوية كاملة لفلسطين في المنظمة الدولية، ويقلص من حدة الضغوط الداخلية التي تمارَس عليه للتوجه للمؤسسات القضائية الدولية لمقاضاة إسرائيل بسبب مواصلة عمليات الاستيطان والتهويد، وهي الضغوط التي تمارَس من قبل النخبة الفلسطينية، وضمنها قيادات نافذة في حركة فتح ومنظمة التحرير. ومن الواضح أن عباس يخشى أن تؤدي استجابته لهذه الضغوط إلى مواجهة مفتوحة مع كل من إسرائيل والولايات المتحدة، وهي المواجهة التي لا يبدو أنه مستعد لخوضها؛ حيث يخشى أن تنتهي هذه المواجهة بتقويض السلطة الفلسطينية وتعزيز مكانة خصومه السياسيين.

ما الذي دفع عباس للتراجع عن خطوطه الحمراء؟

مما لا شك فيه أن تراجع رئيس السلطة الفلسطينية محمود عباس عن الشروط التي وضعها لاستئناف المفاوضات، والتي تجسَّدت في وقف البناء في مشاريع الاستيطان والتهويد؛ وموافقة إسرائيل المسبقة على الانسحاب حتى حدود العام ١٩٦٧؛ قد فاجأ حتى أعضاء اللجنة المركزية لحركة فتح التي يقودها وأعضاء اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير التي يقف على رأسها، لدرجة أن مواقف هؤلاء من قبول عباس للضغوط الأمريكية تراوحت بين انتقاد هذه الخطوة أو اختيار الصمت. لا يمكن فهم تراجع عباس عن خطوطه الحمراء دون الأخذ بعين الاعتبار حجم الضغوط التي مارستها الإدارة الأمريكية عليه للتراجع عن شروطه لاستئناف المفاوضات؛ ففي خلال الجلسات المغلقة التي عقدها عباس مع وزير الخارجية الأمريكية جون كيري، هدده الأخير بقطع العلاقات مع السلطة، علاوة على تهديده بوقف المساعدات المقدمة للسلطة؛ في حال ظل يصر على شروطه المسبقة. في الوقت ذاته، وكما زعم عضو اللجنة المركزية لحركة "فتح"، عباس

زكـــي؛ فقد مارســـت دول عربية ضغوطاً كبيـــرة على عباس للموافقة على العودة للمفاوضات دون الإصرار على الشروط المسبقة، عبر التلويح بســـلاح المقاطعة السياسية والعقوبات الاقتصاديـــة، علاوة على تقديم وعود بتقليص مظاهر الأزمة الاقتصادية التي تعانيها السلطة في حال وافقت على التعاطي إيجابياً مع الجهود الأمريكية. وإن كانت السلطة الفلسطينية قد تراجعت عن شـــروطها المسبقة لاســـتئناف المفاوضات، فإن الصهاينة يطرحون شـــرطاً تعجيزيـــاً يتمثل في مطالبة الفلســـطينيين بالاعتراف بيهودية إسرائيل قبل بحث قضايا الحـــل الدائم، مع العلـــم أن الاعتراف الفلســـطيني بيهودية إســـرائيل يعني عملياً تنازل الفلسطينيين المسبق – وقبل أن تبدأ المفاوضـــات – عن حق العودة للاجئين الفلســـطينيين. علاوة على ذلك، فقد وظفت النخبة اليمينية الحاكمة في تل أبيب التراجع الفلسطيني في محاولة جني أرباح على الصعيد الداخلي الإسرائيلي، عبر اعتبار أن هذا التراجع يعد مؤشراً على صدقية الخطاب السياسي لليمين الإسرائيلي؛ فقد عدَّ رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو أن تراجع عباس عن شروطه "ثمرة من ثمار التصميم والعناد" الذي أبدته حكومته، مع تأكيده أنه لا ينوي التراجع عن هذا النهج في المســـتقبل. ومن الواضح أن الســـلوك الفلســـطيني الرســـمي بات يمثل مصدراً من مصادر تعزيز قوة اليمين الإســـرائيلي. إلى جانب ذلك، لا يمكن إغفال دور وتأثير التحولات التي شهدها العالم العربـــي في دفع عباس للإقدام على اســـتئناف المفاوضات، حيث إنه بات يرى أن الانقلاب على مرســـي وعودة مصر إلى نفس السياسات التي ينتهجها نظام مبارك، إنما تمثل استعادة ما كان يعرف بـ "محور الاعتدال العربي"، وهو ما يســـمح له باســـتئناف المفاوضات مع إسرائيل في ظل أكبر دعم عربي، فضلاً عن أنه يرى أن التحولات التي شـــهدها العالم العربي تضعـــف خصمه اللدود حركة حماس وتقلص من قدرتها على فرملة خطواته، على اعتبار أن عزل مرســـي وإخراج جماعة الإخوان المســـلمين من الحكم سيؤثر ســـلباً في مكانة حركة حماس وقدرتها على العمل.. لكن المشكلة التي يواجهها عباس وبغض النظر عن العوامل التي دفعته للإقدام على هذه الخطوة التي تنسف عملياً كل تعهداته السابقة؛ تتمثل في أن استئناف المفاوضات جاء في وقت خلو جعبة الســـلطة الفلسطينية من متطلبات الدعم الداخلي التي يفترض أن تضمن تقليص قدرة إســـرائيل والإدارة الأمريكية على ممارســـة الضغوط والدفع نحو مزيد من التآكل في الموقف الفلســـطيني، ففي ظل حالة الانقسام الداخلي وتضاؤل فرص التوصّل لمصالحة وطنية مع حركة حماس، فإن هذا سيُضعف من موقفه خلال المفاوضات. ومما يزيد الأمور تعقيداً، أن استئناف المفاوضات جاء في ظل إقدام عباس على خطوات تجعل من فرص التوصّل لمصالحة وطنية ضرباً من المســـتحيل في ظل هـــذه الظروف؛ فعباس يتجه إلى إجراء الانتخابات التشـــريعية والرئاسية في الضفة الغربية وحدها ودون التنســـيق مـــع حركة حماس، وفي حال نفّذ عباس توجهه هذا؛ فإن ذلك يعني إســـدال الســـتار على أي إمكانيـــة لتحقيـــق المصالحة الوطنية واســـتعادة الصف الفلســـطيني وحدته؛ وهذا ما سيسمح للإسرائيليين بهامش مناورة كبير لابتزاز مزيد من التنازلات من عباس، فمنذ الآن يجاهر المتحدثون الرسميون الإسرائيليون بأنه رغم استئناف المفاوضـــات فإنه لا يمكن إبرام أي اتفاق نهائي مع الســـلطة الفلسطينية في حال ظل عباس يمثل نصف الفلسطينيين في الأراضي المحتلة. وقد عبّر عن هذا الموقف بشكل جلي، رئيس لجنة الخارجية والأمن في الكنيست ووزير الخارجية السابق أفيغـــدور ليبرمان؛ فإســـرائيل التي مارســـت أكبر الضغوط في الماضي من أجل إفشـــال تطبيـــق اتفاقيات المصالحة بين حركتي فتح وحماس، هي ذاتها التي تجد في تواصل الانقسام الفلســـطيني الداخلي مسوغاً لعدم التعاطي بجدية مع المكانة التمثيلية لرئيس السلطة الفلســـطينية. في الوقت ذاته، فإن خطوة عباس لا تســـتند إلى أي سند شـــعبي فلسطيني؛ لأن مؤسسات السلطة لا تملك حالياً أي شرعية انتخابية، علاوة على أن تراجع عباس عن التزامه أمام الشـــعب الفلســـطيني بعدم العودة للمفاوضات في ظل الاســـتيطان والتهويد ودون تحديـــد غاية المفاوضات النهائية؛ يهـــز الثقة بقيادته، وهذا بالضبط ما ينبّه إليه عـــدد من قادة حركة "فتح" الذين حذّر بعضهم عباس علناً من التداعيات الخطيرة لافتقاد الجمهور الفلســـطيني الثقة بقيادته، كما فعل عضـــو المجلس الثوري للحركة نبيل عمرو.

إن ما زاد الأمـــور تعقيداً أن اســـتئناف المفاوضات جاء فـــي ذروة الهجمات التي ينفّذها المســـتوطنون ضد المواطنين الفلســـطينيين العزل في أرجاء الضفة الغربية، دون رد فعل جديّ من قبل الحكومة الإسرائيلية.

لاخوف من الإلقاء

الدورات معتمدة

بعد اليوم كن خطيب زمانك

قالوا عن الدورة ...

يحصل المتدرب على: شهادة معتمدة + تصوير أداؤه + إصداراتنا :

كتاب: لماذا نخشى الإلقاء؟

البوم قرص مدمج: فن الإلقاء

إصداراتنا متوفرة لدى مكتبات: جرير و العبيكان

تم تنفيذ ٣٢٠ دورة

وتدريب ٤٢,٠٠٠ متدرب ومتدربة

وتقديم ١٥ دورة دولية

وعقد ٢٢٠ برنامجاً لكبار الشخصيات والشركات والجهات الحكومية.

دورة مهارات الإلقاء تحقق:

- تهيئة خريجي الجامعات للتطبيق والتدريس.
- كيفية إعداد الكلمات والمحاضرات المقنعة والمؤثرة.
- كسر حاجز الهيبة من التحدث أمام الآخرين.
- التعرف على أسرار التاثير.
- تنمية مهارات الإصغاء.
- التعامل مع الأسئلة المفاجئة.

مدربون سعوديون خبرة ١٥ سنة

دورة الخطيب الصغير:

دورة إلقاء للأبناء :

آداب اجتماعية

+ علوم رجال

+ لبس المشلح

مركز الإلقاء

أول مركز متخصص في الإلقاء و المواجهة

www.alelqa.com

الرياض هاتف: ٤٧٧ ٩٩٩٢ ٠١١

جوال: ٣٣ ٩٥٩ ٣٣٣ ٠٥/ ٤٧٩٤ ٤٢٥ ٠٥٠

@alelqatraining

تحت إشراف المؤسسة العامة للتدريب التقني والمهني ترخيص رقم ٤٨٩٥/٢١٤

Badr: 0508948947

تحديات السياسة الخارجية

■ علي حسين باكير(*)

@alibakeer

مع اندلاع الثورات العربية في نهاية عام ٢٠١٠ وبداية عام ٢٠١١، ورغم أنّ أحداً لم يكن يتوقعها من حيث التوقيت؛ كانت تركيا الدولة الأكثر استعداداً على الصعيد الإقليمي والدولي لتقبّل مناخ التغيير الحاصل في المنطقة.. صحيح أنّ علاقاتها لم تكن سيئة مع الأنظمة السائدة في المنطقة إثر تطبيق سياستها الخارجية المعروفة باسم «تصفير النزاعات»، لكنّ الأكيد أن علاقتها مع شعوب المنطقة كانت أقوى بأشواط.

أدى هذا التموضع إلى ازدياد شعبية تركيا على الصعيد الإقليمي، حيث أظهرت الغالبية العظمى من استطلاعات الرأي التي أُجريت آنذاك ازدياد هذه الشعبية، لا سيما في تونس وليبيا ومصر واليمن وفلسطين، وبدأت السياسة الخارجية التركية تصارع من أجل الحفاظ على المكاسب الجديدة التي تحققت رغم الخسائر الجانبية التي مُنيت بها إثر فقدان الأنظمة السابقة؛ فالمكاسب كانت أكبر لكنّ الوضع لم يكن مستقراً خاصة مع اندلاع الثورة السورية التي كانت بمثابة المتغيّر الجيوبوليتي الاستراتيجي الكبير.

لقد أدّت تفاعلات الثورة السورية إلى بقاء أنقرة شبه معزولة بسبب موقفها المتقدّم في دعم الثورة السورية في ظل

(*) باحث في منظمة البحوث الاستراتيجيّة الدوليّة (USAK)، أنقرة – تركيا.

اختلاف الحسابات الإقليميّة والدوليّة بين محور متماسك ومؤيد وداعم للنظام السوري، وبين محور متضعضع وغير مقتنع بالإطاحة بالنظام السوري وله مصالح مختلفة ومتضاربة. ومع ازدياد الوضع السوري تعقيداً، وجدت أنقرة نفسها في مواجهة روسيا والمحور الإيراني الذي يضم حزب الله والنظام السوري والحكومة العراقية فيما يعرف باسم الهلال الشيعي.

حتى حلفاء أنقرة من الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي وحلف شمال الأطلسي، لم يتفاعلوا مع حليفهم التركي بالشكل المطلوب، وبقي التضامن شكلياً إلى حد بعيد وفي إطار آمن بعيداً عن سخونة الملفات الإقليميّة.

على الصعيد الداخلي، قامت المعارضة التركيّة بتوظيف الوضع غير المريح للموقف التركي إقليمياً ودولياً في إطار المماحكات الداخليّة وتسجيل النقاط ضد الحكومة التركيّة والتشويش على الرأي العام التركي، ما خلق مصاعب جمّة للسياسة الخارجية التركيّة، وزاد من صعوبتها تراجع الدور القطري على الصعيد الإقليمي، لا سيما في الملف السوري، لصالح الدور السعودي. ورغم أنّ البلدين لديهما نفس الموقف من النظام السوري، إلا أنّ مستوى التنسيق والتفاعل بينهما أقل مقارنة بالتنسيق التركي – القطري؛ نظراً لدينامية السياسة الخارجيّة القطرية من جهة وللحساسية الموجودة عند الطرف السعودي من إعطاء تركيا دوراً أكبر، لا سيما في ملفات عربيّة.

وفي ظل تراكم هذه التحديات والصعوبات التي تواجهها السياسة الخارجيّة التركية، ظهر التحدّي الأبرز وهو الانقلاب الذي حصل في مصر، والذي لم يتم الإطاحة بموجبه بالرئيس المصري المنتخب فحسب، وإنما بكل المسار الديمقراطي الذي نشأ بعد رحيل حسني مبارك عن السلطة. لقد كانت تركيا الدولة الوحيدة تقريباً التي سارعت رسمياً إلى وصف ما جرى بأنّه انقلاب عسكري وتصرّفت معه على هذا الأساس، فيما تلكّأ آخرون في تشخيص هذا الوضع بانتظار المشهد النهائي للمنتصر في هذه المعركة في ظل اصطفاف خارجي لبعض الدول الداعمة لهذا الانقلاب إقليمياً ودولياً.

كل هذه التحديات تعني أنّا انتقلنا من مرحلة كانت فيها سياسة «تصفير النزاعات» سبباً أساسيّاً لصعود تركيا الإقليمي، إلى مرحلة أصبحت فيها هذه السياسة عقبة أمام التأقلم مع التطورات الساخنة على الصعيد الإقليمي، لا سيما مع انعزال تركيا، وهو الثمن الذي تدفعه لقاء مواقفها المبدئية. لكن في المقابل هذه المبدئية جعلت من فعاليّة السياسة الخارجية تتآكل من ناحية النفوذ والتأثير، ورغم أنّ صنّاع القرار الأتراك يرفضون الاعتراف بذلك، إلا أنّ تحوّل البيئة الإقليمية إلى بيئة غير صديقة من المفترض أن يدفعهم إلى مراجعة هذا الموقف باتجاه اتخاذ سياسات لا تتناقض مع المبدئية من جهة وتتيح لها في المقابل فسحة من المناورة لكسر حلقة الحصار المفروضة عليها من المحور الإيراني الإقليمي، ومن جبهة المعادين أو المتضررين من الثورات العربية.

الأتراك يراهنون على الوقت وعلى أنّ التحوّلات الإقليميّة الجارية رغم قتامتها الآنيّة إلا أنها ستحدث تحوّلاً كبيراً على مستوى المنطقة برمّتها، وعندها فإن تركيا ستكون أيضاً في موقع مناسب، لكن التعويل على مثل هذه القراءة لا يمكن أن يصمد في وجه التفاعلات الإقليميّة.

الخيارات العملية لمعالجة هذا الوضع تبدو محدودة للغاية في ظل المعطيات الحالية، فليس من الواضح كيف يمكن تجاوز هذه الإشكاليات من دون أن يؤدي ذلك إلى التنازل في وجه هذه المحاور أو من دون الإضرار أيضاً بشعبية تركيا، كما من الواضح أنّه ليس هناك أيّ جهود لطرح رؤية جديدة لسياسة خارجيّة تركيّة جديدة في ظل تساؤلات حول جدوى ذلك إذا كانت الأوضاع الإقليميّة ستبقى على حالها من ناحية التنافس الجيو – استراتيجي الإقليمي والدولي، ومن ناحية الفوضى الحاصلة في المنطقة.

لكن في المقابل فإننا سنشهد خلال السنة القادمة استحقاقات داخلية تركية متعددة من انتخابات بلدية وبرلمانية ورئاسية، وقد يحمل هذا التغيير معه بالضرورة تغييرات على عدّة مستويات داخل دوائر صنع القرار في تركيا على الأقل من الناحية النظرية، على أمل أن يواكب ذلك تحوّلات إقليميّة في سورية خاصة مع قرب انتهاء الفترة الرئاسية لبشار وفقاً للدستور الموجود حالياً وكذلك التقدم الذي يحققه الجيش الحر على الأرض، علماً أن فترة سنة قد تبدو غير كافية لحصول تحوّلات إقليميّة كبرى، إذ يبدو أنّ المنطقة تحتاج إلى أكثر من ذلك الوقت.

جولـــة كـــيري
واستئناف المفاوضات..
قراءة تحليلية

■ أحمد دلول
dalloul2010@msn.com

مقدمة

ســـعى وزير الخارجية الأمريكية جون كيري، منذ توليـــه مهامه في مطلـــع فبراير، لأن يكـــون من أبرز أولوياته تحريك عملية التســـوية السلمية المجمدة بين الإسرائيليين والفلسطينيين؛ بهدف "التوصل إلى اتفاق سلام" دائم بين الطرفين. وكان كيري قد قضى الشهر الماضـــي أربعة أيام فـــي المنطقة قـــام خلالها بجهود دبلوماســـية مكثفة ســـعياً لتقريب مواقف الطرفين. وفي نهاية الجولة السادســـة لكيـــري تم الإعلان عن التوصل إلى اتفاق لاســـتئناف مفاوضات السلام بين الجانبين. فعن الجانب الفلســـطيني تم اختيار "صائب عريقات" كمفاوض فلسطيني، وعن الجانب الإسرائيلي تم اختيار المفاوضين "تسيبي ليفني" و"إسحاق مولهو"، حيث من المقرر أن يبدؤوا المفاوضات الأســـبوع المقبل في واشنطن.

مدة المفاوضات والنجاح في جولة كيري

تضاربـــت البيانـــات حول مـــدة المفاوضـــات، فالطرف الفلسطيني يذكر أن المدة محددة من ٦-٩ أشهر فقط، بينما يذكر الجانب الإســـرائيلي أنها على الأقل ٩ أشهر، ويبدو أن الجانب الفلســـطيني لم يكن صادقاً فـــي إفادته، خاصة أنه فاوض إســـرائيل لمدة ٢٥ ســـنة ولم يتمكَّن من تحديد سقف زمني فـــي الماضي، وبالتالي ما تم الإعـــلان عنه هو أرضية زمنية أقلها تسعة أشهر، ويتم خلالها الامتناع عن أي خطوات أحادية الجانب على الســـاحة الدوليـــة لإصدار قرارات ضد الكيان الصهيوني، في حين يقوم فريق تفاوضي مشترك خلال الفترة ذاتها بالعمل على بلورة اتفاق حول ذلك.

ويمكن إرجاع نجاح الوزير كيري في عودة المفاوضات إلى سببين؛ **الأول**: ضعف المفاوض الفلسطيني والسلطة الفلسطينية بشكل عام، وعدم قدرتها على بلورة استراتيجية أو رؤية مستقبلية، لدرجة أنها جعلت المفاوضات هي البديل الذي لا بديل عنه (لا بديل عن المفاوضات إلا المفاوضات)، وخوفها من المستقبل، خاصة في الجانب المالي. **والسبب الآخر** يكمن في الحالة العربية التي تشهد تشويشاً وارتباكاً كبيراً، سواء في مصر أو سورية أو في الخليج العربي بشكل عام، ويمكن القول إن ضعف الحالة العربية قد سهَّل لكيري اللقاء مع ١١ وزيراً من وزراء الخارجية العرب في عمّان لكي يستجلب ضغطاً منهم على الجانب الفلسطيني للعودة إلى المفاوضات أو يبني مرجعية وغطاءً عربياً للمفاوضات، كما شجع الانقلاب في مصر الطرف الفلسطيني على استئناف المفاوضات، لا سيما بعد أن تحرر الرئيس عباس من ردة فعل الجماهير الفلسطينية التي تعيش حالة انعدام الوزن من النكبة التي حلت بأكبر دولة عربية.

ويمكن اعتبار أن المستفيد من عودة المفاوضات هما اثنان، **الأول**: جون كيري الذي يرغب أن يسجل في سيرته الذاتية نجاحاً شخصياً له كسياسي محترف وكقيادي يملك قدرات مؤثرة في حل أو إدارة النزاعات الدولية. **والثاني**: هو الطرف الإسرائيلي وحكومة نتنياهو التي ستحظى بغطاء فلسطيني يمنحها توصيةً في علاقتها مع الأنظمة الدولية والأوروبية التي تلوم تعنتها، والتي تحاول محاصرة سياساتها الاستيطانية؛ حيث إن عودة المفاوضات تمثل الفرصة الذهبية للولايات المتحدة كدولة قوية في المنطقة لتمارس الابتزاز على جميع الأطراف لتفرض سياستها.

مضمون المبادرة حسب الرؤيتين الفلسطينية والإسرائيلية

أولاً: فلسطينياً

الجانب الفلسطيني أفاد بأن "كيري" اقترح إجراء جولة مفاوضات تستمر ما بين ٦-٩ أشهر لتتركز على الشؤون الجوهرية وفي مقدمتها الحدود والترتيبات الأمنية. وأن كيري يدعم اعتبار حدود عام ٦٧ بمثابة نقطة انطلاقة للمفاوضات.

كما أنه تعهد للجانب الفلسطيني بأن تُفرج إسرائيل تدريجياً عن نحو ٣٥٠ سجيناً فلسطينياً خلال الأشهر القليلة المقبلة، بينهم ١٠٠ سجين أُدينوا قبل توقيع اتفاقيات أوسلو.

كما أفاد الجانب الفلسطيني بأن نتنياهو وافق على سلسلة مطالب أمريكية لتدعيم اقتصاد السلطة الفلسطينية وتعزيز مكانتها في الشارع الفلسطيني؛ بُغية إحاطة المفاوضات، في حال استئنافها، بأجواء إيجابية. ومن هذه المطالب: تسليم السلطة مناطق جديدة في الضفة الغربية، وإزالة حواجز عسكرية، وتطوير مناطق سياحية في الشاطئ الشمالي للبحر الميت؛ بحيث يتم إنشاء ٢٠ ألف وظيفة لعمال فلسطينيين، وإقامة مناطق صناعية مشتركة مع إسرائيل برعاية أمريكية وأوروبية، وزيادة تصاريح الدخول لإسرائيل لعمال ولرجال أعمال فلسطينيين من الضفة الغربية وقطاع غزة. والمعلومات جاءت بصيغة النكرة، بمعنى أنها لو صدقت، فهي فضفاضة وغير واضحة المعالم.

لكن قرارات قيادة المنظمة والسلطة تشير إلى غير ذلك، إذ تم تسريب بعض مخرجات اجتماع اللجنة المركزية لحركة فتح الخميس (١٩ يونيو) برئاسة الرئيس محمود عباس، وأفادت التسريبات بأن اللجنة تنازلت عن مطلب وقف الاستيطان في الأراضي المحتلة عام ١٩٦٧ والتخلّي عن مطلب إطلاق سراح الأسرى وخاصة المعتقلين منذ ما قبل أوسلو؛ شرط أن يتم استئناف المفاوضات على أساس الـ ٦٧.

ووفق التسريبات، فإن ١٣ عضواً من المركزية صوتوا في اجتماعهم لصالح استئناف المفاوضات إذا ما كانت على أساس حدود عام ١٩٦٧ والتنازل عن مطلبي تجميد الاستيطان وإطلاق سراح الأسرى وخاصة المعتقلين منذ ما قبل أوسلو، في مقابل اثنين صوَّتا بالمعارضة، منهما اللواء توفيق الطيراوي.

ثانياً: إسرائيلياً

نقلت صحيفة الحياة اللندنية عن مصادر إسرائيلية أن خطة كيري المقدمة "شفوياً" إلى الرئيس الفلسطيني حملت خمس نقاط، هي: دعوة الجانبين الفلسطيني والإسرائيلي إلى التفاوض على أساس إقامة دولة فلسطينية على حدود الرابع من حزيران، مع تبادل "أراض" متفق عليه ومتساوية

في المساحة والنوعية، وأن يجري التفاوض على الحدود والأمن لفترة تراوح بين ٦ و٩ أشهر، وأن يضمن كيري قيام إسرائيل بتقليص البناء في المستوطنات خلال المفاوضات إلى أقصى حد ممكن، وأن يضمن أيضاً قيام إسرائيل بإطلاق جميع أسرى ما قبل اتفاق أوسلو، وعددهم ١٠٤ أسرى، بعد شهر من بدء المفاوضات، على أن تطلق إسرائيل فور بدء المفاوضات ٢٥ أسيراً آخر، وإطلاق خطة اقتصادية لإنعاش الاقتصاد الفلسطيني.

ويمكن التعبير عن الخطة الأمريكية لاستئناف المفاوضات بثلاثة مسارات مركزية، يتمثل **الأول** في المسار السياسي الذي يهدف إلى إعادة الأطراف إلى طاولة المفاوضات، في حين يركز المسار **الثاني** على الملف الأمني الذي في إطاره تم تعيين جنرال أمريكي من أجل تقدير الوضع في مناطق الضفة الغربية، وأما المسار **الثالث** فهو الملف الاقتصادي الذي حاول كيري أن تكون كافة المزايا والنوايا الحسنة المقدمة للسلطة هي اقتصادية بسبب تدهور وضعها الاقتصادي. وأضافت هذه المصادر أن نتنياهو لم يرفض فكرة إقامة مطار للطائرات الخفيفة في تخوم السلطة الفلسطينية.

وفي نفس المضمون قال وزير الدفاع الإسرائيلي، **موشيه يعلون**، "رفضنا كل الشروط المسبقة بما فيها المطالب الفلسطينية بشأن حدود ٦٧ وتجميد البناء في المستوطنات والإفراج عن السجناء".. وبناءً على مضمون هذا التصريح، إذا كان صحيحاً، فإن موافقة الطرف الفلسطيني على العودة إلى المفاوضات هي بمثابة انتحار سياسي للسلطة الفلسطينية، وبالتالي لن تغير في شيء من الظروف التي دفعتها إلى الرفض في السابق.

ومما سبق يتضح أن ثمَّة تضارباً في المعلومات حول أهم معالم الاتفاق الذي تم بين الجانبين برعاية أمريكية، وهذا بحد ذاته يضع عقبة كبيرة أمام فهم المراقبين لطبيعة المفاوضات التي تجري، ويضع علامات استفهام حول مصداقية الطرف الفلسطيني. وهذا الرأي يتأكد من خلال تسريبات – نشرتها صحيفة فلسطيننا – أفادت بأنه قد تم الاتفاق على تسعة بنود خطيرة، بموجبها تبدأ عمليات المفاوضات من جديد، وهي:

(١) استئناف المفاوضات دون شروط.

(٢) تجميد ملف اللاجئين لـ ٥ سنوات.

(٣) ضخ الأموال للسلطة الفلسطينية دون توقف من البنوك الإسرائيلية.

(٤) الاتفاق على التعاون في الملف الأمني.

(٥) ضبط الأمن في الحدود المؤقتة لتكون حدوداً آمنة.

(٦) إعلان من قبل الفلسطينيين أن إسرائيل هي دولة ذات سيادة أمام المجتمع الدولي.

(٧) فتح مطار في رام الله وتزويده بالمنشآت الكاملة.

(٨) تزويد السلطة بالسلاح وتجهيز الأجهزة الأمنية بكل ما يلزمها لأداء دورها في المحافظة على الأمن العالم في الضفة الغربية.

(٩) تجميد ملف القدس حتى إشعار آخر.

وتؤكد شخصيات قريبة من السلطة الفلسطينية أن ما تم بين الطرفين الفلسطيني والإسرائيلي برعاية أمريكية هو "رزمة تسهيلات" لتحسين نمط الحياة اليومية وفتح الباب أمام أهل الضفة الغربية للذهاب إلى السوق الإسرائيلي للتسوق، والدعاية للهبات الاقتصادية التي ستأتي نتيجة تلك الصفقة، مع بعض الرتوش السياسية التي لا تحمل أي شكل التزامي أو إلزامي، بل لا تحمل وعداً مكتوباً.

جولة كيري والثوابت الفلسطينية

ما تم الاتفاق عليه من بنود لاستئناف عملية المفاوضات، يؤكد أن هذه البنود جاءت كضربة في الصميم لكافة الثوابت الفلسطينية، حيث بدا واضحاً من خلال تسريبات – صحيفة فلسطيننا – أن ملف **الاستيطان** غير مطروح للنقاش، خاصة إذا ما أدركنا أن الحركة الصهيونية – حسب تعريف بن غوريون – هي حركة استيطانية، وبالتالي من غير المعقول أو المقبول إسرائيلياً أن يتم وقف عجلة الاستيطان، هذا في ضوء أن الاتفاق على استئناف المفاوضات جاء دون شروط، وتجميد ملف القدس حتى إشعار آخر، وضخ الأموال للسلطة الفلسطينية دون توقف من البنوك الإسرائيلية، وهو أمر مُغرٍ جداً للسلطة.

ويعزز من هذا الرأي ما صرَّح به وزير الإسكان الإسرائيلي المتطرف "أوري أريئيل"، الذي قال إنه إذا الجميع ظن بأن إسرائيل ستعمل على تجميد الاستيطان فهو مخطئ، بل سنزيد الوحدات الاستيطانية في الأماكن الضرورية. وكخطوة عملية لهذا التصريح، صادقت "الإدارة المدنية الإسرائيلية"

منتصف شهر رمضان الماضي على خطط لإقامة نحو ١٠٠٠ وحدة استيطانية في الضفة الغربية المحتلة.

وإذا مـا أكدنا أن اسـتئناف المفاوضـات جاء دون رضا الفصائـل الفلسـطينية – خاصة حماس والجهـاد – عنها، فإن هذا الأمر يقوِّض فرص تحقيق **المصالحة الفلسطينية**؛ فالمصالحة والمفاوضات خطان متوازيـان لا يلتقيان، وإذا ما قرأنا تصريح عزام الأحمد – الذي أعطى حماس مهلةً حتى ١٤ أغسـطس لإعلان المصالحة – نُدرك أن حركة فتح تبيِّت أمراً ما، في الغالب لا يصب في مصلحة حركة حماس، خاصة أن الحاكم في مصر تتقاطع مصالحه مع مصالح فتح، واستلم الرئيس عباس قبل أيام رسالة دبلوماسية من الرئيس المصري المؤقت عدلـي منصور. بمعنى آخر: المتغيـرات الإقليمية لا تصب في مصلحة حماس، وهذا يزيد من تعنت حركة فتح.

كمـا نَفَدَت وربمـا انعدمت فرصـة تحقيق **مبدأ حل الدولتين**، سـواء من جـرَّاء المفاوضات أو فـي غيابها؛ لأن إسـرائيل تواصل إقامة الآلاف من الوحدات الاستيطانية في القدس والضفة الغربية، وتبني جدار الفصل العنصري الذي قطَّع أوصال الأراضي الفلسـطينية، خاصة الضفة الغربية، الأمر الـذي قضى على أي فرصة لإقامـة تواصل جغرافي يعطي أملاً بإقامة دولة فلسطينية مستقلة.

ويمكـن إضافة أن إسـرائيل لـن تسـمح بإقامة **دولة فلسطينية** بجانب دولة إسـرائيل، فكيف لإسرائيل السماح بإجـراء يهـدد وجودها، حيـث إن الفلسـطينيين يتمددون ديمغرافياً وينافسون الإسـرائيليين في وجودهم، ومن ناحية أخرى من غير المقبول إسـرائيلياً أن يُسـمح للفلسـطينيين بإقامة دولتهم على مملكتي يهوذا والسامر.

مواقف الفصائل الفلسطينية

بمجـرد أن تم الإعلان عن بـدء المفاوضات، حتى أبدى كل فصيل فلسـطيني اعتراضه على هذه المفاوضات، وذلك انطلاقاً من تفسـيرات متفقة ومتباينـة، لدرجة أن أعضاء من حركة فتح نفسـها رفضوا المفاوضـات، وفيما يلي أبرز التصريحات بخصوص المفاوضات:

- **حركـة حمـاس** أعلنـت رفضها القاطع لعودة السـلطة الفلسـطينية إلى مربع المفاوضـات العبثية مع الاحتلال الإسـرائيلي. وأكّد عزت الرشق أن "هذه المفاوضات ثبت فشـلها وعقمها في تحقيق تطلعات شـعبنا الفلسطيني، ولن تكون إلا غطاءً لتكريس الاسـتيطان والتهويد وضياع الحقوق والثوابت الوطنية، وهي لن تلزم شعبنا الفلسطيني بشيء؛ لأنها تأتي خارج سياق التوافق والإجماع الوطني، وضد إرادة شعبنا الفلسطيني".
- **حركـة الجهاد الإسـلامي** رفضت خيار عودة السلطة إلى المفاوضات مع "إسـرائيل" اسـتجابة لجهود جون كيري، موضحة أن كيري يسـعى لاسـتغلال "انشـغال المحيط العربي" لإنهاء الصراع وإجبار الفلسـطينيين على تقديم تنازلات. وأوضـح القيادي في الحركة نافـذ عزّام، أن الصراع الفلسطيني – الإسرائيلي لا يمكن أن ينتهي "دون أن تعـود الحقوق لأصحابها"، متوقعاً فشـل جهود وزير الخارجية الأمريكي.
- أعلنت **الجبهـة الشـعبية** رفضها اسـتئناف المفاوضات الثنائية بين السـلطة والاحتلال الإسـرائيلي، بالاستناد لآراء وأفكار وزير الخارجية الأمريكية جون كيري، مشددة على أن ذلك بمثابة "انتحار سياسي". واعتبرت أن "العودة للمفاوضات بعيداً عن إطار الأمم المتحدة وقراراتها ذات الصلة بمثابة انتحار سياسي يطلق يد الاحتلال وحكومة غلاة التطرف والاسـتيطان في اقتـراف أفظع الجرائم بحق الإنسان الفلسطيني وأرضه ومقدساته".
- القيـادي فـي **حركـة فتـح** نبيل عمرو هاجم السـلطة واتهمها بالتراجع عن مواقفها بسهولة تامة، مشدداً على أن السـلطة تعاني أزمة في القيـادة أكثر بكثير من أزمة السياسـة، على حد قوله. وقال عمرو: "لقد بدا واضحاً أن هذه القيادة تجيد لغة التشـدد، لكنها في نهاية الأمر تسلّم بالأمر الواقع".
- **حركة المبادرة الوطنية** الفلسطينية أعلنت رفضها العودة إلى المفاوضات مع إسرائيل دون مرجعية واضحة ومحددة تكون حدود الرابع من حزيران لعام ٦٧ أساسـاً لها وتقر بها إسـرائيل ووقف الاسـتيطان في جميـع الأراضي الفلسـطينية المحتلة بما فيها القدس. واعتبرت الحركة أن إجراء المفاوضات في ظل اسـتمرار الاستيطان يعني أن إسـرائيل ستسـتغلها غطاء لمشـاريعها الاستيطانية التوسعية.
- **الجبهـة الديمقراطيـة** اعتبرت أن العرض الذي تقدم به

جون كيري غير كافٍ لاستئناف العملية السياسية من جديد وإطلاق المفاوضات مع الجانب الإسرائيلي، مشيرةً إلى أن استئناف المفاوضات يتطلب اعتراف إسرائيل بحل الدولتين على أساس حدود عام ١٩٦٧ كأساس لعملية السلام، ووقف النشاطات الاستيطانية، وإطلاق سراح قدامى الأسرى.

التصريحات السابقة واضحة في مضمونها، ومفادها أنه لا قبول بمبدأ المفاوضات بعدما ضاع الجزء الأكبر من التراب الفلسطيني من جرَّاء الاتفاقيات السابقة، وهذا ما يضع عقبة كؤوداً أمام سير المفاوضات، وبالتالي فإن ذلك سيسهم قدر الإمكان في إعاقة المفاوضات رغم غطائها العربي.

آفاق المفاوضات في ضوء الوضع الراهن

يبدو، منذ اللحظة الأولى للإعلان عنها، أن هذه المفاوضات تحمل عوامل فشلها في جنباتها، وما يؤكد ذلك أن **الجانب الفلسطيني** ضيف جداً، ومنقسم على نفسه، ويتجاهل حركتي المقاومة الإسلامية (حماس والجهاد)، وهناك رفض كبير من الشرائح الفلسطينية ومن حركة فتح أيضاً لهذه المفاوضات، هذا في ضوء أن تصريحات قيادات فصائل منظمة التحرير أكدت أن الرئاسة اتخذت القرار دون مشورة هذه الفصائل أو العودة إليها، وبالتالي هناك تضليل إعلامي مارسته السلطة الفلسطينية من أجل تسويق المفاوضات، وهذا ما يعجِّل في انهيارها.

ومن **جانب إسرائيل**، فإن تصريحات قادة بارزين تؤكد هذا الرأي، حيث صرَّح وزير الخارجية الصهيوني الأسبق، "أفيغدور ليبرمان"، بأن "الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي غير قابل للحل، ويمكن فقط إدارة الصراع". وأضاف "أبو مازن لا يمثل سكان قطاع غزة ولا الضفة الغربية وشرعيته السلطوية غير واضحة من الناحية القانونية". وهذا الأمر كانت تتمسك به إسرائيل من قبل، حيث أخبروا أبا مازن أنه لا يمثل كامل الشعب الفلسطيني، ومن المتوقع إعادة هذا الطرح من جديد.

أمَّا وزير الإسكان الإسرائيلي المتطرف "أوري أريئيل" فقد عقّب بخصوص الإفراج عن الأسرى قائلاً: "إن هذه الخطوة ستهدد أمن إسرائيل وليست من مصلحتها". وبالتالي لن تقبل إسرائيل أي شيء يمكن أن يهدد أمنها، هذا في ضوء أن موضوع الأمن صاحب نصيب الأسد في الاتفاق الجديد.

أما وزير العلاقات الدولية الإسرائيلي "يوفال شتينيتز"، فقد قال إن إسرائيل لن تقدم أي تنازل حول "مسائل دبلوماسية"، ولم يتم التوصل إلى أي اتفاق حول تجميد الاستيطان أو حول الإشارة إلى حدود عام ١٩٦٧، وهما مطلبان فلسطينيان أساسيان.

أما نائب وزير الجيش الإسرائيلي "داني دانون" فقد اعتبر أن إقامة دولة فلسطينية على حدود ٦٧ يعرض وجود إسرائيل للخطر، كما أنه عارض إطلاق سراح أسرى قدامى حتى يتم التوصل إلى توقيع اتفاق شامل مع الفلسطينيين.

أما عضو الكنيست من حزب الليكود "هنيغبي" فقد اعتبر أنه ليس من المفترض أن يكون هناك إفراج عن أسرى فلسطينيين قبل الاجتماع التمهيدي بين الجانبين الإسرائيلي والفلسطيني في واشنطن. وأشار إلى أن تقديم إسرائيل مبادرة حسن نية أخرى للفلسطينيين يعتبر شوطاً كبيراً لبناء الثقة، على حد تعبيره.

وصدر مؤخراً تصريح عن رئيس الوزراء "نتنياهو" مفاده أن أي اتفاق سيتوصل إليه الجانبان سيتم عرضه في استفتاء عام على "الشعب الإسرائيلي".

كل العوامل السابقة ستجعل من الوصول إلى حل بين الطرفين أمراً في غاية الصعوبة، وبالتالي تفشل المفاوضات، ويعود الطرف الفلسطيني إلى نقطة الصفر.

خلاصة

تضارب المعلومات الواردة حول شروط الاستئناف، وتضارب وجهات النظر الفلسطينية وعدم اتفاقها على رؤية واحدة، وكذلك الحال بالنسبة للطرف الإسرائيلي؛ كل هذه العوامل تضعنا أمام جملة من التساؤلات: إلى متى من الممكن أن تستمر عملية المفاوضات؟ وهل ستقبل إسرائيل أن تتنازل للفلسطينيين عن أراضي الـ ٦٧؟ وهل ستقبل إسرائيل أن تفاوض السلطة في ضوء دعوة عزام الأحمد للمصالحة؟ وما خيارات وبدائل السلطة الفلسطينية في حال انقضت مدة المفاوضات دون إحراز إنجاز؟ وكيف ستتعامل السلطة الفلسطينية مع موضوع المصالحة في ضوء تعارض هذا الموضوع مع مبدأ المفاوضات؟

قريبًا

افتتاح البوابة الإلكترونية..
لمركز تفسير بثوبها الجديد

- نوافذ علمية
- المكتبة القرآنية
- قاعدة البيانات القرآنية
- تصنيف موضوعي للمحتوى

- رابطة المتخصصين
- خدمة الاستشارات
- الأخبار القرآنية
- إضافات علمية متجددة

تفسير
مركز تفسير للدراسات القرآنية
Tafsir Center for Qur'anic Studies

WWW.TAFSIR.NET

برعاية: شركة محمد عبدالعزيز الراجحي وأولاده القابضة
MOHAMMED ABDULAZIZ AL-RAJHI & SONS HOLDING CO.

sponsored by:

أول أكاديمية متخصصة تعنى بصناعة المفسر
وتعتمد التعليم عن بعد

الآن
بدأ التسجيل الدفعة الثانية

أكاديمية تفسير
TafsirAcademy

www.tafsiracademy.com

"أحب الناس إلى الله أعلمهم بما نزل" مجاهد

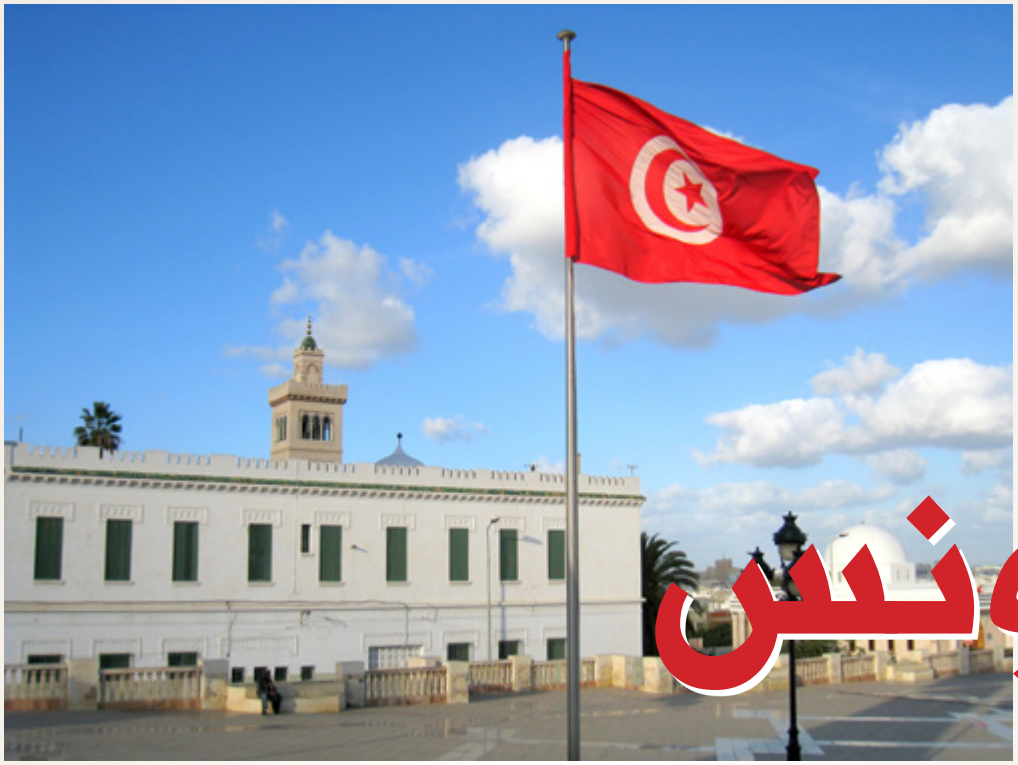

تونس وهواجس الانقلاب العسكري في مصر

■ عبد الرحيم بلشقار بنعلي
belechekar@gmail.com

تخوض الأحزاب السياسية المعارضة في تونس، منذ أزيد من شـــهرين، هجمة «شرسة» على التحالف الحكومي الذي تقوده حركة النهضة؛ من أجل إسقاط التجربة الديمقراطية الفتية.. فقد استغلت المعارضة أجواء «التمرد» على الرئيس المصري محمد مرســـي وحكومة هشام قنديل، وأعلنت يوم ٨ يوليو الماضي تشـــكيل «جبهة تمـــرّد» على غرار ما جرى في مصر، وجعلت حلَّ المجلس الوطني التأسيســـي (مجلس الشـــعب)، وحلَّ المؤسسات المنبثقة عنها الحكومة والرئاسة؛ هدفاً لها.

وجاءت هذه الهجمة بعد وقت قصير من تجاوز الحكومة التي تقودها حركة النهضة، تداعيات مقتل اليساري شكري بلعيد فـــي فبراير الماضي.. وفي ســـياق الترتيبات الأخيرة لإنهـــاء المرحلة الانتقاليـــة، وفي الوقت الـــذي أعلنت فيه الحكومة اســـتعدادها للحوار مع المعارضة والاســـتماع إلى

مطالبهـــا؛ أُعلن مقتل المعارض اليســـاري الآخر، والنائب في المجلس التأسيســـي (البرلمان التونســـي المؤقـــت) عن حركة الشعب، محمد البراهمي، على يد مسلحين مجهولين، صباح الخميس ٢٥ يوليو المنصرم، وهو ما استغلته المعارضة التونسية لإعطاء زخم جديد لدعوات «التمرد»، وأجَّجت الشـــارع ضد الحكومـــة، وأعلنت مطالب تعجيزية، ودخلت البلاد في دوامة أزمة سياســـية ما زالت تداعياتها تراوح مكانها بعد أكثر من شهر على انفجارها.

تداعيـات اغتيـال البراهمي.. تصعيـد المعارضة وتنازل الائتلاف الحكومي

بعد وقوع الحادث خرجت الأطراف السياســـية المعارضة في تونـــس بمواقف بدت وكأنها جاهزة، فقد أعلنت خروجها عن الســـكة، ودعت إلى إضراب عام وعصيـــان مدني حتى إسقاط الحكومة والمجلس التأسيسي، ونادت بتحكيم الشارع؛ في سيناريو شبيه بما حدث في مصر قبل الانقلاب.

وكانت أبرز تداعيات هذا الحادث:

- انسحاب ٦٠ نائباً من المجلس التأسيسي (البرلمان).
- تشكيل جبهة إنقاذ وطني على غرار «جبهة الإنقاذ» في مصر.
- في ١٠ يوليو رئيس المجلس الوطني التونسي التأسيسي (البرلمان) يجمد أعمال المجلس احتجاجاً على مشاركة نواب معارضين فـــي مظاهرة القصبة من أجل تجييش الشارع ضد التحالف الحكومي الحاكم.
- الاتحاد العام التونسي للشغل يدعو لإضرابات عامة.
- المعارضـــة تنصب معتصماً أمام مقـــر المجلس الوطني التأسيسي بساحة بارودو في العاصمة مطالباً بالرحيل.

وفي محاولة لاحتواء الوضـــع وتهدئة تصعيد المعارضة، اســـتنكر رئيس الحكومة التونســـية، علـــي العريض، صدور مواقف بعد دقائق معدودة على حادث اغتيال البراهمي تنادي بالخروج عن السكة وتنادي بالتقاطع، وأعلن استعداد حكومته للجلـــوس على طاولة الحـــوار مع المعارضة والاســـتماع إلى مطالبها والتباحث من أجـــل إيجاد صيغة للخروج من الأزمة السياسية.

من جهته، استغرب راشد الغنوشي، زعيم حركة النهضة، استغلال المعارضة حادث الاغتيال وتصريف مواقف سياسية تميل لدعوات «الانقلاب» في مصـــر، على حد وصفه. وأكد ضرورة إتمام الحكومة مهامها فيما تبقى من المرحلة الانتقالية التي ستتوَّج نهاية العام الجاري بإجراء انتخابات حرة ونزيهة.

أما الرئيس التونسي، المنصف المرزوقي، فاعتبر استهداف حياة المعارض اليســـاري، محمد البراهمي، استهدافاً للتوافق السياســـي واســـع النطاق بـــين كل أطـــراف المجتمع المدني والسياســـي التونســـي حول الدستور، واســـتهدافاً للانتقال الديمقراطـــي في مراحلـــه الأخيرة. ودعـــا المعارضة للعودة للهدوء في أقرب وقـــت، والجلوس على طاولة الحوار لعرض مطالبها.

ورغم كل المحاولات التي قدمتها الحكومة وحركة النهضة ومـــا زالت لتهدئة الوضع والتقدم إلـــى الأمام، فإن المعارضة تمسَّكت بعناد كبير وتشـــبَّثت بمطالب أعلنت عنها قبل مقتل البراهمي، ونصبت خياماً أمام مقر المجلس التأسيســـي في العاصمة تونس لتنفيذ «الاعتصام المفتوح»، على غرار ما وقع فـــي مصر، ودعت إلى ما أســـمته «أســـبوع الرحيل» بين ٢٤ و٣١ أغســـطس، وهو البرنامج الزمني الذي حددته لإسقاط الحكومة التي تقودها حركة النهضة الإســـلامية، عبر تنظيم تظاهرات حاشدة في مختلف أنحاء البلاد.

حركة تمرد وجبهة الإنقاذ التونسـية.. استنساخ السيناريو المصري

في سيناريو شـــبيه بإنشـــاء حركة تمرد المصرية، أعلن شباب تونســـيون، بالتزامن مع الانقلاب العسكري في مصر، تأســـيس حركة أطلقوا عليها اســـم «تمرد من أجل تونس»، تهدف إلى جمع توقيعات شـــعبية لإســـقاط مشروع الدستور التونســـي الحالي، وإعادة السلطة للشعب، وانطلقت في جمع التوقيعـــات من المواطنين لرفع دعـــوى قضائية لدى المحكمة الإدارية لحلِّ المجلس الوطني التأسيسي المنبثق عن انتخابات ٢٣ أكتوبر ٢٠١١، وحلِّ الحكومة، ورئاسة الجمهورية.

وبعد مقتل المعارض اليســـاري محمـــد البراهمي، أعلن تشكيل «جبهة الإنقاذ التونســـية» من كتلة الأحزاب اليسارية

والعلمانيـــة والقومية، وحركة تمـــرد. وأعلنت «جبهة الإنقاذ» فـــي بيان لهـــا توليها اســـتكمال صياغة الدســـتور في بحر شـــهرين يعرض على الاســـتفتاء الشعبي، وتشـــكيل حكومة إنقاذ وطني محدودة العدد لا تترشـــح في الانتخابات القادمة متطوعة برئاسة شخصية وطنية مستقلة متوافق عليها تتخذ ضمن برنامجها جملة الإجراءات الاســـتعجالية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والأمنية، وتعد لانتخابات ديمقراطية نزيهة وشفافة.

وتشترك جبهة الإنقاذ التونسية مع نظيرتها المصرية في تشكيلتها التي تضم أطرافاً سياسية معروفة بعدائها الشديد للإسلاميين، غير أنها تختلف عنها في قبولها بالجلوس على طاولة الحوار مع الحكومة والرئاســـة وحركة النهضة، بعكس نظيرتها المصرية التي كانت ترفض كل مبادرات الحوار.

استفزاز المعارضة ومرونة التحالف الحكومي

أبدى التحالف الحكومي المشـــكل للأغلبيـــة الممثلة في المجلس الوطني التأسيســـي في تونـــس، والمتكوّن من حركة النهضة التي يتزعّمها المفكر الإســـلامي راشـــد الغنوشـــي، وحزب المؤتمر من أجـــل الجمهورية الذي ينتمي إليه الرئيس المنصف المرزوقي، وحزب التكتل الديمقراطي من أجل العمل والحريات الذي ينتمي إليه رئيس المجلس التأسيسي مصطفى بن جعفـــر؛ مرونة كبيرة فـــي التعامل مع دعـــوات «التمرد» للاحتشاد ضد الحكومة، فقد كان زعماء التحالف الحكومي فـــي الوقت الذي يقترحون فيه علـــى المعارضة الجلوس على طاولة الحوار للتباحث بشـــأن مطالبها؛ يبعثون رســـائل قوية إليها تحذرهم من مغبَّة محاولة استصدار السيناريو المصري وإسقاطه على تونس.

ففي تجمّع خطابي حاشـــد وصف راشد الغنوشي إصرار بعض أطراف المعارضة على المطالبة بحل المجلس التأسيسي بأنه محاولة لاســـتيراد الانقلاب المصري إلى تونس. وأكد أن الجيش الوطني التونســـي ليس انقلابياً، وقال «من ظنوا بأن المثال المصري يمكن أن يُستورد إلى تونس فهم مخطئون».

وأشهر الغنوشي ورقة الاستفتاء الشعبي في وجه المعارضة إذا أصـــرت علـــى مطالبها غير الواقعيـــة، على حد وصفه. وأكد ضرورة اســـتكمال الحكومة والمجلس التأسيسي مهمته في غضون الأربعة أشـــهر المتبقية من مدة الفترة الانتقالية، وبعدها سيكون موعد جميع الأحزاب والأطراف السياسية مع محطة الانتخابات، وستتغير الحكومة بالطريقة الديمقراطية، يؤكد الغنوشي.

من جهته، اتهم رئيس الحكومة التونســـية، علي العريض، بعض الأحزاب المعارضة باســـتغلال حركة «تمرد التونســـية» على الحكومـــة منذ تولّيها الحكم، معتبـــراً أن الدعوات إلى حلّ المجلس التأسيســـي وإسقاط الحكومة خطر يهدّد المسار الديمقراطي. وأكد أن «تمرد وجبهة الإنقاذ» استنساخ لتجربة أجنبية غريبة عن البلاد، في إشارة إلى حركة «تمرد» المصرية.

وبالمـــوازاة مـــع ذلك نزل مئـــات الآلاف من التونســـيين في مناســـبتين خلال هذه الفترة، واســـتنكروا فيهما مطالب المعارضة، وأعلنوا تمسّكهم بالشـــرعية الانتخابية وبالتداول الديمقراطي على السلطة.

الجيش عنصر أساسي في معادلة مختلفة بين تونس ومصر

لا تختلف معادلة الفوضى السياســـية الدائرة في تونس عمـــا وقع في مصـــر قبل الانقلاب؛ ففي مصر تم تأســـيس

جبهة ضمت أحزاباً معارضة وأغلبها معروفة بكرهها الشديد لجماعة الإخوان المسلمين، وبعد ذلك أعلن تأسيس حركة أطلقوا عليها اسم «تمرد»، وشرعوا في جمع التوقيعات بشتى الوسائل، من بينها العنف والمال، بحسب تحقيقات صحفية، وحشدوا المصريين على الرئيس وحكومته، مستغلين معاناة الشارع المصري من الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية الصعبة التي كانت تمر بها مصر، علاوة على تجييش إعلامي منقطع النظير ضد الرئيس محمد مرسي وجماعة الإخوان المسلمين.

وعلى النهج ذاته تعمل المعارضة التونسية منذ نحو شهر، فباستثناء حياد الجيش في تونس يبدو المشهد متقارباً، لكن السؤال المطروح هو لماذا ظل الجيش في تونس طيلة الفترة الانتقالية بعيداً عن المشهد السياسي بينما تدخّل في مصر في شتى محطات المرحلة الانتقالية، انتهاء بتنفيذ انقلاب عسكري، فما الفوارق بين الجيشين المصري والتونسي؟

يرى عبد الرحيم الشلفوات، باحث في جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء في العلاقات الأمريكية – المغاربية، ومهتم بالمشهد السياسي في منطقة شمال إفريقيا؛ أن الجيش المصري ألف أن تكون القيادة السياسية المدنية خاضعة له. ويعتقد «الشلفوات» أن هذا السبب هو الذي دفع الجيش لإزاحة مبارك؛ لكون الأخير كان يعدّ ابنه لتولي الحكم، وهو على فساده ليس عسكرياً، فضلاً عن أن جيش مصر له نفوذ تاريخي ورمزي قوي منذ انقلاب الضباط الأحرار.

في مقابل ذلك، تختلف وضعية الجيش في تونس، بحسب «الشلفوات»، فقد ظل مراقباً وخارج اللعبة، كما يبدو ظاهرياً لحد الساعة، ولم يصدر عنه تصريح أو مقال أو بيان حول مختلف الأحداث السياسية التي شهدتها تونس منذ سقوط النظام السياسي البائد، ويرجع ذلك، بحسب شلفوات، لكون أن الجيش في تونس ليس بنفس قوة الجيش في مصر، بحيث إن الجيش الوطني التونسي أو القوات المسلحة التونسية يتكون من ٣٥,٥٠٠ فرد، منهم ٢٧٠٠٠ في القوات البرية التونسية، بينما يبلغ عدد أفراد الجيش المصري والقوات المسلحة ٤٦٨,٥٠٠، يوجد مثلها في الاحتياط، وعلاوة على ذلك فإن نظام الرئيس المخلوع بن علي كان نظاماً بوليسياً همش دور العسكر خشية الانقلاب عليه، بعكس النظام في مصر فقد كان الرئيس المخلوع مبارك عسكرياً.

مستقبل تونس.. تفاؤل حذر واستبعاد لتكرار سيناريو الانقلاب في مصر

يرى عبد الرحيم الشلفوات أن هناك اختلافاً في بعض التفاصيل في الحالة التونسية عن الحالة المصرية؛ ففي تونس تتركز هجمة المعارضة على ضرب التجربة الإسلامية تحت شعار «اغتل يسارياً وأزح إسلامياً من السلطة»، ويرجع ذلك لسببين، الأول: أن العلمانيين في تونس أكثر توغلاً في المجتمع بعكس مصر، وأن بعضهم عانى أيضاً من قمع الرئيس المخلوع بن علي. والسبب الثاني: أن الحركة الإسلامية في تونس، ممثلة في حزب النهضة، أكثر مرونة وإدراكاً من نظيرتها المصرية؛ لأنها عاشت لردح من الزمن مقسَّمة بين الخارج والسجون والداخل الممنوع من التجمّع.

وأضاف «شلفوات» عاملاً آخر تميَّزت به تجربة الحركة الإسلامية في تونس عن مصر، وهو حرص حركة النهضة على تأسيس كتلة وطنية مبنية على الإخلاص للوطن وعلى الديمقراطية والتوافق أكثر من حرصها على كتلة مبنية على الاختلاف الفكري، وهو ما ظل يؤكده راشد الغنوشي باستمرار.

وبعيداً عن التحليلات النظرية، تعيش الساحة السياسية في تونس على صفيح ساخن، ففي الوقت الذي تقدم فيه حركة النهضة وشركاؤها في التحالف الحكومي مجموعة من التنازلات بقصد التوصل إلى حل سياسي، ترفع المعارضة المتمثلة في «جبهة الإنقاذ» و«حركة تمرد» سقف مطالبها وتصرُّ على حلِّ المجلس الوطني التأسيسي والمؤسسات المنبثقة عنه (الحكومة والرئاسة)، وهو المطلب الذي أكد مجلس شورى حركة النهضة في اجتماع له رفضه القاطع بشأنه، مشدداً على ضرورة إنهاء الحكومة فترتها الانتقالية للانتقال بالبلاد إلى وضع سياسي آمن، لكنه عاد ووافق على حلّ الحكومة وتكوين أخرى غير حزبية.

وبين تصعيد المعارضة في هجمتها على الحكومة، ومرونة الأخيرة في ردود أفعالها؛ يبقى المستقبل السياسي في تونس ومعه تجربة الانتقال الديمقراطي، مفتوحاً على جميع الاحتمالات، غير أن الذي يُجمِع عليه كثير من المراقبين هو استبعاد السيناريو المصري والمتمثل في الانقلاب العسكري كخيار لحسم موازين القوى بين الترويكا الحاكمة بقيادة حركة النهضة الإسلامية والمعارضة.

الجيش الصهيوني..

العقيدة القتالية وتحديات المستقبل

■ أحمد أبو دقة
ahmad_dakkah@hotmail.com
adakkah

أصدر مركز الزيتونة للدراسات تقريرَ معلومات حول الجيش الصهيوني تناول فيه تفاصيل مثيرة حول نشأته وكتائبه وأسلحته ومصادر تمويله، وكذلك مصانع السلاح التي أنشأها الكيان لإمداد هذا الجيش. وفي حال قراءة التقرير تتبادر إلى ذهن القارئ فروقات كبيرة بين تركيبة الجيش الصهيوني والجيوش العربية التي لا تزال منذ نشأتها تستورد أسلحتها من أعدائها وأعداء أمتها.

يطلق الجيش الصهيوني على نفسه اسم "جيش دولة إسرائيل"، ويخضع لحكم مدني ديمقراطي يستلهم من قوانين الدولة، وتلخص الغاية من وجوده في حماية الكيان الصهيوني وحماية استقلاله وإحباط جهود الأعداء في إحباط الحياة الطبيعية فيه.

تبيِّن استطلاعات الرأي الصهيونية أن ٨٥,٢٪ من مواطني الكيان الصهيوني راضون عن أداء جيش بلادهم، باعتباره المؤسسة الأولى في الدولة التي تتمتع بهذه الثقة.

وبالرجوع إلى التاريخ قليلاً فإننا نجد أن الجيش الصهيوني تم تأسيسه بتاريخ ٢٦/مايو/١٩٤٨م، أي بعد إعلان استقلال الكيان الصهيوني بـ ١٢ يوماً، وبذلك تنتهي مرحلة العمل السري التي قامت بها منظمات يهودية مختلفة، أبرزها "الهاغانا"، للسيطرة على أراضي الشعب الفلسطيني وممتلكاته. كانت نواة الجيش تتكون من سبعة ألوية نظامية، وثلاثة ألوية من "البالماخ"، وهي قوة خاصة تتبع عصابات "الهاغانا"، وتم تزويده في البداية بأسلحة تشيكية وفرنسية.. وجاء في المرسوم التأسيسي للجيش الذي أعلنته الحكومة برئاسة ديفيد بن جوريون في ٣١/مايو/١٩٤٨م، أنه ينشأ بناءً على هذا المرسوم "جيش الدفاع الإسرائيلي"، ويكون من الأسلحة البرية وسلاح الطيران وسلاح البحرية، وفي حالة الطوارئ يطبَّق التجنيد الإجباري لجيش الدفاع بكل أذرعه، مع تحديد سن المكلفين بالخدمة وفقاً لقرار من الحكومة، وكل من يخدم في الجيش ملزم بأداء قسم الولاء لـ "دولة إسرائيل"

ودستورها وسلطاتها المتعددة، وبموجب المرسوم الحكومي تم حظر إنشاء أي قوة عسكرية خارج نطاق وزارة الجيش الإسرائيلي.

ويقول تقرير "الزيتونة" إن فكرة تأسيس الجيش الصهيوني كانت في البداية ضمن مساعي منظمة "بارجيورا"، وهي منظمة صهيونية سرية تم تأسيسها في فلسطين عام ١٩٠٧م لحماية المستوطنات اليهودية في الجليل، حتى توسعت وأصبح اسمها منظمة "هاشومير"، وتعني بالعربية الحارس. وملخص تاريخ تأسيس الجيش الصهيوني أنه تأسس من عصابات، منها: "الأرجون، واشتيرن، والهاغنا"، وبعض الكتائب التي جاءت من بريطانيا والولايات المتحدة دعماً للوجود اليهودي، إضافة إلى اليهود العرب الذين زحفوا باتجاه فلسطين.

في الوقت الحالي يبلغ عدد عناصر الجيش الصهيوني ٦٢١,٥٠٠، منقسمين بين جميع الوحدات، ويتكوّن الجيش من خمسة أقسام، هي: قيادة المنطقة الشمالية، وقيادة المنطقة الجنوبية، وقيادة الجبهة الداخلية، والقيادة الوسطى، إضافة إلى هيئة الأركان والتي تتألف من عدة أجنحة، وهي: (النقل والإمداد، العمليات، الاستخبارات العسكرية، التخطيط، تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، والموارد البشرية).

من أبرز القواعد التي يبني عليها الجيش الصهيوني استراتيجيته العسكرية، عسكرة التجمعات الاستيطانية ورفع كفاءة المقاتل ونوعية السلاح، إضافة إلى الحرب الوقائية وقوة الردع ونقل المعارك إلى أرض العدو وبناء الأحزمة الأمنية والمرونة وسهولة اتخاذ القرارات الميدانية والتحكم في تسلح الأطراف المعادية. كما يتبنّى الجيش نظرية أمنية على أساس الحرب في أي لحظة، وكذلك سرعة الهجوم والدفاع والمفاجأة والضربة الاستباقية.

وتجبر القوانين في الكيان الصهيوني جميع المواطنين على أداء الخدمة العسكرية من سن ١٨-٥٥ عاماً للرجال، ومن ١٨-٣٨ عاماً للإناث، وتصل مدة الخدمة إلى ثلاثة أعوام للرجال، وسنتين للنساء. أما بالنسبة لأبناء الأقليات، فإن الخدمة تكون تطوعية باستثناء الدروز والشركس، كما يُعفى أبناء المدارس الدينية اليهود من الخدمة طالما هم متفرغون للدين.

ومع انتهاء فترة الخدمة فإن الاحتياط في الجيش مجبر على التدريب يوماً كل شهر أو ثلاثة أيام كل ثلاثة أشهر، ويخوَّل وزير الدفاع باستدعاء الاحتياط بشرط عرض أسباب مقنعة أمام لجنة الشؤون الخارجية والأمن في الكنيست.

تخدم المرأة في الجيش الصهيوني في مجالات عدة، منها: التمريض وصيانة الأسلحة والمراسلات السرية للجيش، ووفقاً لإحصاءات عام ٢٠١٠، فقد شكلت المرأة ٣٤٪ من جنود الجيش الصهيوني، كما أن نحو ٨٨٪ من أقسام الجيش متاحة للنساء، وفي عام ٢٠١١ تم تعيين أول امرأة برتبة لواء في الجيش الصهيوني وهي أورنا باربيباري.

الدين في الجيش

يقول تقرير مركز الزيتونة إن المؤسسة العسكرية الصهيونية تنقسم من حيث ولائها بين الجنرالات والمؤسسة الدينية التي يقودها الحاخامات، ففي عام ٢٠٠٩ ظهرت أزمة في الجيش على خلفية رفض جنود متدينين أوامر بإخلاء مستعمرات يهودية في الضفة المحتلة، وعلى أثر ذلك طلب الجيش من الحاخامات إرسال طلبتهم إلى الجيش والتنديد علناً بعصيان الجنود للأوامر، وبحسب الجنرال توفي زامير، مدير الموارد البشرية في الجيش الصهيوني، فإن بعض الحاخامات يحضون أتباعهم الشباب على عصيان الأوامر المخالفة لمعتقداتهم.

وبحسب صحيفة معاريف، فإن ثلثي قادة الأطقم والسرايا ونوابهم بمن فيهم قائد وحدة شيدلاغ، وهي أكثر الوحدات في سلاح الجو نخبوية؛ هم من التيار الديني الصهيوني.

العرب في الجيش

في عام ١٩٤٩م أنشأ الكيان الصهيوني وحدة ضمن صفوف الجيش أطلق عليها وحدة الأقليات، كانت تتكوّن من ٨٥٠ عنصراً من الدروز والبدو والشراكسة ويهود من جنسيات مختلفة، جرى تجميعهم نظراً لدورهم في التعاون مع العصابات الصهيونية قبل تأسيس الكيان.

في عام ١٩٥٤م قررت وزارة الجيش فرض التجنيد الإلزامي على الشبان العرب، لكن تم تعديل القوانين الخاصة بذلك لتشمل فقط الدروز، بعد اتفاق مع قيادة الطائفة الدرزية، لكن الموقف الدرزي انقسم بعد ذلك، حيث أعلن أبرز شيوخ الطائفة الشيخ فرهود فرهود رفضه التجنيد باعتباره انعزالاً عن أبناء المجتمع.

وتقدر إحصائية نشرتها الصحفية منى أبو شحادة، عدد العرب العاملين في الجيش الصهيوني بـ ٥ آلاف مجند، بينما يقدر عدد الدروز بـ ١٧ ألف جندي.

انقسم الدروز في الموقف من إجبار أبنائهم على التجنيد؛ فبعض القيادات الدينية تطالب بهذا القانون، وكانت ذريعتها أن التجنيد مدخل للحصول على مكاسب وامتيازات على أنه إعلان الولاء لـ "دولة إسرائيل"، لكن البعض الآخر رفضه مثلما ذكرنا سابقاً باعتباره سبباً في ابتعادهم عن شعبهم.

وبحسب التقرير، فإن الدعوة إلى تعديل قانون "طال" شكلت مدخلاً لمطالبة أحزاب صهيونية بتطبيق الخدمة الإلزامية على الحريديم وفلسطينيي عام ١٩٤٨م، وأثارت هذه الدعوات جدلاً واسعاً داخل المجتمع العربي، حيث رفضها ممثلوهم في الكنيست وفي الأحزاب السياسية، معتمدين على أنه لا يمكن تنفيذ هذه الدعوة بالتزامن مع انتقاص الحكومة الصهيونية لحقوق هؤلاء.

ورغم أن الإحصاءات تفيد بمقتل ٣٥٠ من الجنود الدروز في الجيش الصهيوني، إلا أن النظرة العنصرية الصهيونية إليهم لم تتبدد، وولاؤهم للكيان الصهيوني لا يزال مشكوكاً فيه لدى دوائر الأمن الصهيونية، ولا تتم ترقيتهم في الرتب العالية.

المناورات والصناعات العسكرية

يُجري الجيش الصهيوني مناورات عسكرية في الداخل والخارج، منها: "نقطة تحول"، و"حجارة النار"، و"دمج الأذرع العسكرية"، و"اللهب البرتقالي"؛ وذلك لمواجهة سيناريوهات نشوب حرب وسقوط صواريخ من إيران ولبنان وقطاع غزة، وكذلك مواجهة عمليات تفجيرية وحدوث كوارث بيئية. كما يشارك الجيش بمناورات مشتركة مع دول حليفة، أبرزها مناورات جوية سنوية يقيمها سلاح الجو الصهيوني مع نظيره الأمريكي، إضافة إلى مناورات مع الجيش الإيطالي، وجرت في يونيو ٢٠٠٩ مناورات فوق شرق البحر المتوسط واليونان شاركت فيها أكثر من مائة طائرة من طراز إف ١٦، وقد طارت تلك الطائرات مسافات بلغت ٩٠٠ ميل، وهي المسافات عينها بين الكيان الصهيوني والمنشآت النووية الإيرانية، إضافة إلى مناورات كانت تجريها تل أبيب مع تركيا لكنها ألغيت عام ٢٠٠٩ بسبب التوتر بين البلدين.

أما بخصوص الصناعات العسكرية والتسليح، فإنها عنصر أساسي داعم للجيش الصهيوني والاقتصاد الصهيوني، ويرجع ذلك لاهتمام الاستراتيجية الصهيونية به. ومن أبرز المنشآت العسكرية الصناعية شركة (ImI)، وشركة سولتام. ويتنوع الإنتاج، حيث تنتج الأسلحة الصغيرة والأسلحة الثقيلة، مثل: دبابات الميركافا والمدافع والعربات المدرعة والألغام والقنابل الارتجاجية ومواد الحرب الكيمياوية والهاونات بأنواعها.

ويمتلك الجيش الصهيوني ٣,٦٧٠ دبابة بأنواعها المختلفة، كما تخدم لديه ٨,٤٧٥ ناقلة جند، إضافة إلى ٨٩٦ مدفعية، و٦,٤٤٠ مدفع هاون بعيارات مختلفة.

أسلحة متطورة

– مارس ٢٠٠٥: تطوير قذيفة صاروخية يصل مداها إلى ١٥٠ كلم، وأطلق عليها اسم "إكسترا".

– أكتوبر ٢٠٠٥: أعلنت صحيفة "هآرتس" تطوير الجيش أعيرة نارية يطلق عليها "فاصوليا"، وهي عبارة عن أكياس كروية الشكل مصنعة من البلاستيك المقوّى.

– ديسمبر ٢٠٠٥: طوّر علماء سيارة عسكرية تقاد بالتحكم عن بُعد لاستخدامها في العمليات العسكرية.

– ٢٠٠٦/١١: بدأت الصناعات العسكرية الصهيونية بتطوير أسلحة باستخدام تقنية النانو، منها: "ذراع ستيف أوستن"، و"لآلئ الحكمة"، و"دبور الذكاء"، وهو عبارة عن طائرة متناهية الصغر من دون طيار بحجم حشرة الدبور، تنقل الصور مباشرة إلى قاعدة المراقبة، كما بإمكانها حمل

شحنة تفجيرية لتنفيذ اغتيالات. أما "ذراع ستيف أوستن" فهي قفاز يرتديه الجندي فتتعاظم قوة يده بشكل كبير للغاية ليتمكّن من اقتحام الأبواب ورفع الأجسام الثقيلة.

– سبتمبر ٢٠١٠: أعلن الجيش تطوير منظومة الشبح ووصفت بأنها قادرة على إصابة الأهداف بفعالية عالية، وهي قاذف قنابل يدوية باستطاعته التعامل مع أهداف مكشوفة أو خفية بعيدة عن خط رؤية الجنود.

أما بخصوص الصناعات الجوية، فلها نشاط واسع داخل الكيان الصهيوني، ومن أبرز المنشآت العاملة في هذا المجال: مؤسسة الصناعات الجوية الصهيونية، وشركة بيت شيم ش وتاديران، ويشمل تصنيعها طائرات مقاتلة مثل فانتوم ولاقي وطائرات وست ونسد المروحية وطائرات دون طيار ومحركات نفاثة خاصة بطائرات نوحاماحستر وكفير ومحرك المروحية سوبر فريلون.

وتصنع أيضاً طائرات من نوع كفير وشماي هوك وفانتوم وفوجاماجستر وماستيف وسكاوت وبايونير، وكذلك طائرة "بي بي إل. آي"، وهي مخصصة للقيام بمهام اعتراض الصواريخ البالستية.

وتنشط في الجيش الصهيوني كذلك الصناعات البحرية، حيث تقوم شركة أحواض السفن الصهيونية، وهي حكومية مقرها مدينة حيفا المحتلة، بصناعة السفن بأنواعها، ومنها قوارب ومنصات إطلاق الصواريخ وسفن إنزال الدبابات والزوارق السريعة وقوارب ساعر وغشيف المزودة بصواريخ هاربون و"دفورا". ويمتلك سلاح البحرية الصهيونية ٥ غواصات و٥٧ زورق دورية، إضافة إلى ١٥ سفينة قتالية.

ويعدُّ ميناء حيفا مقر أسطول الغواصات والسفن القتالية وسرية الدوريات الوحدة ٩١٤، وقاعدة عتليت مقر الوحدة الخاصة "شييطت ١٣"، أما إيلات فهي مقر لزوارق الدوريات، إضافة إلى قاعدة أسدود التي تعتبر مقراً لدوريات الوحدة ٩١٦. ومن أبرز إنجازات سلاح البحرية الصهيوني تطوير زورق حربي سريع من دون طاقم أطلق عليه اسم "حامي"، وهو من تطوير مركز رافائيل للأبحاث، ويبلغ طوله تسعة أمتار، ويستطيع الإبحار بسرعة ٧٠ كلم في الساعة، إضافة إلى قارب يسمى "بروتيكتور"، ويقوم بالخدمة على شواطئ قطاع غزة، وتبلغ تكلفته ٣٠٠ ألف دولار.

ومن أبرز المؤسسات العسكرية داخل الكيان الصهيوني مؤسسة "رافائيل"، وهي تقوم بتطوير الوسائل القتالية للجيش، وأبرزها الصواريخ ومعدات التصويب والتوجيه وأجهزة قياس المسافات الإلكترونية ونظم الحرب الإلكترونية والقنابل الذكية، ومن أبرز منتجاتها صاروخ "أريحا" و"شافيت" اللذان يصل مداهما إلى ٤.٥٠٠ كلم.

ميزانية الجيش

نقل تقرير مركز الزيتونة عن إحصائية صادرة عن دائرة الإحصاء المركزية الصهيونية، أن ما يصرفه الكيان الصهيوني على الجيش مقارنة بالناتج المحلي الإجمالي له يصل إلى ستة أضعاف ما تصرفه الدول الصناعية، حيث بلغت موازنة الأمن في السنوات الأخيرة ١٦.٥ في المائة من الميزانية السنوية، وتعادل ١٧.٥ مليار دولار. وهنا تجدر الإشارة إلى أن الكيان الصهيوني احتل المركز الرابع في قائمة الدول المصدِّرة للأسلحة في سنة ٢٠١٠، حيث بلغت قيمة صادراته العسكرية ١٤ مليار دولار سنوياً، حيث نفذت وزارة الجيش ما أسمته عملية "رأس الرمح" من خلال إرسال عدد من الجنرالات وسماسرة الجيش والمقاولين إلى عدد من دول العالم لتسويق أسلحتها.

وفي ختام التقرير برزت عدة تحديات تواجه الجيش الصهيوني، أهمها: ضعف العمق الاستراتيجي بسبب عوامل الجغرافيا السياسية وقلة المساحة الجغرافية التي يعيش فيها سكان الكيان، وتراجع قوة الردع التي تجلّت في الحروب الأخيرة للكيان الصهيوني، سواء في قطاع غزة أو جنوب لبنان. كما يشير التقرير إلى اختلال استراتيجية نقل المعركة إلى أرض العدو، إضافة إلى الفساد المالي والأخلاقي والسياسي، حيث بيَّن تقرير أصدره برنامج الدفاع والأمن البريطاني للشفافية الدولية في يوليو ٢٠١١، أن الكيان الصهيوني يحتل مكانة عالية في مخاطر الفساد العسكري، وإضافة إلى ذلك التهرب من الخدمة العسكرية والتغيّرات المحيطة، سياسياً وعسكرياً أو ما عرف مؤخراً بالربيع العربي، وتغيّر موازين القوى ورحيل حلفاء للكيان الصهيوني ومجيء قوى أخرى معادية.

تجدد المفاوضات الفلسطينية - الإسرائيلية بعد انقلاب مصر

■ د. عدنان أبو عامر(*)
adnanaa74@hotmail.com
@adnanabuamer1

فجأة ومن دون مقدمات، انطلقت المفاوضات بين الصهاينة والسلطة الفلسطينية مباشرة عقب الانقلاب العسكري الذي شهدته مصر وأطاح بالرئيس المنتخب المدني لأول مرة محمد مرسي، وكأن هذا التزامن حمل في طياته الكثير من الدلالات السياسية الخطيرة.

كما أن هذه المفاوضات السياسية التي ستناقش ملفات ثقيلة العيار تخص الصراع الفلسطيني – الصهيوني، ما يجعلها تحمل معها مخاطر جمة، خصوصاً أن الطرفين لم يتمكّنا من التوصل إلى اتفاق إطار حول المشاكل العالقة بينهما، مثل حدود العام ٦٧، وتبادل الأراضي بشكل متفق عليه.

وفي حين رفضت السلطة الفلسطينية التعهّد بالموافقة على الطلب الصهيوني بالاعتراف بيهودية الكيان، علاوة على عدم التوصّل لاتفاق حول تجميد الاستيطان؛ فإن الموافقة الصهيونية على إطلاق سراح الأسرى الفلسطينيين الذين تمت محاكمتهم قبل اتفاق أوسلو، كانت بالنسبة لرئيس السلطة الفلسطينية محمود عباس نقطة مفصلية ساعدته جداً في الموافقة على العودة للمفاوضات بعد توقف استمر ثلاث سنوات.

كما أن ما يجري في واشنطن ليس عملية تفاوضية، إنما محادثات لتهيئة الفرصة للمفاوضات بين الطرفين في ضوء أن العديد من العقبات ما زالت موجودة، مثل: توقف الاتفاق على الأجندة، وترتيب المفاوضات، والمطالبة الفلسطينية بأنْ تكون مبادرة السلام العربية أساساً للمفاوضات، علاوة على أن كل طرف يُفسّر أقوال وزير الخارجية الأمريكي «جون كيري» بالطريقة المريحة له، الأمر الذي قد يؤدي لإفشال المفاوضات.

مع العلم أن هناك جملة من الأسباب الرئيسة التي دفعت بإسرائيل والسلطة الفلسطينية للموافقة على تجديد المفاوضات، يمكن حصرها في النقاط التالية:

– خشيتهما من قيام الولايات المتحدة الأمريكية والمجتمع الدولي باتهامهما بأنهما يرفضانها، وبالتالي عليهما تحمّل عواقب هذا التعنت والرفض.

– الانقلاب الذي وقع في مصر، وأوصل العسكر المصريين الموالين للسياسات الأمريكية في المنطقة؛ اعتبره الجانبان فرصة تاريخية قد لا تتكرر بعد إزاحة الرئيس الإسلامي عن سدة الحكم.

(*) كاتب فلسطيني.

- قرار الاتحاد الأوروبي مقاطعة البضائع والمنتجات التي مصدرها المستوطنات المقامة في الضفة الغربية المحتلة.

هذه كلها من أهم العوامل التي دفعت الحكومة الإسرائيلية للموافقة على العودة للمفاوضات، خلافاً للادعاءات الرسمية بأن قرار الاتحاد الأوروبي أعاق تقدم العملية السلمية، فإن القرار سرّع في العودة لطاولة المفاوضات، ذلك أن «إسرائيل» قلقت قلقاً كبيراً من اتساع عملية نزع الشرعية عنها نتيجة صورتها في العالم بأنها رافضة للسلام.

كما أن السلطة الفلسطينية تعرّضت لتهديدات من قبل الولايات المتحدة الأمريكية بوقف المساعدات المالية إذا واصل عباس الرفض، وبموازاة ذلك فإنّ التأييد الكبير الذي منحته الجامعة العربية له كان سبباً مركزياً لموافقته على العودة للمفاوضات؛ لأنّ الجامعة العربية وفرت له غطاء إقليمياً لخطوات خطيرة أعقبت الانقلاب في مصر.

مع العلم أنّ وفد الجامعة العربية الذي التقى «كيري» في عمان شدد على أنّ المفاوضات على أساس حدود العام ١٩٦٧، وهو البند الوارد في المبادرة العربية، ويشمل تبادل الأراضي من ناحية المساحة والجودة بشكل متفق عليه مع الصهاينة.. ومن غير المستبعد بتاتاً أنْ يكون الانقلاب الذي أطاح بحكم الإخوان المسلمين في مصر اعتقد البعض أنه أضعف حركة حماس التي عوّلت على الدعم المصري، ما دفع عباس للاعتقاد بأنه بات أقوى من ذي قبل من الناحية السياسية، دون الخوف من دفع أثمان في الشارع الفلسطيني بسبب عودته للمفاوضات مع «إسرائيل».

كما أنّ الطرفين الصهيوني والفلسطيني على علم ودراية بأن الفجوات بينهما في المواقف كبيرة جداً، وبالتالي بالنسبة لكل منهما لا يوجد أي أمل في أن يوافق الجانب الثاني على اتفاق يجلب الحد الأدنى من شروطه؛ ولذلك فإننا أمام عاملين مركزيين: الأول أن الطرفين لن يجتهدا بالمرة خلال المفاوضات بهدف إنجاحها، بل إن جلّ اهتمامهما سيكون قبالة اللاعب الأمريكي، إذ إن كل طرف من الطرفين سيُحاول إقناع «كيري» ومستشاريه بأن الطرف الثاني متهم بإفشال المفاوضات، وهذا الأمر يُنتج تليين في المواقف، لكن من الصعب التصديق بنجاح المحادثات في الوقت الذي لا يريد فيه الوسيط الأمريكي أكثر من الطرفين بنجاحها.

كما أنّ تحديد الفترة الزمنية بتسعة أشهر سيعطي للطرفين، وبالأخص الطرف «الإسرائيلي»، الفرصة للتفاوض من أجل التفاوض ليس إلا، وليس من أجل التوصّل لاتفاق؛ ذلك أن من وافق على المدة الزمنية ليس قادراً على تفجير المفاوضات، وهذا الأمر من شأنه أنْ يزيد بأضعاف عدم ثقة الجمهور من الجانبين بالمفاوضات، وبالتالي فإن تداعيات هذا الأمر ستكون تأجيل الأزمة بينهما.

كما أنّ إحدى الطرق لمنع الأزمة التفاوضية المرتقبة مع نهاية الأشهر التسعة، أنْ يتوصّل الطرفان إلى اتفاق بأنهما لن يتفاوضا فقط على الاتفاق النهائي بينهما، إنما على الخطوات الانتقالية للاتفاق النهائي؛ ولذلك فإنّ هذه الخطوات تشمل تحسين وضع الفلسطينيين، وتقويتهم من الناحية الاقتصادية؛ بهدف إنشاء البنية التحتية لدولتهم المستقبلية، وتقوية الاقتصاد الفلسطيني.

وبالتالي، قد يتم ذلك عن طريق منحهم المزيد من الصلاحيات، والمزيد من الأرضي التي تكون تحت سيطرتهم الكاملة، وأنّ اتفاقاً من هذا القبيل سيمنح الطرفين الفلسطيني و«الإسرائيلي» الفرصة لمواصلة المحادثات، والفرصة أيضاً لتقديم إنجازات أمام شعبيهما.

مضافاً إلى ما ذُكر آنفاً، فإنّ الاتفاق على القاعدة لبدء المحادثات بين الطرفين لا يُشكّل خطراً على الائتلاف الحكومي في «إسرائيل»؛ ذلك فإن الطرف اليميني في الحكومة الصهيونية، مثل البيت اليهودي، لن يترك الائتلاف الحاكم؛ لأن زعماء الحزب الديني يؤمنون بأن المحادثات في واشنطن لن تجلب شيئاً، لكن من المحتمل أن تنشب خلافات داخل الائتلاف على خلفية المواقف «الإسرائيلية» التي توصف بـ «المهادنة» خلال الأشهر التسعة.

لكن حتى هذه الخلافات الصهيونية الداخلية لن تؤدي بأي شكل من الأشكال إلى تهديد الائتلاف الحكومي برئاسة «بنيامين نتنياهو» رئيس الوزراء؛ ذلك أن أحزاب المعارضة وعدته بمنحه الدعم من الخارج في حال ترك البيت اليهودي الائتلاف، كما أن المعارضة الداخلية لـ «نتنياهو» داخل حزبه الليكود لن تتمكن من العمل ضده؛ لأنها لا تملك بديلاً له.

وبالتالي فإن الطرف الصهيوني لا يُمكنه بأي شكل من الأشكال الادّعاء أمام أمريكا والمجتمع الدولي بأنه لا يمكنه التفاوض بشكل فعال مع الفلسطينيين بسبب الاعتبارات الداخلية الصهيونية.

الإسلام والصليبيات.. رؤية يهودية

ربح السموم التي عصفت بالصليبيين في فلسطين هل ستعصف باليهود اليوم؟
في قراءةٍ لكتاب «الإسلام والصليبيات» لمؤلفه اليهودي عمانويل سيفان

■ د. عبد الكريم إبراهيم السمك

الإسلام والصليبيات.. عنوان لكتاب صدر باللغة الفرنسية، بلغ عدد صفحاته حدود المائتين، ومؤلف الكتاب يهودي اسمه «عمانويل سيفان»، وهو أشبه بتقرير علمي خلص فيه مؤلفه إلى العديد من النتائج حول مستقبل إسرائيل، من خلال استقراء واستنطاق التاريخ؛ بين ماضٍ مضى وانقضى، ومستقبل يحمل في طياته مخاوف ذلك الماضي الذي جسده شبح حطين الذي نزل بالفرنجة على يد صلاح الدين، وتحرير القدس سنة (٥٨٣ هـ - ١١٨٧م)، بعد احتلال لها طالت سنواته تسعة عقود.

فبعد ١٥ سنة من ولادة دولة إسرائيل، دفع واقع الاحتلال الصليبي لفلسطين وخروجه منها العلماء والمؤرخين الصهاينة إلى بناء ورشة عمل كاملة في الجامعة العبرية، لدراسة عوامل السقوط لدولة الفرنجة في القدس، وقد ترأس لجنة العمل هذه «جوزيف براور»، صاحب كتاب «المملكة اللاتينية في القدس»، وقد جاء في مجلدين، وتم نشره سنة ١٩٦٣م، وقد مدت اللجنة العلمية جسور التواصل العلمي خارج إسرائيل، فتواصلت مع العديد من المراكز العلمية العالمية، وكان ممن اتصلوا بهم اليهودي «كلود كاهن»، من جامعة باريس، ومن الجامعات الأمريكية: «آشتور شتراوس»، و«بروفشفيك»، و«كيستر»، و«آيالون»، المتخصص بالعصر المملوكي، و«غويتاين» صاحب العديد من الدراسات والأبحاث المعنية بقدسية القدس والأقصى عند المسلمين؛ وقد قاموا في العديد من الدراسات العلمية بأن تكون قاعدة عمل فيما يضمن لإسرائيل مستقبلاً آمناً وديمومة وجود لها في فلسطين.

مضت هذه اللجنة العلمية التي تم تكليفها بدراسة تراثنا الإسلامي في موروثه التاريخي والتشريعي الإسلامي، ودراسته دراسةً محكمة؛ فهو الحاضن لتلك الذاكرة التاريخية المبيِّنة لواقع الحال الذي يتم فيه تحرير القدس وفلسطين؛ فاستنطقوا ذلك التراث العظيم لسلفنا الكريم، والذي هو بالنسبة إلينا

أشبه بجسد بلا روح أودعناه في خزائن المكتبات، بينما هو عند غيرنا حيٌّ يرزق يستنطقونه عندما يشاؤون، ليصلوا فيه إلى العديد من الفرضيات والنتائج، وقد احتضن هذه النتائج التي توصلت إليها اللجنة الصهيونية، كتاب «الإسلام والصليبيات»، والتي تمثلت فيما يلي:

١ صورة العصر الذي زامن الاحتلال الصليبي، وكانت فيه البلاد مجزأة وضعيفة على شكل إمارات، ويغلب على الكثير منها التشيع، كالحمدانيين في حلب ومن بعدهم بنو مرداس، أما دمشق فقد كانت هي والقاهرة تحت الحكم العبيدي – الفاطمي –، وأبناء هذه العقيدة هم من ساعد الصليبيين على احتلال فلسطين.

٢ سمو مكانة القدس والأقصى وفلسطين عند المسلمين على أنها أرض مباركة، مما ترتب على هذه المكانة في نفوسهم وقلوبهم إحياء مصطلح عقيدة الجهاد لتحرير القدس والأقصى، في الوقت الذي غابت فيه هذه العقيدة الجهادية عند المسلمين في بلاد الشام طيلة العقد الرابع والنصف الأول من الخامس الهجري.

٣ الواقع العام في الأندلس لا يبشر بخير لسيادة دولة الطوائف فيها، حيث كانت مدن الأندلس تسقط الواحدة تلو الأخرى أمام زحف نصارى قشتاله والأرغون.

٤ التشابه والتماثل بين الغزوين، وقد تم فيهما توظيف الدين، لكن واقع الغزوين يكذب ذلك، فالأول الصليبي الذي باركه البابا أوربان الثاني في كلير مونت سنة «٤٨٧هـ – ١٠٩٤م»، وفيه احتلوا القدس والساحل السوري، وكان شعارهم «تحرير القبر المقدس»، واليهود قبل أن يحتلوا فلسطين لووا عنق التاريخ عندما وظفوا الدين لاحتلال فلسطين، على أن أرض فلسطين هي أرض الميعاد بوعد توراتي مزيف، فقد كيفوا التاريخ على قاعدة اللاهوت الكاذب في دينهم، فالصليبيون سموا أنفسهم فرسان المسيح يومها، واليوم اليهود يسمون أنفسهم شعب الله المختار على أرض فلسطين التي خرج منها سلفهم صاغرين، وها هم اليوم يعيشون فيها على رمال متحركة.

٥ ولادة مصطلح الجهاد يوم الغزو الفرنجي على يد علماء الشام من أهل السنة، ما كان سبباً مباشراً لإيقاظ فكرة الجهاد من أجل تحرير فلسطين، وها هي اليوم قد ولدت الفكرة في قلوب أهل الشام، ويعيش أهلها واقع تحرير سورية، كما تم تطهيرها من رافضة ذلك العصر، وعاد مصطلح الجهاد من جديد بعد أن تم تغييبه من قلوب المسلمين، وهذا ما يقلق إسرائيل اليوم في حال سقوط حاكمها – الأسد – الذي ضمنت إسرائيل حياة آمنة طيلة خمسين سنة من حكم الطوائف لسورية، مكن فيها الأسد الأب إسرائيل من توسيع جغرافيتها بعد تسليمه الجولان لها في الخامس من حزيران لسنة ١٩٦٧م.

٦ ظهور الدولة الزنكية السنية ومن بعدها الأيوبية، وكلتا الدولتين تم لهما القضاء على الوجود الباطني في الشام ومصر، والذي كان سبباً في كل ما نزل ببلاد الشام من نوازل الاحتلال الصليبي لها، بحيث كان الباطنيون هم من سهل لهم احتلال ساحل بلاد الشام وفلسطين.

٧ وراثة صلاح الدين حكم مصر وبلاد الشام الزنكية، والذي جاء على يديه تحرير وطرد الصليبيين من القدس بعد موقعة حطين سنة «٥٨٣هـ – ١١٨٧م»، وقبل أن يحرر القدس عمد إلى ما يلي:

١ – القضاء على الحكم العبيدي في مصر وحكمه لها.

٢ – توحيده لمصر ببلاد الشام بعد تصفية حكم ورثة البيت الزنكي؛ بقصد توحيد القوى تجاه هدف التحرير.

٣ – القضاء على الحركات الباطنية في بلاد الشام، المتعاونين مع الصليبيين.

٤ – بعد أن تم لصلاح الدين تسوية ما سبق، بقصد مواجهته للصليبيين، انطلق في مسيرة المواجهة معهم بقصد تحرير القدس، وقد تم له ذلك.

تلك هي الأصول والنتائج التي استنطق فيها الباحثون اليهود تراثنا الإسلامي، وتوصلوا في دراساتهم إلى العلة السببية التي استطاع بها المسلمون تحرير القدس وفلسطين، وذلك من خلال دور علماء المسلمين المباشر في إيقاظ شعلة الجهاد في قلوب المسلمين حكاماً ومحكومين، ما كان سبباً في هذا التحرير وجلاء الفرنجة، لا سيما أن فلسطين هي الأرض التي وطأتها أقدام الغزاة الفرنجة سلفاً واليهود خلفاً، على الرغم مما خطط له بناة دولة إسرائيل في جعل دول الطوق لإسرائيل دولاً علمانية لا دينيةً، وقد تحقق لهم ذلك، لكن اليهود الذين استطاعوا تفريق الأمة بشكل وقتي وزمني، أسقط سياستهم هذه استيقاظ النائم، كما أشار لذلك أرنولد توينبي، من كبار فلاسفة التاريخ العالمي، الذي نبه إلى عدم شرعية

الوجود اليهودي في فلسطين، وناهض بناء دولة إسرائيل، بقوله: «إذا ظننتم أن المسلمين سيغطون في سباتهم، فهذا خطأ جسيم، فالمسلمون نيام، ولا بد للنائم من أن يستيقظ». فهل ما تعيشه سورية اليوم شكل من أشكال اليقظة كما أشار توينبي؟ وعلى هذا الواقع السوري فهل سيعيد التاريخ نفسه بتحرير فلسطين كما تم تحريرها من الفرنجة؟

- مصطلح الجهاد في فترة الحروب الصليبية وكيف ولد؟

لم يترك اليهود من المؤرخين والباحثين شاردة ولا واردة في تراثنا الإسلامي إلا وتناولوها دراسة، خاصة منها أمر الجهاد وكيف عاد من جديد بين المسلمين، فكان السبب المباشر في تحرير فلسطين والقدس، حيث كان هذا المصطلح غائباً عند المسلمين طيلة قرنين من الزمن حتى احتلال الصليبيين لفلسطين، وقد توصلوا إلى ما يلي:

١ - كان العالم علي بن طاهر السلمي النحوي المحدث، «المتوفى سنة ٤٩٨ - ٤٩٩هـ»، أول من كتب وتناول موضوع الجهاد في الإسلام، فقد عاش هذا العالم حياته مدرِّساً في الجامع الأموي بدمشق، وكان من أهل الفضل والعلم، ومن كبار علماء الحديث النبوي، فعلى واقع الاحتلال الصليبي للقدس كان قد ألَّف كتاباً في الجهاد في ١٢ جزءاً، وما زال الكتاب موجوداً في المكتبة الظاهرية بدمشق، لكنه فُقد منه خمسة أجزاء وبقي منه سبعة أجزاء، وقد تمكن اليهود من اقتناء صورة عنه، من خلال عمل اللجنة العلمية اليهودية التي سبق ذكرها، واحتل الشيخ وكتابه صدارة الاهتمام لدى اللجنة، وكان الشيخ قد قضى عمره في التدريس في الجامع الأموي، وكان يتناول في دروسه موضوع الجهاد وضرورته في الأمة الإسلامية لتحرير القدس والأقصى، فكان هو أول من طرق إحياء موضوع الجهاد في المجتمعات الإسلامية يومها، وإليه أشار كتاب «الإسلام والصليبيات»، كما أشار إلى الإمام النووي - رحمه الله - ودوره المباشر في رفقة الظاهر بيبرس في تحرير وتطهير بقية مناطق فلسطين.

والشيخ السلمي هذا كان يشير في دروسه إلى أن الحرب ليست ضد أهل الشام فقط، فكان يردد بأن الحرب الصليبية بدأت ضد المسلمين من أقصى الغرب في الأندلس مروراً بصقلية حتى المشرق الشامي، وقد رأت اللجنة اليهودية أن غياب مصطلح «الجهاد» في المجتمع الإسلامي كان بمثابة ضعف للأمة، حتى تم للصليبيين احتلال فلسطين، ولهذا العالم الفاضل تعود مسألة إحياء فكرة الجهاد في أمة الإسلام.

٢ - ومما أشار إليه كتاب «الإسلام والصليبيات» كتاب «أحكام الجهاد وفضائله» لعز الدين السلمي، وهو مخطوط من مقتنيات مكتبة برلين برقم «orspr٧٩٣»، وكتاب «الجهاد» لكاتب مجهول يعود لذلك التاريخ، وهو مخطوط في برلين، وكتاب «الجهاد» الذي وضعه القاضي بهاء الدين بن شداد لصلاح الدين الأيوبي ضمن كتابه «دلائل الأحكام»، فكان هذا الكتاب عند صلاح الدين بمثابة وسادةٍ لا تفارقه أينما ذهب.

٣ - ولم يقف اليهود في دراساتهم عند كتب الجهاد فقط، فقد واصلوا دراسة أكثر من ثلاثين كتاباً تحدثت عن فضائل الشام عند المسلمين، وسمو مكانة القدس والأقصى، بحيث هي عندهم لا تقل شأناً عن مكة وحرمها المكي وكذلك المدينة المنورة، ومن هذه الكتب كتاب ابن الجوزي «فضائل القدس الشريف» مخطوط برنستون غاريت عربي «٥٨٦»، وما كتبه ابن تيمية - رحمه الله - «قاعدة في زيارة القدس» طبع ماتيوس في المجلة الآسيوية سنة (١٩٣٦م)، وكتاب الكنجي الصوفي «فضائل بيت المقدس وفضل الصلاة فيها» مخطوط توبنغن «عربي ٢٦» من ورقة ٦٣ - ٩٧، وكتاب عز الدين السلمي «ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام - طبع الخالدي - القدس ١٩٤٠»، وهناك العديد من المخطوطات التي تعود لذلك العصر قامت اللجنة العلمية اليهودية بدراستها وأشار الكتاب إليها.

ولعل الاحتلال الصليبي لفلسطين كان عصر يقظة عند علماء المسلمين، فثمة العديد من الدراسات الإسلامية على غرار الكتب والمخطوطات التي أوردها كتاب «الإسلام والصليبيات»، فمنها المخطوط الذي لم يتم نشره، ومنها ما تم نشره، وكلها تتناول مكانة فلسطين وأقصاها عند المسلمين.

- فلسطين واليهود ودورة التاريخ:

لم يدرك المرابون اليهود منذ مطلع القرن التاسع عشر للميلاد أنهم غدوا مكروهين في المجتمعات الأوروبية، وخاصة رعايا الجوييم منهم، خاصة بعد اغتيال قيصر روسيا ألكسندر الثاني سنة ١٨٨١م على يد اليهود الروس، وترتبت على هذا الاغتيال المذابح الكبيرة التي نزلت عليهم، ما دفعهم للهجرة إلى أوروبا، فأثقلوا كاهلها، وهنا ذهب الأوروبيون للبحث عن حلول للخلاص من الوجود اليهودي على الساحة الأوروبية؛ إدراكاً منهم لخطرهم على المجتمعات التي ينزلون فيها، وكانوا لهم كارهين، فهم - أي الأوروبيين - لا ينسون ما أثقل الربويون من اليهود دولهم من مديونيات ربوية، تم لهم فيها تمويل

الحروب الأوروبية، حيث زادت النقمة عليهم، إضافة لعقيدة الثأر التاريخي النصراني القديم الذي يتهم فيه النصارى اليهود بقتل السيد المسيح - عليه السلام -، فقصدوا حل مشكلتهم الأوروبية مع اليهود على حساب غيرهم، فضربوا اليهود بالعرب والمسلمين. وها هم الغربيون وأمريكا على واقع القضية السورية اليوم، ففي يوم الإثنين ١٤٣٤/٨/١هـ صرح وزير الخارجية الألماني بأن السوريين يحاربون الأسد وعيونهم ليست على دمشق، وإنما على القدس. فهل يدرك اليهود أن الأوروبيين قد دفعوهم إلى المصير الذي نزل فيهم على أرض الشام منذ ثمانية قرون في معركة حطين التي جاء معها تحرير القدس، وذلك سنة (٥٨٣هـ - ١١٨٧م)، وشبح حطين كما يلاحق اليهود اليوم يلاحق الأوروبيين من خوفهم من عودة اليهود ثانية لأوروبا، وليس ذلك على الله بعزيز.

ارتبطت فكرة بناء الدولة الموسوية على أرض فلسطين، مع مولد الثورة الفرنسية سنة (١٧٨٩م)، وقد حمل هذا المشروع نابليون في حملته على مصر والشام، وهو الذي مشهود له بشخصيته الآسرة في خطاباته الثورية، فيقول قبل حملته على الشرق الإسلامي أمام حشود من الفرنسيين: «على أنقاض العالم سوف نبني بلاد العرب، لا بد من ديانة جديدة، لا بد من نصال جديدة من رب جديد للكون الضرير.

أجيء بعد ألف عام لتبديل هذه الشرائع الضالة.

أحمل إلى أمم بأكملها عبودية أَنبل، أذيل الأرباب الزائفين، وديانتي الطاهرة أول درجات عظمتي الوليدة.

لا تتهموني أبداً بأني أغش وطني..

فأنا أدمر ضعفه ووثيته.

أجيء لتوحيده في ظل ملك، في ظل إله، ولا مفر من إخضاعه حتى يكتب له المجد».

ووصلت الحملة بقيادة خلف لويس التاسع تلبية لدعوته إلى غزو الشرق، وليس عن طريق الحملات العسكرية، وإنما بالاختراق الفكري والديني لمجتمعات الشرق الإسلامي، وقد سار نابليون بالرسالتين، الفكرية التغريبية والعسكرية الاستعمارية، على قاعدة الثأر لمليكهم لويس التاسع، الذي خسر معركة المنصورة وفشلت حملته السابقة، وغدت دار ابن لقمان في مدينة المنصورة مزاراً للضباط الفرنسيين من أبناء الحملة؛ بقصد الاطلاع على المكان الذي اعتقل وسجن فيه ملكهم، إنها عقيدة الثأر ولا غيرها من الشرق الإسلامي، وعندما قصد نابليون فلسطين فتحت يافا أبوابها له سلماً، ولكن هذا الفاجر لم يُراعِ هذا الأمر، فقد ذهب بقتل خمسة آلاف فلسطيني من أهل المدينة المسالمين، وعندما قصد عكا وعجز عن فتحها توجه إلى يهود فلسطين طالباً منهم مساعدته مقابل وعده لهم ببناء دولة موسوية لهم على أرض فلسطين، ومنذ ذلك التاريخ بدأت عند الأوروبيين فكرة تهويد فلسطين بقصد دفع اليهود لمغادرة أوروبا وضربهم بالعرب المسلمين، وبذلك يكونون قد انتهوا من مشكلتهم في أوروبا، ومن هنا جاءت الفكرة بصوت فاه به نابليون، وتبنَّتها السياسة الأوروبية، وقد عاش اليهود مع الحلم هذا طيلة القرن التاسع عشر للميلاد، والتقفها الإنكليز لإخراجها من الفكرة إلى حيز الواقع، والذي يتابع تاريخ تدرج المشروع الصهيوني في فلسطين، يجد أن زمنه طال قرابة القرن والنصف حتى ولدت إسرائيل كدولة في ١٩٤٨/٥/١٥م.

وقد قامت إسرائيل والخوف اليهودي من عقدة حطين والصليبيات والمصير الذي نزل بالغزاة الأوائل يلاحقهم، بمثل هذه الدراسة التي ذهب فيها اليهود متخوفين من المصير الذي ينتظرهم في حال عودة الناس لدينهم وإسلامهم، فهذا الواقع الذي يعيشه عالمنا العربي، منذ مطلع القرن العشرين، في دفع الإنكليز العرب للثورة على العثمانيين بقصد الاستقلال والتحرر منهم، فكانت هذه الثورة هي بوابة النكبة الكبرى التي نزلت في الأمة، وكانت سبباً في نجاح مشروع الدولة اليهودية على أرض فلسطين، بموجب اتفاقية سايكس بيكو لسنة ١٩١٦م، ووعد بلفور في ١٩١٧/١١/٢م، واتفاقية فيصل وأيزمان على حق اليهود في بناء دولة لهم على أرض فلسطين، وقد باركت عصبة الأمم الاتفاقية سنة ١٩١٩م، فكانت فكرة حملتها عصبة الأمم في رحمها حتى كانت ولادتها في كنف منظمة الأمم المتحدة ١٩٤٨/٥/١٥م.

إنه مصطلح القوة الداعم لقيام دولة إسرائيل أمام واقع الضعف العربي الذي يشابه في حاله زمن ملوك الطوائف الذي ذهب بالأندلس، وواقع المشرق العربي الذي كان تحت سيادة إمارات ودول طائفية باطنية فتحت للفرنجة الصليبيين أبواب الشام لاحتلالها، فمع الثورة السورية التي تعيشها سورية اليوم، سيعيد التاريخ نفسه بيقظة الأمة وتحرير فلسطين، كما أجمع العالم اليوم على أن الثورة السورية ستكون ثورة تعمل على تغيير خريطة منطقة المشرق العربي من جديد بعد سقوط مصطلح القوة الذي أوجد هذه الدولة اللقيطة، والتي ما كان لها أن تكون لولا الغزو الفكري الذي كان سابقاً على غزو الأرض لعالمنا العربي والإسلامي.

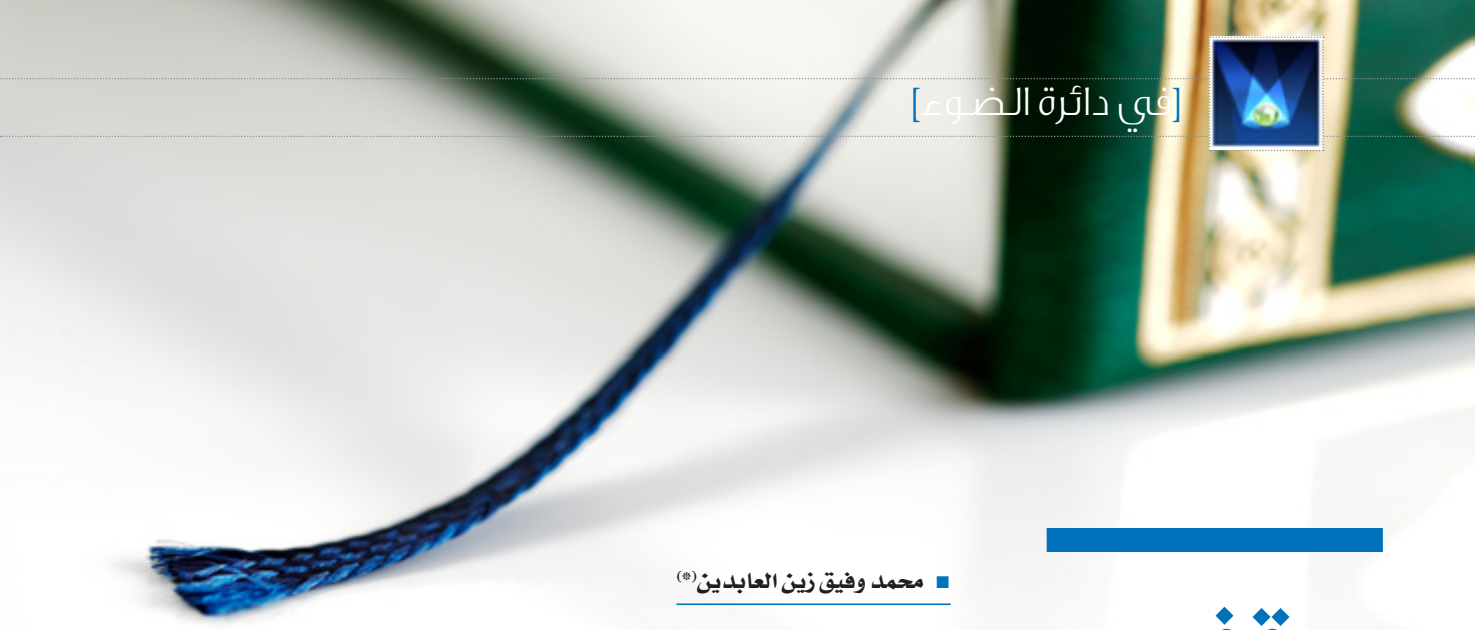

موقف السنهوري من تطبيق الشريعة وتقنينها

■ محمد وفيق زين العابدين(*)

عبد الرزاق أحمد السنهوري[1] أبرز الشخصيات القانونية التي أخذت على عاتقها مهمة سنّ التقنينات الوضعية في البلاد العربية، إذ سخر جهده وحياته في سبيل ذلك[2]، وتنقل من بلد إلى بلد لتدريس القانون المدني في كليات الحقوق بجامعاتها، ولمساعدة الحكومات والسلطات التشريعية على وضع دساتيرها وقوانينها - لا سيما

(*) القاضي في المحاكم الابتدائية.

(١) ولد في الحادي عشر من أغسطس من عام ١٨٨٥م بمدينة الإسكندرية، وأتم دراسته الابتدائية بمدرسة راتب باشا، ثم حصل على شهادة المدرسة الثانوية من مدرسة العباسية عام ١٩١٣م، ثم التحق بمدرسة الحقوق الخديوية فتخرج منها وحصل منها على شهادة (الليسانس) عام ١٩١٧م، وكان أول دفعته، وابتدأ حياته الوظيفية موظفاً في جمرك الإسكندرية قبل تخرجه، ثم عُين وكيلاً للنائب العام بعد تخرجه من مدرسة الحقوق، ثم عُين مدرساً للقانون بمدرسة القضاء الشرعي عام ١٩٢٠م، واختير للسفر في بعثة إلى فرنسا عام ١٩٢١م للحصول على الدكتوراه، فحصل من جامعة (ليون) على درجة الدكتوراه مرتين: الأولى في الحقوق عام ١٩٢٥م عن رسالته (القيود التعاقدية على حرية العمل في القضاء الإنكليزي)، والثانية في العلوم السياسية عام ١٩٢٦م عن رسالته (الخلافة وتطورها لتكون عصبة أمم شرقية).

عقب عودته إلى مصر عُين مدرساً للقانون بكلية الحقوق عام ١٩٢٦م، لكنه فُصل من الجامعة عام ١٩٣٥م بسبب إنشائه (جمعية الشباب المصريين)، والتي اعتبرتها الحكومة في ذلك الوقت مؤيدة لحزب الوفد، ثم أُعيد للجامعة في ذات العام بعد استقالة الحكومة، وانتدب للتدريس بكلية الحقوق بجامعة بغداد، وعاد منها لكلية الحقوق بجامعة القاهرة، حيث انتُخب عميداً لها عام ١٩٣٧م، وفي ذات العام عُين قاضياً بالمحاكم المختلطة.

وفي عام ١٩٣٩م عُين السنهوري وكيلاً لوزارة المعارف، ثم استقال منها عام ١٩٤٢م، فاشتغل بالمحاماة فترةً سافر خلالها إلى بغداد ودمشق لإعداد مشروعي القانونين المدنيين العراقي والسوري، ثم اختير وزيراً للمعارف ابتداءً من عام ١٩٤٥م في وزارتي أحمد ماهر ثم النقراشي ثم إبراهيم عبد الهادي، وفي هذه الفترة استطاع أن يقرر اللغة الفرنسية على طلاب الثانوية، وكان ذلك هو السبب الرئيس لمنحه وسام (ليجيون دويز) من الحكومة الفرنسية بعد ذلك.

اختير السنهوري عضواً بمجمع اللغة العربية عام ١٩٤٦م، ثم عُين رئيساً لمجلس الدولة عام ١٩٤٩م، وبقي في منصبه حتى وقع حادث الاعتداء عليه في مارس عام ١٩٥٤م فأُقصي من منصبه في ذات العام وتفرغ للتدريس في (معهد الدراسات الغربية)، ووضع أهم مؤلفاته: (الوسيط في شرح القانون المدني)، ولم توافه المنية إلا بعد أن أتم الجزء العاشر والأخير من هذا الكتاب، حيث أقعده المرض عن العمل والحركة، وتوفي في الحادي والعشرين من يوليو عام ١٩٧١م، ودفن بمقابر عائلته بمصر الجديدة.

أهم كتبه: (أصول القانون)، (نظرية العقد) ويقع في ستة أجزاء، (الموجز في الالتزامات)، (التصرف القانوني والواقعة القانونية)، (عقد الإيجار)؛ وجميع الكتب السابقة كانت تدرس لطلبة كلية الحقوق بجامعة القاهرة؛ (الوسيط في شرح القانون المدني) ويقع في عشرة أجزاء، ويعتبره المتخصصون والباحثون المرجع الأساسي في فهم القانون المدني الوضعي، (الوجيز في شرح القانون المدني) وقد صدر منه جزء واحد، ويبدو أنه أراد به أن يختصر كتاب الوسيط؛ (مصادر الحق في الفقه الإسلامي) ويقع في ستة أجزاء، (القيود التعاقدية على حرية العمل في القضاء الإنكليزي) بالفرنسية، وهو رسالته لنيل الدكتوراه في الحقوق، و(فقه الخلافة وتطورها لتصبح عصبة أمم شرقية) وهو رسالته لنيل الدكتوراه في العلوم السياسية، نُشرت أولاً بالفرنسية ثم تُرجمت للعربية.

وله عدة مقالات نُشرت في مجلة القانون والاقتصاد، ومجلة المحاماة الشرعية، ومجلة مجلس الدولة، وغيرها.

(٢) ولو بذل الأستاذ الدكتور عبد الرزاق السنهوري نصف ما بذله من جهد في سبيل تقنين الفقه الإسلامي والدفاع عن الشريعة لقام بما لم يقم به أحد قبله، ولأتى بما عجزت عنه اللجان المشكلة من عشرات القضاة والأساتذة والفقهاء لتقنين أحكام الشريعة، لكن الله تعالى يُؤتي الحكمة من يشاء، ومن يؤتى الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً، وما يذكر إلا أولوا الألباب.

المدنية منها -، وإليه يُنسب سنّ القانون المدني العراقي (ابتداءً من عام ١٩٣٦م، وتم الانتهاء منه بعد فترات توقف عام ١٩٥١م)، والقانون المدني السوري (ابتداءً من نوفمبر عام ١٩٤٣م، وتم الانتهاء منه بعد فترات توقف عام ١٩٤٩م)، والقانون المدني المصري (ابتداءً من عام ١٩٣٨م، حتى انتُهي منه عام ١٩٤٨م)[١]، والقانون المدني الليبي (في عام ١٩٥٢م)، ووضع دستور الكويت في عهد أميرها عبد الله السالم (في الفترة ما بين عام ١٩٦٠م حتى ١٩٦٢م)، والمساعدة على وضع دساتير وتقنينات مدنية، خاصة في بلدان أخرى كالسودان والبحرين والإمارات.

ولعل بعض الباحثين والمتخصصين يعجب من صنيع السنهوري في التقنينات التي قام بوضعها أو المشاركة في وضعها، حيث كان يُفاخر بالشريعة الإسلامية وإعجازها[٢] ورغم ذلك لم يجعلها المصدر الرئيسي في التقنينات التي قام بوضعها، كما جعل الفقه الإسلامي أساس بعض مواد هذه التقنينات وبنودها في حين أهمله بالكلية في مواد وبنود أخرى أكثر أهمية ودلالة الشريعة فيها أوضح.

ولا غرابة في الأمر؛ فالسنهوري كان على دراية بالفقه الإسلامي في مجال التشريع، وله في ذلك كتاب: (مصادر الحق في الفقه الإسلامي)[٣]، ومع ذلك فقد اعتمد في التقنينات المدنية المشار إليها على خلط أحكام الفقه الإسلامي بأحكام القوانين الأجنبية التي قام بدراستها - لا سيما الفرنسية منها - في جامعة (ليون) في الفترة ما بين عامي (١٩٢١ - ١٩٢٦م)، وهذا الخلط كان يعتمد على أهوائه وآرائه الشخصية ورؤاه القانونية فحسب من أجل خلق قواعد قانونية قومية ذاتية مستقلة تماماً عن الشريعة الإسلامية، والفقه الإسلامي لا يعدو عنده أن يكون (مدونة قانونية) من المدونات المقارنة التي كان يستقي منها، يسدُّ ببعض أحكامه

(١) وكان السنهوري يقول إنه استمد مواده وبنوده من نحو ٢٠ (مدونة قانونية) من التقنينات الوضعية المقارنة.

والعجب أنه كان يفاخر بهذا العمل، وكتب في ذلك الأبيات:

جهود منهكات مضنيات وصلت الليل فيها بالنهار

وكنت إذا استبد اليأس يوماً أسل عزيمة الأسد المثار

(٢) من ذلك قوله في كتابه مصادر الحق في الفقه الإسلامي (١ / ٨): (لن يكون همنا في هذا البحث إخفاء ما بين الفقه الإسلامي والفقه الغربي من فروق في الصنعة والأسلوب والتصوير، بل على النقيض من ذلك، سنُعنى بإبراز هذه الفروق حتى يحتفظ الفقه الإسلامي بطابعه الخاص، ولن نحاول أن نصطنع التقريب ما بين الفقه الإسلامي والفقه الغربي على أسس موهومة أو خاطئة، فإن الفقه الإسلامي نظام قانوني عظيم له صنعة يستقل بها، ويتميز عن سائر النظم القانونية في صياغته، وتقتضي الدقة والأمانة العلمية علينا أن نحتفظ لهذا الفقه الجليل بمقوماته وطابعه، ونحن في هذا أشد حرصاً من بعض الفقهاء المحدثين فيما يؤنس فيهم من ميل إلى تقريب الفقه الإسلامي من الفقه الغربي، ولا يعنينا أن يكون الفقه الإسلامي قريباً من الفقه الغربي، فإن هذا لا يكسب الفقه الإسلامي قوة، بل لعله يبتعد به عن جانب الجدة والابتداع، وهو جانب للفقه الإسلامي منه حظ عظيم).

وقوله في صحيفة الإخوان المسلمين (العدد ٤١، السنة الرابعة): (الشريعة الإسلامية - بشهادة فقهاء الغرب أنفسهم - تُعد من أكبر الشرائع العالمية، فما بال الغرب يعرف هذا الفضل ونحن ننكره؟! وما بال هذه الكنوز تبقى مغمورة في بطون الكتب الصفراء ونحن في غفلة نتطفل على موائد الغير ونتسقط فضلات طعامهم؟!).

(٣) وقد وقع في كتابه هذا عند حديثه عن تطور الفقه الإسلامي في أخطاء عدة عندما أراد أن يُثبت أن الفقهاء طوروا من الفقه الإسلامي وغيروا في الأحكام تبعاً لظروف الزمان والمكان.

أوجه النقص والعور في القانون المدني، وفي ذلك يقول السنهوري نفسه: (إن الشريعة الإسلامية هي شريعة الشرق ووحي أحكامه، ومتى ألفنا بينها وبين الشرائع الغربية، فروح من الشرق وقبس من نوره يضيء طريقنا للمساهمة في نهضة الفقه العالمية)[٤].

ويقول في مقاله (على أي أساس يكون تنقيح القانون المدني المصري) تحت عنوان: (المصادر التي يستمد منها التنقيح من حيث الموضوع): (أما من حيث الموضوع فنرى أن تكون المراجعة مستمدة من مصادر ثلاثة: تجاربنا الخاصة، وتجارب غيرنا من الأمم، وتقاليدنا الماضية في القانون، فتستهدي اللجنة التي يوكل إليها أمر التنقيح:

أولاً: بالقضاء المصري في مدى نصف قرن، فهو المرشد العملي للمشرع.

ثانياً: بالتقنينات الحديثة وما يمكن أن يستخلص من دروسها النافعة.

ثالثاً: بالشريعة الإسلامية، وكانت شريعة البلد قبل دخول التشريع الحاضر، ولا تزال

(٤) الدكتور محمد عمارة في كتابه الدكتور عبد الرزاق السنهوري.. إسلامية الدولة والمدنية والقانون (٢٠٨).

شريعته في نواح مختلفة)[1].

ويقول في كتابه (الوسيط في شرح القانون المدني) عن طريقة وضع القانون المدني المصري ومصادره: (إن النصوص التشريعية الواردة في هذا المشروع لها من الكيان الذاتي ما يجعلها مستقلة كل الاستقلال عن المصادر التي أُخذت منها، ولم يكن الغرض من الرجوع إلى التقنينات الحديثة أن يتصل المشروع بهذه التقنينات المختلفة اتصال تبعية في التفسير والتطبيق والتطور، فإن هذا حتى لو كان ممكناً لا يكون مرغوباً فيه، فمن المقطوع به أن كل نص تشريعي ينبغي أن يعيش في البيئة التي يُطبق فيها، ويحيا حياةً قومية توثق صلته بما يحيط به من ملابسات، وما يخضع له من مقتضيات، فينفصل انفصالاً تاماً عن المصدر التاريخي الذي أُخذ منه، أياً كان هذا المصدر، وقد حان الوقت الذي يكون لمصر فيه قضاء ذاتي وفقه مستقل، ولكل من القضاء والفقه، بل على كلٍ منهما عند تطبيق النص أو تفسيره أن يعتبر هذا النص قائماً بذاته، منفصلاً عن مصدره، فيطبقه أو يفسره تبعاً لما تقتضيه المصلحة، ولما يتسع له التفسير من حلول تفي بحاجات البلد، وتساير مقتضيات العدالة، وبذلك تتطور هذه النصوص في صميم الحياة القومية وتثبت ذاتيتها، ويتأكد استقلالها، ويتحقق ما قصد إليه واضعو المشروع من أن يكون لمصر قانون قومي يستند إلى قضاء وفقه لهما من الطابع الذاتي ما يجعل أثرهما ملحوظاً في التطور العالمي للقانون)[2].

ويعتذر في كتابه (الوسيط) عن عدم اتخاذ الشريعة الإسلامية الأساس الأول الذي بُني عليه القانون المدني بقوله: (أما جعل الشريعة الإسلامية هي الأساس الأول الذي ينبني عليه تشريعنا المدني، فلا يزال أمنية من أعز الأماني التي تختلج بها الصدور، وتنطوي عليها الجوانح، لكن قبل أن تصبح هذه الأمنية حقيقة واقعة ينبغي أن تقوم نهضة علمية قوية لدراسة الشريعة الإسلامية في ضوء القانون)[3].

ويقول في مذكراته الشخصية: (إن القرآن الكريم والحديث الشريف هما الجزء المجموع من القانون الإسلامي، وعندي أن لتفسيرهما يجب اتباع قاعدة أساسية وهي أن جزءاً من أحكامهما عام يصلح في عموميته لكل زمان ومكان ولهذا وضع، وجزءاً آخر خاص بالزمان والمكان اللذين وضع فيهما، فلا يتعدى إلى غيرهما إلا إذا اتحدت الظروف والأسباب، وفي القرآن الكريم نفسه ناسخ ومنسوخ، والنسخ هو قصر بعض أحكام جاءت في ظروف خاصة على هذه الظروف، واستبدال أحكام أخرى بها بعد زوال الظروف التي اقتضتها، ومما يجب التنبيه عليه أن كل ما ورد في القرآن والحديث مما يتعلق بعلاقة الخالق بالمخلوق هو من الأحكام العامة التي لا تتغير، لأن ظروف علاقة الخالق بالمخلوق لا تتغير، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣][4]، فعني بالدين هذه العلاقات، وقد وردت في كتابه الكريم مستوفاة لا حاجة إلى إكمالها، أما ما عدا الدين من الأمور الدنيوية فلا تشمله الآية، والسبب في ذلك ظاهر، وذلك أن الله تعالى ونبيه الكريم أمرانا أن نطيع العقل في أمور معاشنا وأن ننزل على قوانين العقل في ذلك، ومن قوانين العقل (قانون التطور)، وهذا القانون يقتضي ألا تثبت الحالات الاجتماعية على نسق واحد، بل هي تسير دائماً في تطور وتقدم، وأن من مقتضى هذا التطور أن تتطور معه علاقات البشر بعضها بالبعض، وتتغير تبعاً لذلك القوانين الاجتماعية، فأرادت حكمة الله تعالى ألا تُغلق باب التطور الاجتماعي الذي يقتضيه العقل في وجه الناس)[5].

---

(١) على أي أساس يكون تنقيح القانون المدني المصري (٢/ ١١٨).

ولعل هذا ما يُفسر ترتيب مصادر التشريع المدني الذي أشارت إليه (المادة الأولى) من القانون المدني، حيث نصت على أن: (تسري النصوص التشريعية على جميع المسائل التي تتناولها هذه النصوص في لفظها أو في فحواها، فإذا لم يوجد نص تشريعي يمكن تطبيقه حكم القاضي بمقتضى العرف، فإذا لم يوجد فبمقتضى مبادئ الشريعة الإسلامية، فإذا لم توجد فبمقتضى مبادئ القانون الطبيعي وقواعد العدالة)، فقدم نصوصه الوضعية ثم العرف على (مبادئ الشريعة).

وكذلك الأمر بشأن القانون المدني العراقي رقم ٤٠ لسنة ١٩٥١م، حيث نص في مادته الأولى على أن: (تسري النصوص التشريعية على جميع المسائل التي تتناولها هذه النصوص في لفظها أو في فحواها، فإذا لم يوجد نص تشريعي يمكن تطبيقه حكمت المحكمة بمقتضى العرف، فإذا لم يوجد فبمقتضى مبادئ الشريعة الإسلامية الأكثر ملاءمة لنصوص هذا القانون دون التقيد بمذهب معين، فإذا لم يوجد فبمقتضى قواعد العدالة، وتسترشد المحاكم في كل ذلك بالأحكام التي أقرها القضاء والفقه في العراق ثم في البلاد الأخرى التي تتقارب قوانينها مع القوانين العراقية).

ولا يُظن أن تقديم العرف على مبادئ الشريعة الإسلامية يتفق مع أحكامها لما للعرف فيها من اعتبار كمصدر من مصادر الأحكام الشرعية كما يذكر علماء الأصول، فإن العرف لا يُعمل به كمصدر من مصادر التشريع إلا حيث غاب النص من القرآن والسُّنة ولم يكن ثمة إجماع أو قياس صحيح؛ هذا من ناحية، ومن جهة أخرى فإن القانون الوضعي لم يُعرف العرف الذي يجب العمل به، ولم يضع له الضوابط الشرعية التي ذكرها العلماء من جهة اشتراط أن يكون صحيحاً غير مناقض لأحكام الشريعة الثابتة في الكتاب والسُّنة والإجماع والقياس الصحيح باعتبارها المصادر الشرعية المتفق عليها، وألا يفوت مصلحة معتبرة، وألا يجلب مفسدة راجحة، فعُلم من هذا أن القانون الوضعي يسوي بين العرف الصحيح والعرف الفاسد، وأن كلاهما مقدم على مبادئ الشريعة عند خلو النص القانوني، وهذا مما ينافي أحكام الشريعة بلا ريب ولا خلاف كما هو معلوم.

(٢) الوسيط في شرح القانون المدني (١ / ٩).

(٣) الوسيط في شرح القانون المدني (١ / ٤٨).

(٤) سورة المائدة: الآية (٣).

(٥) عبد الرزاق السنهوري من خلال أوراقه الشخصية (١٦٩).

ويقول أيضاً: (لو أمكن مزج القبطي والمسلم مزجاً تاماً حتى تنعدم كل الفروق لكان هذا خير ما يُرجى، لكني أرى أنه يحسن الآن بذل كل مجهود لحصر هذه الفروق في دائرة ضيقة وهي دائرة الاعتقاد الديني، ولا يكون لهذا أثره في الحياة المدنية للمصري)[1].

فإذا كان ما تقدم فلا يمكن أن يُقال إذاً إن السنهوري عمد إلى تقنين الفقه الإسلامي بطريقة متدرجة[2] تعتمد على خلطه بالتقنينات الغربية أو التقنينات الوضعية التي كان معمولاً بها، إذ صريح كلامه يدل على أنه عمد إلى ذلك عن اقتناع وقصد بُغية خلق قواعد قانونية قومية ذاتية منفصلة تماماً عن الشريعة الإسلامية، فضلاً عن ذلك فإن هذا التدرج إن صح في شأن ما فعله بالقانون المدني المصري الذي حل محل القانون المدني القديم الذي كانت تطبقه المحاكم المختلطة والأهلية؛ لن يصح أبداً ولن يجد له مبرراً في شأن القانونين المدنيين العراقي والسوري اللذين تم إحلالهما محل (مجلة الأحكام العدلية) التي كانت مؤسسة على الفقه الحنفي، ولن يجد له مبرراً في شأن دستور الكويت، وغير ذلك مما قننه أو أسهم في تقنينه من دساتير وقوانين في البلاد العربية التي كانت تطبق الشريعة الإسلامية أو قريبة العهد من ذلك.

يقول الأستاذ الدكتور عمر سليمان الأشقر - رحمه الله - عن دعوى اعتماد السنهوري على الشريعة الإسلامية كمصدر رئيسي لأحكام القانون المدني: (النصوص القليلة التي أُخذت من الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامي روعي فيها أن تكون متفقة مع المبادئ التي قام عليها القانون، فالقانون هو المهيمن على الشريعة الإسلامية؛ يأخذ منها ما يوافقه ويرفض ما لا يتفق مع مبادئه، يقول الدكتور السنهوري في هذا: «يُراعى في الأخذ بأحكام الفقه الإسلامي التنسيق بين هذه الأحكام والمبادئ العامة التي يقوم عليها التشريع المدني في جملته، فلا يجوز الأخذ بحكم في الفقه الإسلامي يتعارض مع مبدأ من هذه المبادئ؛ حتى لا يفقد القانون المدني تجانسه وانسجامه»[3].. فمدى صلاح الحكم الموجود في الشريعة الإسلامية للقانون المدني مبني على موافقته للمبادئ التي بُني عليها القانون الوضعي، وهل يليق بالدكتور السنهوري أن يُقسم أحكام الشريعة إلى أحكام صالحة وأحكام غير صالحة، ويُنصب نفسه حكماً يأخذ منها ما يشاء ويدع ما يشاء)[4].

ويقول الدكتور محمد كامل ضاهر عن الأسس التي أقام عليها الدكتور السنهوري التقنينات المدنية التي قام بوضعها: (يرجع الفضل إلى السنهوري بصورة خاصة في وضع تشريعات مدنية عربية على أسس علمانية تتلاءم مع تطورات العصر والأوضاع الداخلية لكل بلد عربي، وعندما يضطر إلى أخذ الفقه الإسلامي كمصدر يمزجه مع التشريع الغربي ليأتي منسجماً مع السياق العام للقانون)[5].

ويقول الأستاذ صبحي صالح واصفاً (القانون المدني) الذي قام السنهوري بوضعه: (وفي الخامس عشر من أكتوبر سنة ١٩٤٩م بدأ العمل بالقانون المدني الجديد الذي ولد من رحم القانون المدني القديم تهذيباً وتقنيناً لما استقر من المبادئ في أحكام القضاء الحالي، وهذا الأخير لم يولد من رحم الشريعة الإسلامية أصلاً، ولم ينتسب لها بأي نسب)[6].

فلا يُغتر بعد هذا بكلام السنهوري عن تجديد الفقه الإسلامي وتطوير الشريعة، فإن إقصاء الشريعة ودخول القوانين الأوروبية للبلاد الإسلامية لم يبدأ إلا بهذه الدعوى، وقد فطن لذلك عدد من أهل العلم الصادقين المخلصين فتصدوا لرد هذه الدعوى وكشف حقيقتها، فاتُّهموا بالجمود والتشدد زوراً وبهتاناً، وما دفعهم للرد سوى مواجهة محاولات التغريب والتخريب في الفقه والتشريع من خلال هذه الدعوى التي تولى كبرها عبد الرزاق السنهوري

(١) عبد الرزاق السنهوري من خلال أوراقه الشخصية (٩٩).
(٢) كما زعم الأستاذ الدكتور محمد عمارة في كتابه الدكتور عبد الرزاق السنهوري.. إسلامية الدولة والمدنية والقانون (٥٠).
(٣) الوسيط في شرح القانون المدني (١ / ٦١).
(٤) الشريعة الإلهية لا القوانين الجاهلية (١٣٠: ١٣١).
(٥) الصراع بين التيارين الديني والعلماني (٢٩٧: ٢٩٨).
(٦) العلمانية في قفص الاتهام.. الغزو العلماني للتشريع وأثره على المجتمع: مجلة البيان، العدد ١٦٠، ذو الحجة ١٤٢١ هـ (مارس ٢٠٠١م)، (ص ٧٠).

وعبد العزيز باشا فهمي[1] وأمثالهما.

يقول الأستاذ أنور الجندي - رحمه الله - عند حديثه عن قضية (تطوير الشـــريعة الإســـلامية) التي أثارها السنهوري: (وهي دعوة يحمل لواءها من وقت بعيد: محمد النويهي وعبد الحميد متولي ومحمد أحمد خلف الله وآخرون، بهدف تذليل الشريعة لتبرير أوضاع المجتمعات الحديثة، وفي مقدمتها الربا وعلاقات المرأة والرجل خارج نطاق الزواج، واحتواء الشـــريعة الإســـلامية ونصوصها في داخل القانون الوضعي على النحو المســـموم الذي دعا إليه عبد الرزاق الســـنهوري منذ سنوات، وهي دعوى ممتـــدة يغذيها النفوذ الأجنبـــي ليحول بها دون تطبيق المجتمعات الإسلامية للشـــريعة الإسلامية أو عودتها إلى طريق الأصالة، ومن أهم هذه المحاولات المسمومة: القول بتغير الأحكام مع تغيـــر الزمان، وهو قول محدود جداً يتصل بالفرعيـــات ويعتمد في ذلك على نص للشـــيخ محمد عبده الذي يعتمد عليه الماركســـيون وأعداء الشريعة لا يمثل الإمام المجتهد ولا المتخصص في هذا الأمر، وإنما هي اجتهادات كان لها وضعها وظروفها في وقت كانت فيه الشـــريعة الإسلامية تضرب بالسياط على أيدي كروم في مصر وليوق في المغرب، وهي لا تمثـــل اجتهاداً يمكن الأخذ بـــه، كذلك الخطأ الذي وقـــع فيه علي عبد الرازق حين أراد أن يصف الإســـلام بأنه دين روحاني ويلغي نظامه الاجتماعي إلغاء تاماً، وتلقف بعض المستشـــرقين هذه النصوص الزائفة التي لم يعتمد فيها على كتاب أو سُـــنة لضرب الإســـلام، كذلك محاولة وضع العقيدة في مـــكان الثبات والشـــريعة في مكان المتغيـــر، وهذا أيضاً غير صحيح على إطلاقه، إن الشـــريعة الإسلامية إنما جاءت خالصة ثابتة صالحـــة لكل العصور والبيئات إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها)[2].

ويقـــول الدكتور محمد محمد حســـين - رحمه الله - عن مفهوم (تطوير الشـــريعة الإســـلامية) عند الســـنهوري: (وهو يقصد بتطوير الشـــريعة الإسلامية جعلها ملائمة لنظم حياتنا ولأنماطهـــا المنقولة عن الغرب المســـيحي، أو الغرب اللا ديني على الأصح، فهو يريد أن يشكل الشريعة الإسلامية بشكل هذه الحياة بدل أن يشكل الحياة بشكل الشريعة، أي أنه يحكم هذه الأنماط الغربية في الشـــريعة بدلاً من أن يحكم الشـــريعة في اختيار ما يلائمنا من هذه الأنماط، أو بعبارة أخرى هو يعرض الشريعة على واقع الحياة ولا يعرض واقع الحياة على الشريعة، وهو مع ذلك لا يميز بين الشـــريعة الإسلامية المنـزلة من عند اللـــه وبين القانون الغربي الذي صنعتـــه المصالح والأهواء، بل الذي صنعته اليهودية العالمية في بعض الأحيان، كما هو الشأن في القانون الفرنسي الذي استمد منه القانون المصري بخاصة؛ لأن هذا القانون ثمرة من ثمار الثورة الفرنســـية اليهودية التي أصبحت فرنســـا من وقتها دولة لا دينية من الناحية الرسمية علـــى الأقل، وما وجه المقارنة بين قانون صنعه الإنســـان وبين قانون منـزل من عند الله العليم الخبير؟ إن الذي يعتريه شـــك في أن الشـــريعة الإسلامية - كما هي في القرآن الكريم وكما بيّنتها السُّـــنة الشريفة - منـزلة من عند الله فهو كافر، والذي يؤمن بأنها منـزلة من عند الله لا يعتريه شـــك في صلاحيتها لكل زمان ومكان؛ لأن الله سبحانه وتعالى يعلم الماضي والحاضر والمســـتقبل، قد أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً، ولا يعـــزب عن علمه مثقال ذرة في الســـموات ولا في الأرض،

(١) وهو عبد العزيز فهمي حجازي عمر، المعروف بعبد العزيز باشا فهمي، أحد أشهر رجال القانون في مصر، ولد بتاريخ ٢٣ ديسمبر ١٨٧٠م بقرية (كفر المصيلحة) من أعمال (محافظة المنوفية)، تلقى تعليمه الأول في بلدته، درس أولاً بالأزهر ثم نُقل إلى المدارس النظامية، حيث حصل على الابتدائية ثم الثانوية، ثم التحق بمدرسة (كلية) الحقوق فتخرج منها وحصل على الليسانس عام ١٨٩٠م، عمل أثناء دراسته بمدرسة الحقوق ترجماً بنظارة الأشغال، ثم عمل عقب تخرجه معاوناً للإدارة بالدقهلية، ثم كاتباً بمحكمة طنطا، وترقى حتى اختير وكيلاً للمستشار القضائي لوزارة الأوقاف، لكنه استقال عام ١٩٠٣م حيث عمل بالمحاماة، فاشتهر أمره لما ارتبط بسعد زغلول وانخرط في النشاط السياسي الداعي لإصلاح عمل الحكومة وحصول مصر على استقلالها الكامل، واختير عام ١٩٢٠م لوضع مشروع الدستور المصري، وكان ذلك أثناء وجوده في (باريس)، فوضع المشروع على نهج الدساتير الأوروبية، إلا أن سعد زغلول عارضه معترضاً على بعض مواده، وبعد حصول مصر على استقلالها تولى فهمي رئاسة (حزب الأحرار الدستوريين)، وتم ترشيحه في البرلمان باعتباره رئيساً للحزب، ثم تولى وزارة الحقانية (العدل)، ولم يلبث أن أقيل في سبتمبر ١٩٢٥م، وفي العام التالي تنازل فهمي عن رئاسة الحزب وتفرغ للعمل، وفي نفس العام رشح فهمي رئيساً لمحكمة الاستئناف، لكنه استقال من رئاسة المحكمة عام ١٩٣٠م، ليتولى رئاسة محكمة النقض التي أُنشئت في ذات العام، ثم اختتم حياته الوظيفية بالعودة للعمل بمهنة المحاماة، وتوفي عام ١٩٥١م.

وقد انخدع به كثير من الناس - لا سيما من القضاة والمتخصصين - وأسرفوا في تعظيمه وتبجيله دون حق، إذ كان من المحاربين للشريعة والداعين إلى إقصاء التشريع من الحكم، وعندما نُشر كتاب (الإسلام وأصول الحكم) لعلي عبد الرازق، وتصدى العلماء للرد عليه، وقررت (هيئة كبار العلماء) نزع شهادة العالمية من المؤلف وطرده من الأزهر؛ خرج عبد العزيز فهمي في موقف غريب شاذ، حيث أرسل شيخ الأزهر قرار (هيئة كبار العلماء) بعزل علي عبد الرازق إلى عبد العزيز فهمي بصفته وزير الحقانية (العدل) وقتئذ، بُغية التصديق على القرار، فما كان من فهمي إلا أن رفض التصديق على القرار ورد قائلاً: (أحضرت هذا الكتاب وقرأته، فلم أجد فيه أدنى فكرة يؤاخذ عليها مؤلفه)، وقال: (ثقل على ذمتي أن أنفذ هذا الحكم الذي هو ذاته باطل لصدوره من هيئة غير مختصة بالقضاء، وفي جريمة الخطأ في الرأي من عالم مسلم يشيد بالإسلام، وكل ما في الأمر أن من يتهمونه يتأولون في أقواله ويولدون منها تهماً ما أنزل الله بها من سلطان).

وقد تصدى للرد على عبد العزيز فهمي وبيان فساد أقواله وأفكاره: الأستاذ الكبير محب الدين الخطيب، والقاضي العلامة أحمد محمد شاكر - رحمهما الله.

(٢) رجال اختلف فيهم الرأي من أرسطو إلى لويس عوض (٩٨).

بذلك وصف نفسه سبحانه في محكم كتابه، وبذلك يؤمن المسلمون، والذي يهدف إليه السنهوري هو شر الحلول؛ لأن الذي يفعله هو تبديل الشريعة الإسلامية، ولا شك أن تفاعل الشريعة الإسلامية السماوية مع شرائع الغرب الوضعية هو شر مما كان حادثاً من استعارة القانون الغربي كله أو بعضه، لأن من الممكن التخلص من الدخيل في هذه الحالة، أما في حالة الاندماج والتفاعل فإدراك الحدود بينهما صعب، وتخليص الشريعة الإسلامية مما دخلها من أسباب الزيغ والانحراف يكاد يتعذر بعد أن تتغلغل الروح الغربية في كيانها، ويصبح الناتج من تفاعلهما شيئاً جديداً معقد التركيب تختلف خصائصه وصفاته عن كل من العنصرين المكونين له، ثم إن الناس في الحالة الأولى يدركون إدراكاً واضحاً أن القانون الذي يحكمهم قانون دخيل، أما في الحالة الثانية فقد يتوهمون أن القانون الذي يحتكمون إليه قانون إسلامي، بل إن كاتب المقال يزعم لهم ذلك منذ الآن، والواقع أن هذا الذي يفعله السنهوري هو الذي يهدف إليه الاستعباد الغربي..)[1]، ثم يقول: (وتطوير الفقه الإسلامي الذي يدعو إليه الكاتب، أو تبديله على الأصح، هو تطوير وتبديل لا يقف عند حد حسب اعترافه هو نفسه حيث يقول: «فالهدف الذي نرمي إليه هو تطوير الفقه الإسلامي وفقاً لأصول صناعته، حتى نشتق منه قانوناً حديثاً يصلح للعصر الذي نعيش فيه، فإذا استخلصنا هذا القانون في نهاية الدرس وأبقيناه دائم التطور حتى يجاري مدنيات العصور المتعاقبة، فقد تكون أحكامه في جزء منها، قل أو كثر، مطابقة لأحكام القانون المدني العراقي أو لأحكام القانون المدني المصري أو لأحكام كل من القانونين..»، والمهم في ذلك كله أن هذا التطور الدائم سينتهي بذلك التشريع الإسلامي المزعوم في المدى القريب أو البعيد إلى أن يصبح شيئاً مختلفاً عن الإسلام الذي أنزل على نبينا عليه الصلاة والسلام اختلافاً تاماً)[2].

ويقول الدكتور محمد كامل ضاهر: (أصدر القانوني الشهير عبد الرزاق السنهوري خلال دراسته الحقوق في باريس كتاباً بالفرنسية[3] نقض فيه ادعاء علي عبد الرازق بأن السلطة السياسية لم تكن من صلب رسالة الإسلام، وأكد على أن الإسلام دين ودولة، وأن من الممكن تطوير مفهوم الخلافة لتصبح (عصبة للأمم الشرقية) بدلاً من إلغائها، وبموجب هذا التطوير يصبح الخليفة رئيساً فخرياً لاتحاد الدول الإسلامية، بحيث تنحصر سلطاته في القضايا الدينية فقط، بينما تصبح الشؤون المدنية التي تنظم العلاقات بين أفراد المجتمع من اختصاص رؤساء تلك الدول والحكومات، واقترح السنهوري في كتابه فصل الأمور الدينية في الشريعة – خصوصاً ما يتعلق منها بالطقوس والفرائض – عن الشؤون المدنية والدنيوية، ووضع هذه الشؤون تحت الإشراف المباشر للسلطات المدنية. لم تكن للسنهوري يومها شهرة في عالم القانون، إلا أن هذه الشهرة واتته بعد ذلك ليصبح أعظم المشرعين العرب المعاصرين، وواضع معظم دساتير[4] الدول العربية في عهود استقلالها. إن المنحى الأساسي الذي ضمّنه السنهوري في هذه الدساتير هو العلمنة، أي عدم جعل الشريعة الإسلامية والفقه الإسلامي من مصادرها الرئيسية، بدا ذلك واضحاً في مسودة القانون المدني المصري الجديد الذي كلف بوضعها بالاشتراك مع القانوني الفرنسي لامبير..)[5].

وقد تصدى للرد على السنهوري وبيان تحريفه وانحرافه عدد من أهل العلم، منهم: الدكتور محمد محمد حسين[6]، الشيخ عبد الرحمن الدوسري[7]، الشيخ عبد الله النوري، الأستاذ أنور الجندي[8]، الدكتور محمد كامل ضاهر[9]، الأستاذ الدكتور عمر سليمان الأشقر[10]، الشيخ سليمان بن صالح الخراشي[11]، الدكتور أحمد بن عبد العزيز الحصين[12]، وغيرهم.

هذا والحمد لله، وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

---

(١) حصوننا مهددة من داخلها (١١٣: ١١٤).

(٢) حصوننا مهددة من داخلها (١١٨).

(٣) يقصد كتابه: (فقه الخلافة وتطورها لتصبح عصبة أمم شرقية)، وهو رسالته لنيل درجة الدكتوراه في العلوم السياسية من جامعة ليون في فرنسا عام ١٩٢٦م.

(٤) يقصد الدكتور ضاهر بـ (الدساتير): التقنينات الوضعية بصفة عامة وليس الدساتير الأساسية لنظم الدول السياسية فحسب، بدليل قوله (معظم دساتير الدول العربية)، فالسنهوري لم يضع معظم دساتير نظم هذه الدول السياسية، وإنما وضع معظم تقنيناتها المدنية وبعض التشريعات الخاصة بها فضلاً عن دستور دولة الكويت كما سبق أن بينا، كما أن سياق الكلام بعد ذلك عن القانون المدني المصري يدل على أن الدكتور كامل أراد بلفظ (دساتير): التشريعات والتقنينات بصفة عامة، والله تعالى أعلم.

(٥) الصراع بين التيارين الديني والعلماني (٢٩٥: ٢٩٦).

(٦) في كتابه: (حصوننا مهددة من داخلها)، وكان من المعاصرين للدكتور عبد الرزاق السنهوري.

(٧) كان من المعاصرين أيضاً للدكتور السنهوري، يقول رحمه الله: (حين جاء الدكتور عبد الرزاق السنهوري إلى الكويت دخلتُ عليه في مكتبه وقلت له: اتق الله يا دكتور، إن عملك هذا يخالف الشرع، وإنك مسؤول عن تطبيق هذه القوانين في الكويت وفي غيرها، فكان الرد من الدكتور قائلاً: حكومة الكويت تريد هذا).

(٨) في كتابه: رجال اختلف فيهم الرأي من أرسطو إلى لويس عوض.

(٩) في كتابه: الصراع بين التيارين الديني والعلماني.

(١٠) في كتابه: الشريعة الإلهية لا القوانين الجاهلية.

(١١) في كتابه: نظرات شرعية في فكر منحرف.

(١٢) في كتابه: من طلائع التغريب والتخريب.

[قصة قصيرة]

فتاتي

عادل مناع

لست أذكر تحديداً تلك الليلة التي وقفتُ فيها أتأمل هيئتي وهندامي.. أطالع بإعجاب ذلك الجسد الفتي، وتلك الثياب الراقية.. أستعرض نفسي أمام المرآة من جهات شتى.. بدا لي أن أتخيل ذلك الرجل الذي أراه في المرآة شخصاً آخر غيري، فأبدي بحيادية رأيي في وجاهته.. حقاً لقد نال إعجابي، ومنحته ابتسامة عريضة، لكن فجأة...

برزت شاخصة أمامي، نعم هي، كنت أعلم أنها ستأتي، لكني لم أتوقع أن تباغتني على هذا النحو.

وقفتُ أطالعها في هلع، أتساءل في نفسي قبل أن أحدثها: ما الذي جاء بها إلى هنا؟ لماذا تأتيني في هذا الوقت بالذات؟

خرجتُ من صمتي، سألتها: لماذا أتيتِ؟ لماذا؟

لم ينبعث منها صوت تسمعه أذناي، لكني سمعتها في ردهات عقلي، نعم، تسللت منها كلمات وجدت معانيها في قلبي، ولا تسألوني كيف، لكنه قد حدث.

"هل أزعجتك؟"، نطقت بها، أو هكذا استقبلتها في نفسي، فأجبتها في عصبية وتوتر: قطعاً أزعجتني.

هي: لماذا؟

صمت وطال صمتي وأنا أرمقها بنظرات تجمع بين الوجل والحنق، وتتراقص مقاطع الكلمات على شفتي دون أن تسيل واحدة منها، فأرخيت قسمات وجهي وأغمضت عيني.

هي: أعرف السبب.

فتحت عيني بغتة وكأنما لُدغت، واريت نظراتي، وأطرقت برأسي خجلاً، ثم انتفضت وقد خطر لي التخلص منها، وعلى الفور جذبتها بعنف إلى خارج منزلي وأغلقت الباب ثم أسندت ظهري إليه وقد سرني أنها خرجت من حياتي.

مرَّ علي قرابة شهر هنئت فيه بحياتي الهادئة، إلى أن جاءت تلك الليلة التي قطعت علي وصال سعادتي.

أنا: رباه، أنت مرة أخرى؟ لماذا أتيتِ ثانية؟

أجابتني بسخرية: أنا قدرك، أتراك تفر من قدرك المحتوم؟

أنا: ماذا تريدين مني؟

هي في عصبية بالغة: بل أنت ماذا تريد مني؟

استعرت منها تلك العصبية قائلاً: أنت من أتى إليّ.

هي: أعرف أنك تبغضني أكثر من أي شيء، وأعتقد أنك تعرف السبب أكثر مني، لأنني أفسد عليك أوهامك التي غرقت في أعماقها.

قاطعتها: كفى.. لكنها استطردت: تريد أن تظل سابحاً في أحلام الصبا، تريد أن تتنصل من مسؤولياتك تجاه نفسك في غدك.

قلت في خفوت ووهن: كفى، دعيني وشأني، اتركيني لا أريد أن أفيق من سكرة عشقتها.

قالت في حنان غير مألوف: صدقني أنا أنفع لك من أوهامك، أنا الحقيقة، وما تحاول إقناع نفسك به هو الخيال.

نظرت إليها بهدوء، فبدت لي في هيئة مختلفة عن تلك المرة الأولى، لقد راقت لي، لا أدري كيف، تخيلتها معي كرفيقة لي على دربي، تذكرني إذا نسيت، وتوقظني إن رقدت في سبات الغفلة، ووجدت هذه الخواطر تشق طريقها إلى قلبي، وتلقى الرضا في أعماقي...

حقاً أريدها الآن، أصطحبها معي في كل مكان، تكون لي معلماً وناصحاً، لن أتوارى بها خجلاً.

نظرت إليها في حنان وامتنان، ومددت يدي إليها، ومسحت بأناملي على ظهرها، وهمست لها قائلاً: شكراً لك عزيزتي، شكراً لك فتاتي...

شكراً أيتها الشعرة البيضاء.

الآن

يمكنك تصفح

البيان

زاوية الأخبار "IPad" Newsstand

Available on the App Store

www.albayan.co.uk

من تاريخ الإسلام في الولايات المتحدة

■ محمد وقيع الله أحمد(*)

مقدمة:

تَاحَ للإسلام أن ينداح بسرعة وسهولة نسبية إلى شتى أنحاء العالم، حتى استقر فيها استقراراً راسخاً، وذلك فيما عدا استثناءات قليلة مثلتها الأندلس وبعض جزائر البحر الأبيض المتوسط.

أما انتقال الإسلام إلى العالم الجديد فقد تأخر واكتنفته ولا تزال تكتنفه صعوبات أخَّرت عملية تغلغله وتأصله في تلك الأنحاء.

(*) جامعة خليفة للعلوم والتكنولوجيا والبحوث، الشارقة – الإمارات العربية المتحدة.

المستكشفون الأوائل:

ويلاحظ المستقرئ لتاريخ الهجرة الأولى التي جاءت بالمسلمين إلى القارة الأمريكية عموماً، والولايات المتحدة خصوصاً؛ أنه قد صاحبتها ظروف لم يتمكن أولئك المهاجرون من تطويعها، بل تمكنت من تطويعهم وتذويبهم في المصهر الأمريكي حتى غدوا مواطنين أمريكيين بلا هوية أصلية يعتدون بها، والقلائل منهم ممن تهيأ لهم الاحتفاظ بشيء من معالم الهوية الأصلية، فإن حديثهم عنها لم يعد سوى حديث الذكريات البعيدة التي يحملها شتى المهاجرين المتأمركين عن أوطانهم الأولى.

وقد جاء المسلمون الأوائل إلى أمريكا مستكشفين لهذه الديار القصية عن العالم القديم، بيْد أنهم لم يأتوا في ظروف نهضة صناعية ولا أوضاع تفوّق علمي باهر، ولا جاؤوا بأعداد كبيرة بحيث تتم لهم الغلبة التامة والسيطرة على المحيط الذي انتهوا إليه.

وقد أكثرت الوثائق التاريخية من ذكر أخبار الأقوام الذين هبطوا العالم الجديد قبل كولومبوس، فتُحدِّثنا الوثائق الصينية القديمة التي تعرّضت للحديث عن مختلف الهجرات العالمية، مفصلة القول في هجرة بعض العرب المسلمين من أتباع دولة المرابطين المغربية التي دامت بين القرنين الحادي والثاني عشر الميلاديين، فتقول إن تلك الهجرة قطعت بحراً كبيراً خالياً من الجزر ومخرت أمواجه لأكثر من مائة يوم حتى انتهت إلى ما يعرف اليوم بأمريكا.

وتعرّضت الوثيقة للحديث عن حجم السفن التي امتطاها العرب القدامى، فذكرت أنها كانت أضخم عشرات المرات من السفن التي أتى بها المستكشف الإيطالي كريستوفر كولومبس[1]. وبقية ما جاء من تفاصيل في الوثيقة يتفق تماماً مع ما أورده المؤرخ الإسلامي الشريف الإدريسي عن رحلة عربية أخرى في كتابه: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الذي نال شهرة ضافية في السنوات الأخيرة في أوساط بعض الباحثين والمؤرخين الغربيين.

والواضح في أمر هاتين الرحلتين أن أصحابهما رجعوا أدراجهم حتى بلغوا ديارهم، وحدّثوا أهاليهم أنهم قد التقوا في أمريكا أقواماً كانوا قد وصلوها قبلهم، وألفوهم يتحدثون مثلهم بلغة الضاد، وتولوا أمر الترجمة بينهم وبين السكان المحليين، وهنالك تفاصيل أخرى اهتم بسردها الإدريسي بخاصة لا تهمنا في هذا السياق[2].

ولم تتحدث أي وثيقة لاحقة عن مصير العرب الأوائل الذين استوطنوا أمريكا منذ القرن العاشر الميلادي فيما يثير الافتراضات المرجحة بأنهم ربما اندمجوا تدريجياً في السكان المحليين وفقدوا مقوماتهم وثقافاتهم الذاتية، أو ربما اندثروا بفعل الحروب الطاحنة التي كانت تدور بين المجموعات الإثنية بأمريكا في ذلك الأوان.

وفي أوائل القرن الرابع عشر الميلادي طرقت بعثة استكشافية إسلامية إفريقية أخرى شواطئ أمريكا، يقودها ملكٌ من مالي يسمى أبو بكر، كان غنياً غنى أسطورياً تحدث عنه ابن بطوطة [و] القلقشندي وابن فضل الله العمري.

وقد قرر ذلك الملك أن يستخدم تلك الثروة الهائلة فيركب ثبج البحر ليكتشف ما وراءه من الآفاق، وقد حكى العمري أنه سأل ابن أبي بكر عن سرِّ انتقال الملك إليه، فأفاده قائلاً: «إن الذي كان قبلي يظن أن البحر المحيط له غاية تدرك، فجهز مِئين سفن، وشحنها بالرجال والأزواد التي تكفيهم سنين، وأمر من فيها أن لا يرجعوا حتى يبلغوا نهايته أو تنفد أزوادهم، فغابوا مدة طويلة، ثم عاد منهم سفينة واحدة، وحضر مقدَّمها، فسأله عن أمرهم، فقال: سارت السفن زماناً طويلاً حتى عرض لها في البحر في وسط اللجة واد له جرية عظيمة، فابتلع تلك المراكب، وكنت آخر القوم، فرجعت بسفينتي، فلم يصدقه، فجهز ألفاً للرجال وألفاً للأزواد، واستخلفني وسافر بنفسه ليعلم حقيقة ذلك، فكان آخر العهد به وبمن معه»[3].

وقد حقق في تفاصيل ما جرى لهاتين البعثتين عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي المعاصر البروفيسور إيفان فان

(١) راجع تفاصيل ما جاء في الوثائق الجغرافية الصينية القديمة التي يرجع تاريخها إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين في ترجمتها إلى الإنجليزية بقلم:
W. W. Rockhill & Friedrich Hirth, »Chau Ju-Kua: His Work on The Chinese and Arab Trade in The Twelfth and Thirteen Centuries«, entitled: Chu – Fan Chi (St. Petersburg,1911).

(٢) الشريف الإدريسي، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، طبع في مدينة لبيدن [ليدن] المحروسة، بمطبع بريل، ١٩٩٨، ص ١٨٣–١٨٥.

(٣) أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، (القاهرة: دار الكتب الخديوية، ١٩١٥م) ٥ / ٢٩٤–٢٩٥.

ســـيرتيما، فأكد أن الأولى تحطمت على التيار المائي الاســـتوائي الذي يجري داخل المحيط قرابة ســـواحل فلوريدا، ورجَّح بشواهد أثرية لقبور أشخاص سود ترجع إلى تلك الفترة بالتحديد وصول البعثة الثانية واستقرارها في نواحي فلوريدا والمكسيك واختلاطها بالهنود الحمر هناك[١].

وربما كان بقايا هؤلاء الرجال هم أولئك السود الذين التقاهم كريستوفر كولومبس وتحدث عنهم في مذكراته عن الرحلة الثالثة، ووصفهم بأنهم كانوا ســـود البشرة، ويحملون أسلحة مذهبة، وأنهم أغنياء بما لهم من متاع[٢] وأدوات، وربما تمت إبادة هؤلاء الســـكان لاحقاً ضمن الأقوام والســـكان المحليين الذين أجهز عليهم المهاجرون الأوروبيون الذين توافدوا على القارة الأمريكية إثر كولومبس. وربما كانت المساجد الأثرية التي اكتشفت في كل من نيفادا وتكساس والمكسيك من بقايا آثارهم.

وقد ذكر كولومبس في مذكراته بتاريخ الحادي عشـــر من أكتوبر ١٤٩٢م، أنه ربما رأى مسجداً بمنارة طويلة قبالة الســـاحل الكوبي[٣]، وكولومبس يعرف المســـاجد جيـــداً؛ لأنه أتى من الأندلس المسلمة في عام سقوطها في يد النصارى[٤]، فإن كان ما رآه مسجداً بالفعل فلعله كان أيضاً من آثار أولئك الأفارقة المسلمين الذين هبطوا أمريكا قبله.

وأما غناهم الذي وصفه كولومبوس ووصفه من قبله ابن بطوطة والقلقشندي وآخرون، فمع أنه أوصلهم إلى حواشي العالم الجديد، إلا أنه ظل غنىً (شيئياً) – بلغة مالك بن نبي، رحمه الله – لم يغن عنهم شيئاً، إذ لم يتحول إلى مادة ثورة صـناعية تنتج ما يقابل ويكافئ السلاح الأوروبي الحديث الذي استخدم لاستئصال وجودهم من على التراب الأمريكي!

---

(١) , , 1976 house Ivan Van Sertima They Came before Columbus: The African Presence in Ancient America Random..

وراجع كذلك الكتاب التحقيقي القيم بعنوان: Michael Bradley, The Black Discovery of America: Amazing Evidence of Daring Voyages by Ancient West African Mariners, Personal Library, Toronto, Canada, 1981, P.P. 418-.

(٢) Samuel E. Morison, Journals and Other Documents on the Life and Voyages of Christopher Columbus, , Heritage Press, New York 1963 P 237.

(٣) The Journal of Christopher Columbus, Translated By Cecil Jane ,Clarkson N. Potter , New York 1969 P. 4142-.

(٤) وكان كولومبوس في الحقيقة طليعة حملة صليبية جديدة نوعية الطابع رنت إلى الوصول إلى القدس عن طريق الهند، فوصلت من حيث لم تتوقع إلى ما يعرف بأمريكا اليوم! راجع في تفاصيل ذلك: Rafael A. Guevara Bazan , Some notes For History Of ذلك Relations Between Latin America , The Arabs And Islam > “ The Muslem World ‘ October , 1971 , P. 286-287.

آثار الموريسكيين:

وفي ظروف التضييق على مسلمي الأندلس من قبل محاكم التفتيش النصرانية، فرت أعداد متكاثرة منهم إلى المغرب العربي، حيث استقروا هناك، بيد أن أعداداً وفيرة أخرى قطعت المحيط الأطلسي واستقرت في أمريكا.

وهؤلاء وُجدت آثار لغتهم العربية مختلطة - حتى اليوم! - بلغة الهنود الحمر، سكان أمريكا الأصليين، كما أكد ذلك بشكل قاطع أستاذ جامعة هارفارد الأسبق البروفيسور ليو واينر، الذي كان معروفاً بإجادته لعلم اللغات وإجادته لأكثر من ١٢ لغة عالمية.

وقد ذكر كولمبس [يُطَّرد في كتابة الاسم] أيضاً أنه رأى أقواماً يشبهون أهل الأندلس، واستغرب من انتشار الحجاب في أوساط نسائهم. وذكر مكتشف إسباني آخر هو هيرناندو كورتيز أن أولئك النسوة كن يرتدين البراقع التي كانت ترتديها نساء الأندلس. وذكر المكتشف الإسباني فيرناند كولومبس أنهن كن يرتدين ملابس تماثل ملابس نساء غرناطة، بينما كان أطفالهن يرتدون أيضاً أزياء أطفال غرناطة[١].

وبدهي أن أمثال أولئك المستضعفين الفارين بدينهم ودنياهم لا يرتجى لهم مستقبل آمن في ظل ما دهمهم بوصول حملات أعدائهم الإسبان إلى الدنيا الجديدة، فقد استؤصل وجودهم بعد ذلك بوقت قليل، وقد تم ذلك قبل أن يتم استئصال أصدقائهم الذين أَنِسُوا بهم في الغربة من الهنود الحمر.. فمن أولئك الأندلسيين المعذبين من استتيب وقبل اعتناق النصرانية على مستوى الظاهر على الأقل، ومنهم من أُعدم حرقاً بالنار، ومنهم من أعيد إلى إسبانيا ليحاكم هناك أمام محاكم التفتيش.. فقد كان المطلوب كما تقول الوثائق: «ألا يوجد أي مجال لنشر الدين المحمدي»[٢] عن طريقهم في أمريكا.

وكما يقول لوي كارديك فإن: «ديوان التحقيق لم يفتش فقط عن القضايا المتعلقة بالمسلمين، بل ما وراء كل أثر إسلامي لدى الفرد المسيحي» في العالم الجديد[٣]. فكان المقصود في الجملة منع تأثير المسلمين في عقائد النصارى الأمريكيين ولو من بعيد.

(١) Youssef Mrouch, Pre – Columbian Muslims in America, "The Message" July, 1997. P. 1 9.

(٢) جاء هذا النص في خطاب رسمي أرسله المسؤولون الإسبان إلى أحد ولاتهم بأمريكا، وقد ضمه الكتاب التوثيقي القيم: «الموريسكيون الأندلسيون والسيحيون: المجابهة الجدلية (١٤٩٢-١٦٤٠م)»، مع ملحق بدراسة عن الموريسكيين بأمريكا، من تأليف لوي كارديك، ترجمة عبد الجليل التميمي (تونس- زغوان: نشر مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكية، ١٩٨٩م) ص ١٥٢.

(٣) المصدر السابق، ص ١٥٥.

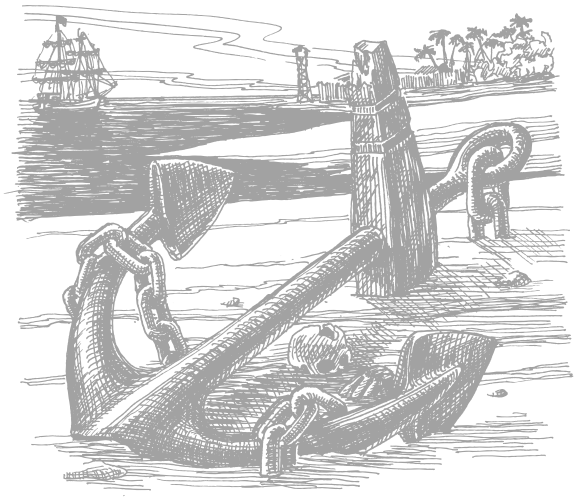

استرقاق الأفارقة المسلمين:

وبعد استقرار أوضاع المهاجرين الأوروبيين على نحو ما في أمريكا، اجتلبوا عن طريق تجارة الرقيق ملايين السود الإفريقيين إلى هناك، ثم واصلوا مهمة اقتلاع الإسلام ولغته العربية من أوساط أولئك المسترقين، فقد كان أكثر من نصف أولئك الأرقاء الأفارقة مسلمين انتزعوا من ممالك غرب إفريقيا التي كانت حواضر عامرة في ذلك الحين.

وقد صمد أكثر أفراد الجيل الأول من المسترقين على دينهم، إلا أن أهوال الرق وأحكامه المذلة المهينة التي بعثرت أسرهم وبددت وحداتهم الصغيرة بدأت تزعزع انتماء الأجيال اللاحقة منهم إلى دين الإسلام، وذلك إلى أن اندثر انتماؤهم إليه نهائياً مع مطالع القرن العشرين!

وقد حفظت لنا وثائق قليلة سيراً ذاتية مثيرة كتبت باللغة العربية لأفراد من الجيل الإفريقي المسلم الأول الذي اجتلب إلى أمريكا وحافظ على إيمانه[٤]، كما حفظت لنا وثائق أخرى قصص تحول ذراريهم عن دين الإسلام.. وتحفظ سجلات أسماء السود الأمريكيين الحاليين - وغالبيتهم من غير المسلمين - أسماء عربية كثيرة في أوساطهم تشير إلى أصولهم الإسلامية العربية القديمة المندثرة.

(٤) يمكن مراجعة نماذج من السير الذاتية للرقيق الإسلامي في أمريكا في عدة كتب صدرت خلال العقدين الأخيرين، أهمها وأوسعها:
Austin Allan D. African Muslims in Antebellum America : A Sourcebook, Garland Publishing , New York ,1984.

الهجرات العربية الأولى:

وفي نهايات القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين جاءت الهجرات العربية الأولى من سورية القديمة (تعادل لبنان وفلسطين وسورية والأردن في الجغرافيا الحالية) بأفواج كبيرة من الفارين من القهر السياسي التركي والراغبين في تحسين أوضاعهم المعيشية، وكانت غالبية أولئك المهاجرين من أشباه الأميين وأنصاف المتعلمين، وانخرط معظمهم في الأعمال الهامشية والتجارة بالمفرق، وتزوج الكثير منهم بالأمريكيات وأنجبوا منهن جيلاً هشاً واهناً لم يتزود بالمقومات الثقافية العربية الإسلامية التي تكفي لصموده في بوتقة الإذابة الثقافية الأمريكية، وكان نفوذ الأمهات أكبر من نفوذ الآباء على ذلك الجيل، فلم يكتب لأكثره أن يحافظ على تراث الآباء.

وتذكر بعض الأدبيات التي تناولت بالتحليل أحوال ذلك الجيل، أن معظم أفراده لم يهتموا بشيء يذكر من الشعائر الدينية، ولو على سبيل المحافظة التقليدية على المظاهر والأعراف؛ ولما اتخذ بعض المحللين الاجتماعيين والأنثروبولوجيين من أداء صلاة الجمعة وصوم رمضان معيارين لأدنى درجة من درجات الالتزام الديني، كانت حصيلة ذلك الجيل منها ضعيفة للغاية، وبذلك ترشحوا بجدارة لقدر الذوبان[١].

ويذكر بعض من درسوا تلك المرحلة أن أبناء المسلمين فقدوا بسرعة ملكة التحدث باللغة العربية، واتخذوا أسماءً نصرانية اتقاء لمشاعر التمييز، وتزوجوا من غير المسلمات، وبخروج أولئك الأبناء عن نطاق أسرهم نسوا كل ما يتعلق بالعروبة أو الإسلام، وكانت المحصلة أن هُجرت المساجد القليلة التي بناها جيل الآباء، بحيث لم تجد من يغشاها في أواخر الأربعينيات.

ويذكر البروفيسور نبيل إبراهام الذي عاش منذ طفولته بديترويت، أن مساجد تلك الناحية أضحت أماكن للتسلية واللهو والتصدية، حيث استغلت ساحات المسجد

الواسعة لتلك الأغراض[٢].

وقد تاحَ لكاتب هذه السطور في عام ١٩٨٩م أن يزور مسجدين قديمين بالشمال الأمريكي بيع أحدهما وتحول جزء منه إلى صالة رقص، وآخر خصصت إحدى قاعاته للرقص المختلط. وقد تمكن المسلمون بحمد الله من تطهير المسجد الثاني، واستخلاصه للصلاة، وتبقى عليهم أن يستعيدوا المسجد الأول عن طريق الشراء بعد أن باعه أحفاد المهاجرين الألبان تخلصاً منه بعد أن هجروا فرض الصلاة واتبعوا الشهوات.

هذا وقد استغلت جهات التنصير الأوضاع اللاهية بالمساجد، كما يذكر بعض من تابعوا تاريخ تلك الفترة، فدخلوها من أجل أن ينصروا المسلمين من داخلها، فكانت تلك ذروة المأساة أن يلاحق المسلمون في مساجدهم، وأن يُذوَّبوا من هناك في المصهر الأمريكي[٣].

---

(١) Sameer Abraham & nabeel Abraham, Eds Arabs in The New World : Studies on Arab American Communities Wayne State University , Detroit , 1981 P. 114.

(٢) Nabeel Abraham & Andrew Shryoch ,Eds. Arab Detroit :From Margin to Mainstream, Wayne state University Press ,Detroit, 2000, P. 296.

(٣) El- Kholy, M. M. The Arab Moslims in the United States of America: Religion and Assimilation. College University. College University, New Haven, Conn 1966, p.296.

أمة الإسلام الضائعة في أمريكا:

وفي الأوان الذي شهد تساقط المسلمين المهاجرين وذوبانهم، كانت تنشأ في أمريكا حركات إسلامية داخلية وسط الأقلية السوداء التي خرجت لتوها من ربقة الرق، وتأسست عدة حركات لنشر الإسلام وسطهم، من أهمها: حركة المسلمين الموريسكيين التي تأسست بنواحي نيو آرك في عام ١٩١٣م، وقد تزعمها نوبل ودرو [درو] علي الذي قام بترجمة القرآن ترجمة زائفة أفسدت مراميه ومعانيه[١]. ثم أفسد رسالته بادعائه النبوة زاعماً أنه رسول الله إلى السود مثلما كان محمد صلى الله عليه وسلم رسول الله إلى البيض!

ولم تخل الحركات الإسلامية وسط السود من مثل هذا التخليط، لا سيما الحركة التي حملت أسماء متعددة، أهمها: أمة الإسلام الضائعة، وقد تزعمها أليجا محمد في ديترويت، وقد تأسست في ١٩٣٤م في رد فعل عنصري واضح يقول بتفوق الجنس الأسود على الأبيض، ويقصر اعتناق الرسالة الإسلامية عليه، حيث لا يجوز للبيض اعتناق الإسلام، ولا دخول معابد تلك النحلة العجيبة التي نزعت فيما بعد نحو العنف والتمرد وإنشاء مجتمع منعزل عن المجتمع الأمريكي الأبيض، وشوَّشت بتلك النزعات الوخيمة على مضامين الرسالة الإسلامية ومستقبل الدعوة إليها، حيث بدا لكثير من الأمريكيين أن الإسلام دين عنصري خاص بالجنس الأسود.

ولم يقصِّر بعض غلاة قادة الحركة الإسلامية التي تدعى بالسوداء في مجهود تنفير البيض من الإسلام عندما أعلنوا أن إسلام البيض غير مقبول؛ لأنهم جنس ملعون عوقب ببياض اللون ومسخ خلقه بعد أن كان أسود سوياً يوم الخلق.

وحاول بعض الدعاة المسلمين الجسورين في صفوف البيض أن يتجاوزوا تلك العقبات من غير كثير توفيق، وأولهم هو الداعية محمد الكسندر رسل ويب، ١٨٤٧- ١٩١٦م، ذلك الرائد لم تدرس إسهاماته التاريخية حتى الآن.

ولد في نيويورك في عام ١٨٤٧م لأب كان يعمل بنشر الصحف، ولما كان الوالد غنياً مقتدراً فقد بعث بابنه إلى المدارس ذات المستوى التعليمي والتثقيفي الراقي، وفيها طور الابن حسَّاً أدبياً واستولى عليه غرام القراءة والكتابة البحثية والفكرية والأدبية، ونشر عدداً وفيراً من المقالات والأبحاث والقصص القصيرة، وورث مهنة أبيه في نشر الصحف، وزاد عليها بشرائه صحيفة The Missouri Republican. وهي إحدى كبريات الصحف الأمريكية في ذلك الأوان، وظل يصدرها لمدة ثلاث سنوات، ورأس تحرير عدة صحف بعد ذلك في كل من سانت لويس وشيكاغو.

وفي عام ١٨٨٦م عينه الرئيس الأمريكي كليفلاند قنصلاً بالبعثة الدبلوماسية الأمريكية بالفلبين، ولم يستغرقه العمل الدبلوماسي، إذ طغى عقله الفياض فشمل بتأملاته الأديان الشرقية التي تعرَّف عليها هناك، وانفعل بعقائد الدين الإسلامي، فخصَّها بمزيد من الدرس، وقرر أن يعتنق الإسلام، ولم يَرُدَّه عن ذلك لا منصبه الدبلوماسي الراقي ولا وَهْلَة قومه البيض واستغرابهم لما اعتراه، وخطا خطوة أخرى باتخاذه قراراً بالاستقالة من العمل الدبلوماسي ليتفرغ بالكلية لنشر العقائد الإسلامية في الولايات المتحدة.

(١) عنوان تلك الترجمة هو: The Holy Koran of the Moorish Science Temple of America. والغريب أن بعض الدارسين يستخدمها على أنها ترجمة صحيحة للقرآن الكريم!

وقد تزود لتلك المهمة بزاد فكري وعلمي واسع، وعقد حلقة اتصالات شملت مفكرين إسلاميين هنوداً مثل الشيخ بدر الدين عبد الله خير، ودعاة من الجزيرة العربية مثل الشيخ الحاج عبد الله عرب وهو تاجر من المدينة المنورة تبرع بثلث ثروته لصالح مشروع نشر الإسلام في أمريكا، وأنشأ محمد عقب رجوعه إلى بلاده منظمة خيرية دعوية سماها: The American Islamic Propaganda، وألف كتاباً لطيفاً من نحو سبعين صفحة أسماه: Islam in America [1] كرسه بكامله لتعريف الأمريكيين بالإسلام ودحض الشبهات المنتشرة بينهم عن عقائد الإسلام وشرائعه.

ورغم قوة العارضة الفكرية لرسل، واقتداره الصحفي العالي، وكثرة أمواله، ومكانته الملحوظة في طبقات المجتمع الأمريكي؛ فقد كان حظ دعوته من النجاح ضئيلاً، ولم يتمكن من تأسيس حركة إسلامية يعتد بها، ولا بناء مساجد أو مؤسسات تعليمية ثابتة، ولم يخلف أنصاراً أقوياء يحملون دعوته من بعده، وكل ما بقي من آثاره هو كتابه ذو القيمة التاريخية والأثر الريادي لتلك المحاولة الجسورة لاقتحام البيض مجال الدعوة الإسلامية.

(١) Mohammed Alexander Russell Webb, Islam in America: A Brief Statement of Islam and Outline of American Islamic Propaganda, Edit. by Muhammed Abdullah al-Ahari Bektashi Magribine Press of Chicago,.

مؤشرات التأسيس والتوطين:

وظل حظ الدعوات الإسلامية بكافة أطيافها من النجاح بسيطاً في المعترك الأمريكي إلى ستينيات القرن الماضي، حيث بدأ نمط الهجرات الإسلامية يأخذ في التحول الإيجابي، فأصبح الغالب على المهاجرين أنهم من أصحاب التعليم الأفضل، حتى بالمقارنة مع المستوى الأمريكي العام، ونال الكثيرون منهم مراكز مهنية وعملية مرموقة، وتمتعوا بمستويات اقتصادية ممتازة.. وقد كانت تلك هي الحقبة التي انبثق وتعالى فيها نور الصحوة الإسلامية في المشرق، فحمله أخيار المهاجرين معهم إلى المغرب.

وعلى أيدي هؤلاء بدأت مجهودات تأسيس وتوطين العمل الإسلامي بالمهجر، حيث ترسخ وجوده بعد مجاهدات كثيرة بمنظمات قوية مثل اتحاد الطلاب المسلمين The Muslim students Association of The United States & Canada، والحلقة الإسلامية لشمال أمريكا The Islamic Circle of North America، واتحاد العلماء الاجتماعيين المسلمين The American Muslim Social Scientists، واتحاد الأطباء المسلمين The Islamic Medical Association، ونشأت المدارس الإسلامية ذات الدوام الكامل من صف الحضانة إلى صفوف الدكتوراه.

وتوجد بأنحاء الولايات المتحدة الأمريكية اليوم نحو ثلاثمائة مدرسة إسلامية للتعليم العام، وعدة مؤسسات للدراسات الجامعية، منها: الجامعة الأمريكية المفتوحة، والجامعة الإسلامية العالمية، وجامعة الإنترنت، والجامعة الإسلامية بشيكاغو، ومدرسة الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية والإسلامية، كما أنشئت بعض المراكز البحثية المتقدمة المتخصصة في الفكر الإسلامي، أهمها: المعهد العالمي للفكر الإسلامي بفرجينيا.

وتضاعف عدد المساجد والمراكز الإسلامية، حيث بلغ نحواً من ألفي مسجد ومركز إسلامي.

فضل الغدو للمساجد وعمارتها

■ عبد العزيز مصطفى الشامي

المساجد بيوت الله في الأرض، خير البقاع وأزكاها، وأطيب الأماكن وأفضلها، مهوى أفئدة الصالحين، وبها تتعلق قلوب المؤمنين، على أبوابها تقف الفتن، ويحرص المسلم العاقل على بنائها إن استطاع، وعلى عمارتها وتنظيفها وتطييبها، فهي أعز عليه من بيته، وقد رتَّب الشرع الشريف على ذلك كله أجوراً عظيمة.

ولما اعتاض كثير من الناس عن المساجد وإتيانها ولزموا الشاشات، وعكفوا على المباريات، وغاب كثير من الناس عن المساجد، وتركوا حِلق الذكر ومصاحبة العلماء بها، وانشغلوا عن عمارتها؛ كانت هذه الكلمات تذكيراً.

فضل تعلق القلب بالمساجد:

في الحديث عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّه يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ... إِمَامٌ عَادِلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ اللَّه تَعَالَى، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، وَرَجُلٌ كَانَ قَلْبُهُ مُعَلَّقاً بِالْمَسْجِدِ إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْه...»[1].

فهذا العبد لما آثر طاعة الله تعالى، وغلب عليه حبه؛ صار قلبه معلقاً بالمساجد، ملتفتاً إليها يحبها ويألفها؛ لأنه يجد فيها حلاوة القربة، ولذة العبادة، وأُنس الطاعة، ينشرح فيها صدره، وتطيب نفسه، وتقر عينه، فهو لا يحب الخروج منها، وإذا خرج تعلق بها حتى يعود إليها.

(١) متفق عليه.

وهذا إنمـــا يحصل لمن ملك نفســـه وقادها إلى طاعة الله جلّ وعلا فانقادت له، فلا يقصر نفســـه على محبة بقاع العبادة إلا من خالف هواه، وقدم عليه محبة مولاه جل في علاه. أما من غلبته نفسه الأمّارة بالســـوء، فقلبه معلّقٌ بالجلوس في الطرقات، والمشي في الأســـواق، محبٌ لمواضع اللهـــو واللعب، وأماكن التجارة واكتساب الأموال.

وعن أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِـــهِ مُتَطَهِّراً إِلَى صَلاَةٍ مَكْتُوبَةٍ؛ فَأَجْـــرُهُ كَأَجْرِ الْحَاجِّ الْمُحْرِمِ، وَمَنْ خَرَجَ إِلَى تَسْـــبِيحِ الضُّحَى لاَ يُنْصِبُـــهُ إِلاَّ إِيَّاهُ؛ فَأَجْرُهُ كَأَجْـــرِ الْمُعْتَمِرِ، وَصَـــلاَةٌ عَلَـــى أَثَرِ صَـــلاَةٍ لاَ لَغْوَ بَيْنَهُمَـــا كِتَابٌ فِي عِلِّيِّينَ»[1].

فلينظر المحب لعظم الأجر المعدّ له عند خروجه من بيته متطهـــراً ليؤدي فريضة مـــن فرائض الله، مخلصاً لا يخرج رياء ولا ســـمعة، بل يؤديها خالصاً بهـــا قلبه متوجهاً إليه وحده راغباً فيما عنده، فأجره كأجر الحاج المحرم، ومن خرج إلى سُنة الضحى يعود بأجر المعتمر، فما بال كثير منا يزهد في أجر كهذا؟!

ويـــزاد هذا الأجر يـــوم الجمعة، فعَـــنْ أَوْسِ بْنِ أَوْسٍ الثَّقَفِيِّ رضي الله عنه قَالَ: سَـــمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـــلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ غَسَّلَ وَاغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَبَكَّرَ وَابْتَكَرَ، وَمَشَـــى وَلَـــمْ يَرْكَبْ، فَدَنَا مِنَ الْإِمَامِ، وَاسْـــتَمَعَ وَلَمْ يَلْغُ؛ كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ أَجْرُ سَنَةٍ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا»[2].

هـــذا الأجـــر العظيم فـــي إتيان المســـاجد يوم الجمعـــة، حتى صارت الخطوة الواحـــدة تعدل أجر ســـنة، تحصّل أجر صيام ٣٦٠ يوماً وقيام ٣٦٠ ليلة، بماذا؟ بالاغتســـال قبل الغدو إلى المساجد، والتبكير إلى المســـاجد، والاســـتماع والإنصات عند الموعظة، وصلاة ما كتب الله لك، فلماذا لا يحرص العبد على العمل الصالح؟ فلعل كفة الحســـنات ترجّح بحسنة، والعبد منا لا يدري بأي عمل يدخل الجنة.

(١) أبو داود ٥٥٨، وحسنه الألباني.
(٢) أحمد ١٦٩٦٢، والترمذي ٤٩٦، وابن ماجه ١٠٨٧، وصححه الألباني.

الجوار المبارك:

وردت عـــن النبي ﷺ وعن أصحابه الكـــرام أحاديث وآثار كثيرة في الحض على لزوم المســـاجد، وإتيانها، والأجر العظيم في ذلك، ومنها:

أن النبي ﷺ قال: «إن الله لينادي يوم القيامة: أين جيراني، أين جيراني؟ فتقـــول الملائكة: ربنا! ومـــن ينبغي أن يجاورك؟ فيقول: أين عُمّار المساجد؟»[3].

وعن أبـــي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «أحب البلاد إلى الله مساجدها، وأبغض البلاد إلى الله أسواقها»[4].

وعن عَبْد اللَّه بْن مَسْـــعُودٍ رضي الله عنه قال: «مَنْ سَـــرَّهُ أَنْ يَلْقَى اللَّهَ غداً مُسْـــلِماً؛ فَلْيُحَافِظْ عَلَى هَؤُلاءِ الصَّلَوَاتِ حَيْثُ يُنَادَى بِهِنَّ، فَإِنَّ اللَّهَ شَـــرَعَ لِنَبِيِّكُمْ ﷺ سُـــنَنَ الْهُدَى، وَإِنَّهُنَّ مِنْ سُنَنِ الْهُدَى، وَلَوْ أَنَّكُمْ صَلَّيْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا يُصَلِّي هَذَا الْمُتَخَلِّفُ فِي بَيْتِهِ، لَتَرَكْتُمْ سُـــنَّةَ نَبِيِّكُمْ، وَلَوْ تَرَكْتُمْ سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ لَضَلَلْتُمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ يَتَطَهَّرُ، فَيُحْسِـــنُ الطُّهُورَ، وَيَعْمَدُ إِلَى مَسْجِدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَسَاجِدِ، إِلاَّ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا حَسَنَةً، وَرَفَعَهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْهُ بِهَا سَـــيِّئَةً، وَلَقَدْ رَأَيْتُنَـــا وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنْهَا إِلاَّ مُنَافِقٌ مَعْلُومٌ نِفَاقُهُ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ يُؤْتَى بِهِ يُهَادِي بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ حَتَّى يُقَامَ فِي الصَّفِّ»[5].

في الأحاديث الثلاثة فضل المجاورة ولزوم المساجد، وأن ذلك شـــعار الصالحين، ويورث صاحبه مقاماً عظيماً عند الله تبارك وتعالى. وفي التخلف عن المساجد، ومن ثَم إضاعة الصلوات أو تأخيرها؛ شـــؤم في النفس، وضيق في الرزق، وجهد في البدن، وعسر في الخلق، والعكس بالعكس، والجزاء من جنس العمل.

(٣) أبو نعيم في حلية الأولياء ٢١٣/١٠، وصححه الألباني في الصحيحة ٢٧٢٨.
(٤) مسلم ٦٧١.
(٥) مسلم ٦٥٤.

فضل التبكير إلى الصلاة:

كم في المبادرة والتبكير إلى صلاة الجماعة في المسجد من الأجر العظيم!! فمن ذلك:

١ أن الجالس قبل الصلاة في المسجد، انتظاراً لتلك الصلاة؛ هو في صلاة - أي له ثوابها - ما دامت الصلاة تحبسه.. فعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ لما أخّر صلاة العشاء الآخرة، ثم خرج فصلى بهم، قال لهم: «إنكم لم تزالوا في صلاة ما انتظرتم الصلاة»[١].

٢ أن الملائكة تدعو له ما دام في انتظار الصلاة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الملائكة تصلي على أحدكم ما دام في مصلاه ما لم يحدث: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه»[٢].

٣ أن المبكر يتمكن من أداء السنة الراتبة - في صلاتي الفجر والظهر - ويصلي نافلة في غيرهما.. ففي الصحيحين عن عبد الله بن مغفل المزني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بين كل أذانين صلاة، قالها ثلاثاً، قال في الثالثة: لمن شاء»[٣].

٤ أن المبكر للصلاة يمكنه استغلال ذلك الوقت لقراءة القرآن الكريم؛ فقد لا يتيسر له ذلك في أوقات أخر.

٥ أن هذا الوقت من مواطن إجابة الدعاء.. ففي الحديث عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الدعاء لا يُردّ بين الأذان والإقامة»[٤].

٦ أنه يدرك الصف الأول، ويصلي قريباً من الإمام، عن يمينه، وفي الحديث: «إن الله وملائكته يصلون على الصف الأول»[٥].

٧ أنه يدرك التكبيرة الأولى مع الإمام، والتأمين معه، ويحصل له فضل صلاة الجماعة.

٨ وهو نوع رباط في سبيل الله، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.
(٣) متفق عليه.
(٤) الترمذي ٢١٢، وصححه الألباني.
(٥) ابن ماجه ٩٩٧، وصححه الألباني.

يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الْخَطَايَا وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟». قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلاَةِ بَعْدَ الصَّلاَةِ، فَذَلِكُمُ الرِّبَاطُ»[٦].

وختاماً، فإن التأخر في الحضور إلى الصلاة كما أنه يفوّت أجوراً كثيرة، فهو أيضاً يفتح باب التهاون بالصلاة ويجر في النهاية إلى ترك صلاة الجماعة، فعن أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ رأى في أصحابه تأخراً، فقال لهم: «تقدموا فأتموا بي وليأتم بكم من بعدكم، ولا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله»[٧].

لقد أصبحت المساجد تشكو من قلة المرتادين لها والجالسين فيها لذكر الله، لقد فقدت الرجال الذين يسبحون الله فيها بالغدو والآصال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار.

فقدت العاكفين والركّع السجود الذين يعمرونها آناء الليل وأطراف النهار، فقد كانت المساجد فيما مضى بيوتاً للعبادة ومدارس للعلم وملتقى للمسلمين ومنطلقهم، فيها يتعارفون ويتآلفون، ومنها يستمدون الزاد الأخروي ونور الإيمان وقوة اليقين، بها تعلقت قلوبهم وإليها تهوى أفئدتهم، هي أحب إليهم من بيوتهم وأموالهم، فلا يملون الجلوس فيها وإن طالت مدته، ولا يسأمون التردد عليها وإن بعدت مسافتها، يحتسبون خطاهم إليها ويستثمرون وقتهم فيها فيتسابقون في التبكير إليها.

(٦) مسلم ٢٥١.
(٧) مسلم ٤٣٨.

جمعية العون المباشر
DIRECT AID

إمام إفريقيا

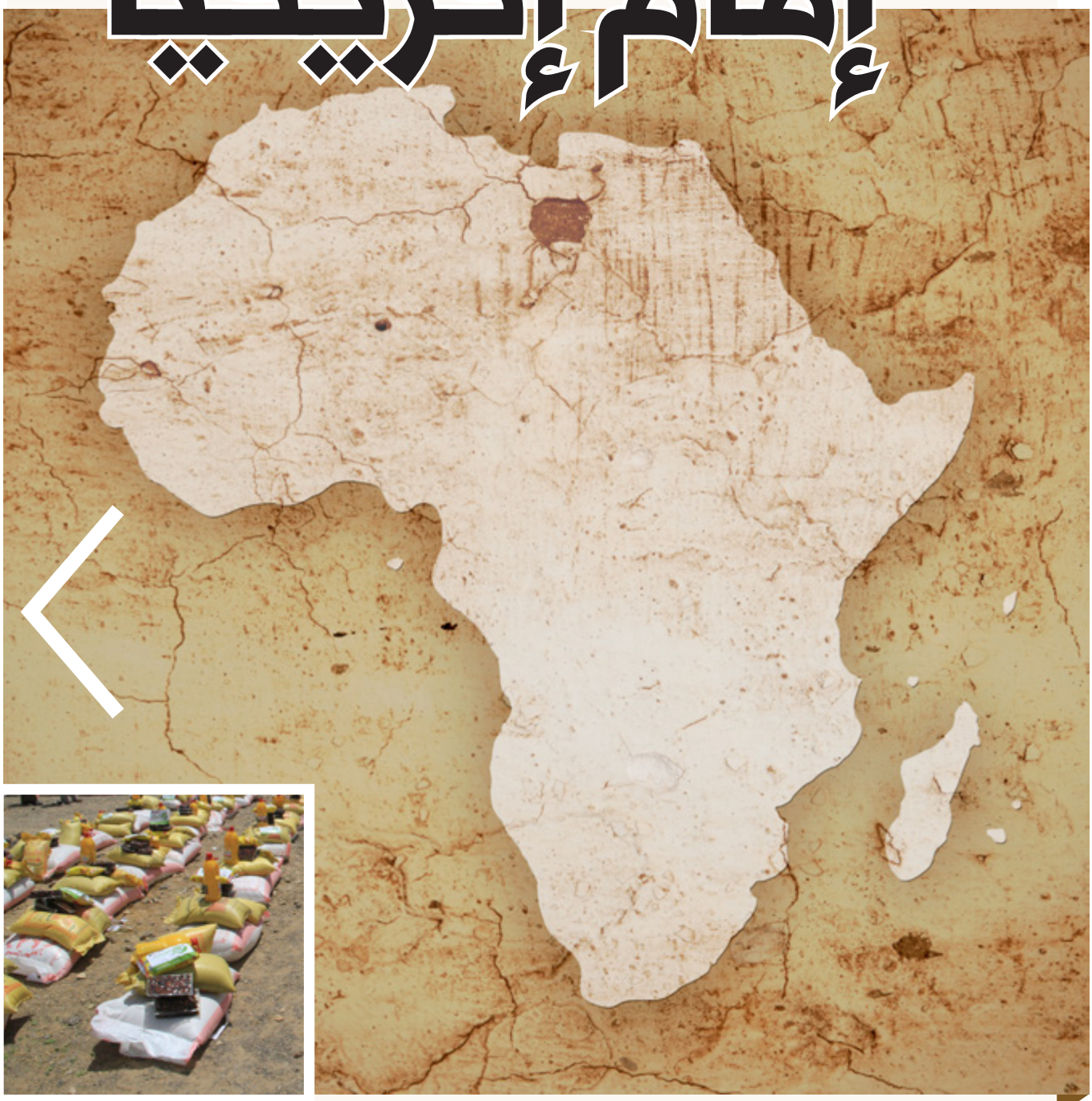

■ خالد بن عبدالله الفواز(*)
@kafawaz

رزئت الأمة الإسلامية وقطاع العمل الخيري بفقد شخصية بارزة من شخصيات العمل الخيري الدولي الذين أسهموا في ريادة العمل الخيري في إفريقيا، حيث أسس لجنة مسلمي إفريقيا التي أصبحت فيما بعد جمعية العون المباشر، وظل طول سنين حياته يبني هذا الكيان لبنة لبنة وخطوة خطوة حتى أقام مؤسسة خيرية يشار إليها بالبنان، كما أنه بنى منظومة من منظومات العمل الخيري الدولي في القارة الإفريقية اتسمت بصورة مُثلى بالمصداقية والحضور الميداني الفاعل، ورسمت صورة مشرقة من صور العمل الخيري، وكان لها قصب السبق في كثير من المجالات في العمل الخيري. وقد يسَّر الله لي اللقاء بالدكتور عبدالرحمن السميط في عدة مناسبات، سواء عند زيارتنا له في الكويت أو عند زيارته لنا في الرياض، وكذلك المشاركة معه في عدد من المؤتمرات الخليجية والدولية، ولما لمسته في شخصية الدكتور عبدالرحمن السميط القائد والداعية والطبيب والإداري والأب؛ فإني أسطر هذه الوقفات حول تجربته الخيرية والدعوية.. لن أتحدث عن الجوائز العالمية التي حصل عليها ولا عن مؤلفاته ولن أعدد منجزاته، فقد كفاني هذا الأمر الكثير ممن كتب عن الفقيد؛ لكني سأقف وقفات حول شخصيته التي اتضحت لي من خلال لقاءاتي به، على أن تفيدني وتفيد من يقرأ هذه الكلمات:

(خادم الدعوة في إفريقيا) لم يتخرج من الجامعة الإسلامية بالمدينة ولا من أم القرى ولا من الأزهر، وإنما تخرج من جامعة بغداد، وهي جامعة عريقة في تخصصاتها، لكنها كانت في فترة حكم حزب البعث العربي في العراق الذي عُرف بمحاربته لأي اتجاه متدين، ليس في الجامعة فحسب، بل في نواحي العراق.

عاش السميط رجلاً بسيطاً في هيئته وفي مسكنه وفي حركته وفي تعامله مع الناس، ما حفر محبته في قلوب الناس كبيرهم وصغيرهم مسؤولهم وفقيرهم، فرسم بذلك صورة للداعية المحسن الذي يرى الآخرين هم أصحاب المعروف عليه، سواء كانوا محسنين أم كانوا فقراء محتاجين، وربما يكون هذا سراً من أسرار القبول الذي وهبه الله لهذا الرجل.

رغم بساطة السميط وتواضعه إلا أنه كان قوياً في الحق لا يرضى أن يهان العمل الخيري، ويستميت في الدفاع عنه ومواجهة أعتى العتاة، وقد حدثني بقصة أذكرها «وهي أن حكومة السنغال في عهد الرئيس عبدو ضيوف أغلقت عدداً من الجمعيات الخيرية الإسلامية في ظل التوجه الفرانكفوني الذي تنتهجه الحكومة، وكان من بين من شملها القرار مكتب (لجنة مسلمي إفريقيا)، فغب السميط من هذا القرار الأهوج القاضي بإغلاق هذه الجمعيات التي جاءت لتحمل الخير للمجتمع السنغالي، وكانت للجنة مسلمي إفريقيا جهود مباركة في إقليم (كازامانس) الذي تنشط فيه حركة انفصالية يقودها مسيحيون يطالبون بالانفصال عن السنغال، فثار الأهالي المسلمون من قرار الإغلاق (وهم المؤيدون للحكومة)، وضغطوا على الحكومة بأن مشاريع لجنة مسلمي إفريقيا التنموية في المنطقة هي أهم عوامل الاستقرار للمسلمين في المنطقة، وبالتالي مواجهة دعاوى الانفصاليين، فوافقت الحكومة على إعادة افتتاح المكتب، لكن السميط رفض افتتاح المكتب تأديباً للحكومة، فازداد ضغط الأهالي على الحكومة ما اضطر الرئيس عبدو ضيوف إلى الاتصال بالشيخ جابر (رحمه الله) للتوسط لدى السميط بإعادة افتتاح المكتب، ما كان له أبلغ الأثر في تأديب حكومة السنغال من جراء هذا القرار الأهوج».

(*) أمين عام المنتدى الإسلامي.

كان الدكتور عبدالرحمن السميط يركز على المشاريع طويلة المدى التي تهتم ببناء الإنسان والاستثمار في تنميته، وهي من المشاريع النوعية التي تحتاج لطول نفس وصبر ومثابرة قد لا يقوى عليها كثير من النفوس التي تبحث عن الثمار السريعة؛ لذا فقد كان لهذا النوع من المشاريع الأثر الواضح في التنمية وتحسين حال المجتمعات الفقيرة، ومن الأمثلة الواضحة في ذلك: كفالة الأيتام التي تراعي تكامل البناء الإنساني للفرد، ولا أدل على أن من بين الأيتام الذين تربوا في مشاريع الجمعية من تولى مناصب وزارية في دولهم، ومن أصبح سفيراً لبلده في الكويت، وهذا النوع من الاستثمار في رأس المال البشري لا شك في أنه أخذ وقتاً طويلاً حتى تم قطف نتائجه.

كان السميط يعيش لقضيته وتحقيق أهداف جمعيته؛ لذا كانت تأكل وتشرب معه في كل أوقاته، ما أورثه براعة في تسويق مشاريعه، ولا أذكر أني التقيت السميط إلا وكانت بصحبته مشاريع ليسوّقها للجمعية، ورجل بهذه المواصفات وهذا الاستيعاب الكامل للتفاصيل كان خير مسوّق لهذه الجمعية.

كان السميط مستوعباً لكثير من تفاصيل العمل الذي تقوم به الجمعية، فلم تعد تفرق بين السميط والجمعية، إذ إنهما اسمان لكيان واحد، وهذا الاستيعاب الكامل أورث السميط القدرة العالية على تمثيل الجمعية في مختلف المحافل، بل كان خير من يتحدث عن جمعيته.

استثمر الدكتور عبدالرحمن السميط كثيراً في التعليم؛ شعوراً منه بالعوز الذي تعيشه المجتمعات الإسلامية في إفريقيا في موضوع التعليم وضعف تأهيل أبناء المسلمين، وبالتالي ضعف مستواهم الاقتصادي وضعف مستوى التأثير في مجتمعاتهم، ومن هنا فقد ركز على إنشاء المشاريع التعليمية المميزة في مختلف المراحل، سواء في التعليم العام أو التعليم الجامعي أو المهني، كما أنه انتهج سياسة راشدة في أن هذه المنشآت التعليمية تسيّر نفسها بنفسها فلا تشكل عبئاً تشغيلياً على الجمعية مما يعيق التوسع في مشاريع مماثلة.

رغم أن نشاط السميط بدأ تحت مظلة (لجنة مسلمي إفريقيا)، وهي إحدى لجان جمعية النجاة الخيرية؛ إلا أن النمو المطرد لهذه اللجنة أوصلها إلى حال أنها أصبحت أكبر من الجمعية الأم وأكثر شهرة منها، وقد كان عامل إيقاف تسجيل جمعيات خيرية جديدة في الكويت حجر عثرة أمام السميط، لكنه لم يستسلم وظل ينافح حتى حصل على موافقة (تعتبر استثنائية) من الشيخ جابر - رحمه الله - لإنشاء جمعية العون المباشر عام ١٩٩٩م، وهذا أعطى لهذا المشروع قوة قانونية وتسويقية سهّلت للجمعية الانطلاق إلى آفاق جديدة من العمل الخيري الرحب.

لم يعش عبد الرحمن السميط همَّ العمل الخيري لوحده، بل عيّش معه في دعمه ومساندته وتنشئة أبنائه، أسرته التي كان لدور زوجته (أم صهيب) أبلغ الأثر في حب العمل الخيري والمساهمة فيه. وقد كان لاصطحاب السميط أسرته معه في إفريقيا ولفترات طويلة، أبلغ الأثر في تحويل الأسرة جميعها إلى خلية نحل في خدمة هذه الرسالة الخالدة، وهذا بدوره يسهل على الداعية مهمته الكبيرة، وتتحول أسرته بدلاً من أن تكون شكّاءة من انشغاله وكثرة غيابه إلى أن تكون سنداً له ومعيناً في تحقيق رسالته.

كان من توفيق الله للدكتور عبد الرحمن السميط انطلاق عمله الخيري من بيئة حاضنة للعمل الخيري ومشجعة عليه كالبيئة الكويتية، فحب العمل الخيري والمساهمة فيه إحدى سمات المجتمع الكويتي، ولا أدري هل البيئة الكويتية هي التي دعمت السميط، أم أن السميط هو الذي أسهم في تفصيل المجتمع الكويتي مع العمل الخيري أم هما معاً؟

أسهم عبد الرحمن السميط في تسويق اسم الكويت عالمياً، ما هيَّأ لها سمعة في المحافل الدولية تفوق حجمها الجغرافي والسكاني، وأذكر أني التقيت وفداً برلمانياً كويتياً في إحدى الدول الإفريقية فقالوا لي لقد شهدنا عن قرب أثر العمل الخيري الكويتي في تسويق اسم الكويت وتحقيق امتداد شعبي ودولي للكويت بسبب عملنا الخيري، ومن أكبر رواده د. عبد الرحمن السميط. ولقد حفظت الكويت وقدَّرت للدكتور السميط هذا الجهد المبارك ولغيره من رجال جمعيات العمل الخيري الكويتي.

وفي الختام: كلمات مترابطة لا تستطيع أن تفصل بينها: (السميط، إفريقيا، العمل الخيري، الكويت)، سطرها في سجل التاريخ رجل نحبه والله حسيبه ولا نزكي على الله أحداً، باع دنياه بآخرته، فكسب الدنيا والآخرة.

أسأل الله أن يرفّه درجته في عليين، وأن يجزيه خير الجزاء على ما قدم، وأن يبارك في ذريته وفي منارات الخير التي بناها، وأن يسكنه فسيح جناته، إنه سميع مجيب.

أفضل تطبيق "مفكرة" إسلامي على "آب ستور"
باللغتين العربية والإنجليزية

مجلة البيان

والعديد من الخدمات المميزة | اتجاه القبلة | أوقات الصلاة | تقويم: هجري/ميلادي | واجهه خدمية مميزة

Al-Bayan Digital Calendar

Available on the iPhone App Store

www.albayan.co.uk